عبد السلام محمد هارون

تهذيب
الحيوان للجاحظ

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة دار الرفاعي بالرياض

د السلام محمد هارون

تهذيب كتاب الحيوان

الطبعة الثانية
١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة
دار الرفاعي بالرياض

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

رقم الإيداع : ٤١٩٣ / ٨٣

الترقيم الدولى : ٩٧٧ - ٥٠٥ - ٠٠٧ - ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالجاحظ . قالوا : سمِّىَ بذلك لأن عينيه كانتا جاحظتين ، أى بارزتين .

وكان مولد الجاحظ بالبصرة سنة ١٥٠ فى زمان الدولة العباسية ، وعاش بالعراق زمناً طويلا فى عصر زاخر بالعلم والفن والأدب ، وتلقَّى علمه من أفواه شيوخ البصرة والكوفة ، الذين كان من أعلامهم أبو عبيدة معمر بن المثنَّى ، والأصمعى عبد الملك بن قُرَيب ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو الحسن الأخفش . كما كان شيخَه فى علم الكلام والفلسفة أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النظام .

وكان الجاحظ يقصد أحياناً إلى المِرْبد ، وهو موضع كان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من البوادى للتجارة وتبادل السلع ، كما يلتقى فيه الشعراء والرجاز ، والخطباء ، والرُّواة ، والنسَّابون ، فيعرضون نتاج أفكارهم ، وروائع آثارهم ، على شيوخ النقد وصيارفة الأدب .

وأتيحت للجاحظ فرصة الاطلاع على كتب الفلاسفة والأطبَّاء والمتكلمين ، كما لم تخلُ ثقافته من عناصر يونانية وفارسية .

قال أبو هِفَّان : « لم أر ولا سمعتُ من أحبَّ الكتب والعلومَ أكثرَ من الجاحظ ؛ فإنه لم يقع بيده كتاب إلاّ استوفى قراءته كائناً ما كان » .

وأتم الجاحظ ثقافته كذلك برحلته إلى دمشق وأنطاكية وغيرهما من البلدان .

ثم رحل إلى بَغْدَاد وهو فى الخمسين من عمره واتَّخذها له مقاما ؛ وكان ذلك فى عصر المأمون سنة ٢٠٤ ، وتصدَّى للتعليم والمناظرة ؛ فقصده الأدباء والعلماء ، وأمَّه الطُّلاَّب من كل صَوْب .

ولما ذاع فَضلُه ، وانتشر صِيتُه ، وعُرِفت مؤلَّفاته ، أقبلتْ عليه الدنيا ، وصارت له وظائفُ ماليّة يتقاضاها من دارِ الخلافة فى كل شهر ؛ وولى ديوانَ الرسائل فى عهد المأمون ، ولم يمكثْ به إلاّ ثلاثة أيام ثم بادر إلى الاستعفاء والاعتذار ، زُهْداً منه فى قَيْد الوظيفة ، وإيثاراً للحرية والعافية .

وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك ، ابن الزيات ، وزير المعتصم ، وإليه أهدى كتاب « الحيوان » فكافأه بخمسة آلاف دينار ، وهو مالٌ عظيم له قدره فى ذلك العصر القديم .

وفى أواخر عهد الخليفة المتوكّل مَرِض الجاحظ ، وظَلَّ مفلوجا نحو ثمانى سنوات بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٥ . قال تلميذه أبو العباس المبرد : عُدت الجاحظ فسمعتُه يقول : أنا من جانبى الأيسر مفلوج ، فلو قُرِض بالمقاريض ما علمتُ ، ومن جانبى الأيمن مُنَقْرس (١) ، فلو مرَّ بى الذبابُ لألِمْتُ . وأشدُّ ما علىَّ ستٌّ وتسعون – يعنى عمره !

وما زال فى علّته تلك حتّى وقَعَتْ عليه مجلدات العلم ، فكانت خاتمة حياته سنة ٢٥٥ فى أيام الخليفة المعتز بالله .

---

(١) أى مصاب بداء النقرس ، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

كتب الجاحظ :

عاصر الجاحظ ثلاثةٌ عُرفوا بكَثْرَة التأليف ، أحدهم أبو عبيدة مَعْمر بن المثنَّى (١١٠ – ٢٠٩) ، الذى بلَغَتْ مؤلفاتُه مائةَ مؤلَّف وخمسة .

والثانى أبو الحسن على بن محمد المدائنى (١٣٥ – ٢٥٥) ، وقد ألَّف نحو مائتين وأربعين مصنَّفا .

والثالث هشام بن محمد الكَلْبِى المتوفى سنة ٢٠٦ ، وله نحو مائة وأربعين مؤلفا .

وكان للجاحظ فى هؤلاء الرَّهْط أسوةٌ وحافزٌ فى المسابقة والمنافسة ، إلى ما وهب له الله من لَسَنٍ واقتدار ، ومن ذكاءٍ خارق نفَّاذ ، وذاكرةٍ فى العلم قويَّة ، وولوع بالمعرفة والتبيُّن ، وإلى ما وهب له من عُمْر مديدٍ فى دولة ناهضة ، فأخرج للمكتبة العربية زُهَاءَ [1] ثلثمائةٍ وستين مؤلفاً فى ضروبٍ شتَّى من العلم . وقد فُقِد الجمهور الأعظم منها بفعْلِ عَوَادِى الزمن وآثار الحروب المدمِّرة .

صنع الجاحظ هذه الكتب جميعا ، ولم يكن همُّه هَمَّ غيره من المؤلِّفين فى الجَمْعِ والرواية والحِفْظ ؛ وإنما كان مَنْهَجُه أنْ يبتكِرَ وأن يأتىَ بالطريف ، وأن يَخْلُقَ للناس بديعاً ، يمسح على جميعها بالدعابة والهَزْل ، ويُشيع الفكاهةَ فى أثناء الكلام ؛ فجمع بذلك قلوب الدارسين إليه .

ويُعَدُّ الجاحظ من طليعة الأدباء الذين مزجوا الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية .

---

(١) زهاء : قدر .

وطَرَق الجاحظ فى كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرَّبَ إلى العامة ، وحَرَص أشدَّ الحِرْصِ على استرضائهم . ولم يَنْس فى ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة فى المعارف العالية والسياسات الرفيعة ، وفى ذلك يقول أبو الفضل ابن العميد : « كُتُب الجاحظ تُعَلِّم العقْل أولاً والأدبَ ثانيا » .

ويقول عبد الله بن حَمُّود الزُّبيدى الأندلسى : « رضِيتُ فى الجنة بكتب الجاحظ عِوَضاً عن نعيمها ! » .

ويقول الجاحظ : ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمَرَ به ؛ وصِرتُ إليه – وكان قد أمرَ اليزيديَّ بالنظر فيها ليخبره عنها – قال لى : قد كان بعضُ من نرتضى عقلَه ونصدِّق خبَره خبَّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصَّنْعة وكثْرَة الفائدة ، فقلت : قد تُرْبى (١) الصفةُ على العِيان . فلما رأيته رأيتُ العِيان قد أربَى على الصفة ، فلَّما فليتُها (٢) أُرْبِى الفَلْىُ على العِيان ، كما أربى العيان على الصفة !!

أشهر كتبه :

وأشهر كتبه كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، ورسالة التربيع والتدبير .

كتاب الحيوان :

سبق اليونانيون أسلافَنا العربَ إلى التأليف فى علم الحيوان ، وألفوا فى ذلك كتبا ؛ منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ، ذكر فيه طبائعه ومنافعه . وكتاب الحيوان لأرسطاليس ، نقله ابن البطريق قديماً من اليونانية إلى العربية ، كما ترجم حديثاً إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

---

(١) ترْبى : تزيد .
(٢) أى فتشتها .

ونستطيع أن نقول : إن الجاحظ أول واضع لكتابٍ عربيٍّ جامع فى علم الحيوان ، وقد كان قبله وفى عصره محاولات شتّى لطائفة من العلماء يتحدَّثون فيها عن الحيوان ، منها كتاب الإبل للسجستانى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة وغيرهم . وكتاب الخيل لابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، وابن الكلبى . وكتاب الوحوش للأصمعى ، وأبى زيد ، والسجستانى . وكتاب الطَّيْر للسجستانى ، والنضر بن شميل . وكتاب النحل والحشرات للسجستانى . وكتاب النَّحل والعسل للأصمعى .

وهذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمى الخالص ، وإنما أُريدَ بها أن تكون باحثة فى اللغة أوّلا ، فهى بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له ، وهى لا تبحث فى طبع الحيوان وخصائصه بحثا ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه ، وأحواله وعاداته ، وإنما تجعل همَّها الأول هو اللغة .

أما الجاحظ فكتابُه ينطق بالقَصْد العلمى التفصيلى للحيوان جميعاً ، ولكل مملكة من ممالكه ، ولكل جنسٍ من أجناسه ، وهو فضلٌ للجاحظ على جميع مَنْ سبقَه أو عاصَرَه ممن كتب فى الحيوان . وإن كان قد أعوزَه بعضُ الترتيب والتهذيب ، فذلك شأن كل كتابةٍ جديدة فى أمر متشعِّب الأطراف ممدودِ النواحى .

مراجع كتاب الحيوان :

اعتمد الجاحظ على أمور خاصة رئيسة فى تأليف كتابه :

أولها : الينبوع الذى لا ينضب من القرآن وحديث الرسول .

والثانى : وعليه كان أكثر اعتماده : الشعر العربى . فالشعر العربى وبخاصة البدوىُّ منه قد تحدَّث فى الحيوان حديثاً طويلا ، تحدث فى الأنيس

منه ولم يهمل الوحشى ، بل جمع بين هذا وذاك ؛ فالعرب تكلَّموا على الإبل فى شعرهم ، وأسهبوا الكلام ، وتحدَّثوا فى نَعْتِها فلم يذَروا دقيقةً من دقائقها ، وتكلَّموا فى حَمْلها ونتاجها ، ورأْمِها [1] وحَنينها ، وحَلْبِها وألبانها ، وألوانِها وأنسابها ، وأصواتِها ودُعائها ، ورَعْيِها وشربها ، وسيرها وسُرَاها .

وكان لهم فى الخيل نَعتٌ مفصَّل ، وعناية بمثل ما اعتنوا به فى الإبل .

ووفَوا كذلك لكلابهم وشَائِهم ، ولا تكاد تجد قصيدةً معدودة للعرب إلا وللحيوان الأنيس فيها شأن .

أما الوحشيات – وفَلَوَاتهم مواطنُ غنيةٌ بها – فلم يُغْفلوها ، ونطق شعرهم بالأسد والنمر ، والذئب والثعلب وغيرها . وذكروا من الطيور النسور والعِقبان والرَّخَم ، والحِدأ والقطا والحجَل .

والجاحظُ يرى أنَّ العربَ – والأعراب منهم خاصة – قد ثَقِفُوا معرفة الحيوان ، وبَرَعوا فى ذلك البراعَة ، واستوعبوا حاله وعادَهُ . وفى ذلك يقول :

« وقَلَّ معنىً سَمِعنْاه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقَرَأْناه فى كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه فى أشعار العرب والأعراب » .

وهو يُظهر السبب فى جودة معرفة الأعراب للحيوان بقوله :

« وربما ، بل كثيراً ما يُبْتَلَوْنَ بالناب والمِخْلَبِ ، واللَّدْغ واللَّسْع ، والعَضّ والأكل ؛ فخرجْت بهم الحالُ إلى تعرُّف حال الجانى والجارح والقاتل وحال المجنىّ عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلبُ والهرب ، وكيف الداء والدواء ؛ لطول الحاجة ، ولطول وقوع البصر » .

---

(١) رئمت الناقة ولدها : عطفت عليه ولزمته .

وللجاحظ ثقةٌ تامة بالشعر العربى ، فهو يصدِّره فى الرد على أرسطو ويحتجُّ به عليه . قال بعد أن سرد قولَ أرسطو فى عقوق العقاب : « هذا قول صاحب المنطق فى عقوق العقاب وجفائها لأولادها . فأما أشعار العرب فهى تدلُّ على خلاف ذلك ، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

وكلّ لَجوجٍ فى العِنـان كأنها إذا اغتمست فى الماء فَتْخَاء[1] كاسِرُ
لها ناهضٌ[2] فى الوَكْر قد مهدت له كما مهدت للبَعل حَسْنَاءُ عَاقرُ

والمادة الثالثة من مواد الكتاب هى كتاب الحيوان لأرسطو الذى يلقِّبه الجاحظ بصاحب المنطق . وقد نقل عنه الجاحظ نصوصاً ليست من الكثرة بمكان ، ولكنها من القيمة والنفاسة بمكان عظيم . وقد تعرض كثير من هذه النصوص لنقد الجاحظ . وأحياناً يعتذر عنه بأن المترجمين لم يحسنوا النقل ولم يتوخَّوا الدقة والمطابقة ، فهو يقول :

« ولعل المترجم قد أساء فى الإخبار عنه » . ويقول : « فكيف أُسكُنُ بَعدَ هذا إلى أخبار البحريِّين وأحاديث السماكين ، وإلى ما فى كتاب رجلٍ – يعنى أرسطو – لعله إن وجد هذا المترجمَ أن يقيمه على المِصْطبة[3] ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته » .

والمادة الرابعة من موادّ الكتاب ، هى تلك المحاولة وذلك الكلام الذى ولَّده المعتزلة . وقد دفع بهم ذلك التيارُ العارم إلى مواطنَ شتى من نواحى الحِجَاج والجَدَل . وكأنَّما خلق الله كلَّ رجلٍ من أهل الاعتزال لساناً دائبَ التصرف والعمل ، فهم إن فرغوا من الكلام فى الصفات والخالق ، وفى

---

(١) الفتخاء من العقبان : اللينة الجناح .

(٢) الناهض : فرخ الطائر الذى وفر جناحه وتهيأ للطيران .

(٣) المصطبة : بناء مرتفع يجلس عليه .

التعديل والتجوير [١] ، وفى الوعد والوعيد ، فزعوا إلى الكلام فى السانحة والخاطرة ، وفيما يبدو للعين أنه دقيق مَهِين .

والكتاب معرض طريف لهذه المنازعات الكلامية ، ولا سيما الجزأين الأول والثانى منه . فكثيراً ما يجدُ القارئ : « قال صاحب الكلب » ، و « قال صاحب الديك » ، و « قال صاحب الحمام » .

ويبدو أيضاً أنه كان فى عصر الجاحظ نزاع كلامىّ خاص فى المقايسة بين الكلب والديك يتقدم الفريقَ الأول أبو إسحاق إبراهيم النظام ، ويتزعم الآخر مَعْبَد .

كما أن بعضَ الناس كانوا ينظرون إلى هذا النَّمَط وإلى هذا الضرب من الجدل يتداوله اثنان من رؤساء المتكلمين ، بعين التعجب والاستنكار . وقد ردّ عليهم الجاحظ رداً مُسْهباً صدَّره بقوله :

« فإن قلت : وأىُّ شئ بلغَ من قَدْرِ الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرغَ لِذكْرِ محاسنهما ومساويهما والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما ، شيخان من عِلْيَة المتكلمين ، ومن الجِلّةِ المتقدمين » .

ثم هو ينشئ بعد ذلك دفاعاً صادقاً يستغرق نحو عشر صفحات ، وفيه يحاول أن يقول : إن البحث فى شأن الحيوان ضربٌ من ضروب التعبُّد ، ولونٌ من ألوان البحوث الدينية التى تنتهى بصاحبها إلى معرفة عظمة الله ، وعظَم ما أبدع وبَرَأ .

والمادّة الخامسة من مواد الكتاب هى تلك الخِبْرَة الشخصية ، وذلك الوَلُوع الذى كان يدفع بصاحبنا إلى السؤال ممن يتوسَّمُ فيه العِلْم .

---

(١) التعديل والتجوير : أى الكلام فى نسبة العدل والجور إلى الخالق .

وكان بطبعه شعبياً ، مع أنه كان مقرَّباً نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء . فهو قد جالسَ الملاّحين مراراً ، وسمع من أحاديثهم . فمن ذلك قوله : « وسمعتِ حديثاً من شيوخ ملاّحى الموصل وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدورُ بينهم » .

وهو يتحدث مع صائد العصافير ويقول : « وخبَّرنى مَنْ يَصيدُ العَصافير » .

وأحياناً يخالط الحوَّائين ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى وفى ذلك يقول : « وشكا إلىَّ حوَّاء مرة فقال : أفقرنى هذا الأسود ومنعنى الكَسْب ، وذلك أن امرأتى جهلت فرمت به فى جُونةٍ (١) فيها أفاعى ثلاث أو أربع ، فابتلعهن كلَّهن – وأرانى حيةً منكَرة » .

قيمة كتاب الحيوان :

لا يعرِف فضلَ هذا الكتاب إلا مَنْ نَظَر فيه طويلا ، وتناول نواحيه بالدرس والتبيُّن .

وقد يُوهم اسمُه أنه قد خُصِّص بالحيوان وما يمتُّ إليه بسبب ، ولكن الحقَّ أن الكتاب مَعْلَمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسى المتشعبة الأطراف .

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية ، كما تحدّث فى سياسة الأقوام والأفراد ، وكما تكَلَّم فى نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

---

(١) الجونة بضم الجيم : سلة صغيرة مغشاة بالجلد .

وتحدث الكتاب فى كثير من المسائل الجغرافية ، وفى خصائص كثير من البلدان ، وفى تأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والشجر ، كما تناول الحديث فى الأجناس البشرية وتباينها ، وعَرَض لبعض قضايا التاريخ .

وفيه كذلك حديثٌ عن الطب والأمراض : أمراض الحيوان والإنسان ، وبيان لكثير من المفردات الطبية ، نباتيِّها وحيوانيِّها ومعدنيِّها .

وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب ، وأحوالهم وعادِهم ، ومزاعمهم وعلومهم ، كما أفاض القولَ فى آى الكتاب العربى وحديث الرسول العربى ، وكما فصَّل بعض مسائل الفِقْه والدين .

والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حُرِّ الشعر العربى ونادِره ، وناهيك باختيار أبى عثمان . وإن أردت الأمثال فهو قد جمع لك منها القَدْر الكبير ، أو أحببت الحديث فى البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاحُ إليه نفسك وتطمئن .

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نُثِرَت فى الكتاب نثراً ، وإنها لتطالعك بين الفَيْنَة والأخرى ، متمثِّلة فيما يَروِى من نادرة ، أو يَحكِى من قصَّة .

وأما المجون فلا عليك أن تمرَّ به لتَظْهَرَ لك ناحيةٌ من النواحى التى غلبت على كثير من متأدِّبى عصر الجاحظ التى لم يكن فيها حينئذ حرجٌ ولا خشية .

تهذيب كتاب الحيوان للجاحظ

هذا التراث الخالد الذى انحدر إلينا من ينابيع تاريخنا الثقافى لم تستطع عوادى الأيام ولا عوادى الناس أن تطمس من نوره المتألق ، أو تبلىَ من جِدّته الزاهية ، فعوادى الأيام لا تزيده إلا ضياءً ، وعوادى الناس الذين يبغون بهذه الثقافة العزيزة غوائل الشر ، ويتمّنون أن يصبحَ الليلُ فلا تبقى على هذه الدنيا من مقومات العروبة آيةٌ أو مَنار – تلك العوادى لم تستطع مع كثرة ما صاحت ، وشدة ما أجلبت ، أن تَخفِضَ من هامة العزّ ، ولا أن تُلِينَ من جانب ذاك الطود الراسى .

ولم أكن أبغى فيما جاهدت وأجاهد من سنين طوال ، إلاّ أن أسوق الإيمان إلى أولئك الجاحدين بثقافتنا ، المنكرين لمجدنا العقلى التليد .

ولقد كنت قديماً جلوت كتاب الحيوان لشيخنا الجاحظ ، وبذلت فيه كل الجهد لأقرِّبه إلى جمهرة العلماء والباحثين ، فكان فيما أخبرنى الناسُ عملا صادقاً ، رجوت أن يكون نافعاً .

ثم بدا لى من بعد أن أجلوَه مرة أخرى لجمهرة الأدباء والشُداة الذين حال بينه وبينهم صعوبة المنال . فلم يكن بدٌّ من أن أعرضه فى ثوب من التهذيب لا إخلال فيه بنص الكتاب ولا بطريقة تأليفه ، بل هو مساوق لطريقته ، سائر على منهاجه .

وقد اقتضانى هذا الغرض أن أنفى منه ما كان مألوفاً للقارىء فى زمان الجاحظ وما لا ينبغى أن يظهر عليه فى عصرنا هذا إلاّ الباحثون . لأنى أحببت أن يكون هذا الكتاب الخالد طوع يمين الفتى فلا يستثيره ما يستثير

الشباب ، وأن يكون فى خِدر الفتاة الأديبة فلا يخدش خفرها واستحياءها . بل يكون صاحباً لها أميناً .

وألفيت كثيراً من النصوص الحوشية فى اللغات والأرجاز لا تجدى هؤلاء الشداةَ شيئاً ، فآثرت أن أحتجزها بين طيات كتاب الجاحظ .

كما أنِّى تركت المسائل الكلامية والفلسفية ذات التعقيد فى ثنايا كتاب الجاحظ ، لم أنقلها إلى هذا التهذيب .

وأما غير ذلك من فصول الكتاب فقد انتقيتُ أفضلَه فيما أرى ، وأقربَه إلى أدب الأديب ، وثقافةِ القارئ النابه .

وكان من مقتضى الأمانة العلمية ألا أُغِيرَ على عبارة الجاحظ ، أو أن أتناولها بتبديل أو تغيير ، مهما يكن ذلك التبديل أو التغيير .

فللقارئ أن يقتبس من هذا الكتاب ما يريد أن يقتبس ، منسوباً إلى كتاب الحيوان ، وهو فى أمنٍ وطمأنينة إلى ما يقرأ وما ينقل .

وقد جعلت فى نهاية (الجزء الثانى [1]) من هذا الكتاب دليلاً يصل هذه النصوص بمواضعها من أصل الكتاب فى أجزائه السبعة .

كما عنيت بوضع فهارس فنيّة له لتعين القارئ الباحث فى الانتفاع بهذا التهذيب . وموضعُها كذلك فى نهاية الكتاب .

وأما بعد فهذه هى الحلقة الثانية من سلسلة تهذيب التراث العربى الخالد ، وكانت حلقتها الأولى هى (تهذيب سيرة ابن هشام) ، التى لقيت من تقدير الأدباء والعلماء ترحيباً كريماً حملنى على أن أوالى هذا الجهد لأقرب

---

(١) كان هذا الكتاب فى طبعته الأولى فى جزأين .

هذه الآثار إلى من يحاول المضلون أن يصدوهم عن ماضيهم الثقافى إلى أعاجيبَ من هذا الخَلْق المشيّأ ، لينتزعوهم من عروبتهم إلى أعجمية خالصة ، ليس بها ظل من هذه الثقافة الإسلامية التى لم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن الثقافات المعاصرة ؛ فإنَّ ديننا أن نتناول العلم والثقافة من جميع الاتجاهات لا أن نقصرها على الثقافات الغربية فحسب ، بل نَنْهل من هذا وذاك ، ولا ننسى هذا المنهل الأصيل القديم ، لأنّ فيه الخير كل الخير .

وإليك ما اخترتُ لك من فصول (كتاب الحيوان) ، وما ارتضيت أن أجلوَه على من يتصدّى لدراسة هذا الأدب الخالد ، من جاحِديه ومن المؤمنين به .

أمّا الجاحدون به فليدخُلَ الإيمانُ فى قلوبهم . وأمّا المؤمنون فليزدادُوا إيماناً مع إيمانهم .

وبالله التوفيق ،،

مصر الجديدة فى ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٧٦
١٠ من يونية سنة ١٩٥٧

عبد السلام محمد هارون

هذه الطبعة الثانية

كان هذا منذُ أكثرَ من رُبع قرنٍ من الزمان ، حين ظهرت الطبعة الأولى من تهذيب الحيوان ، ونَفِدت أعدادها ، وأضحت عزيزة المنال .

ولم يتسع الوقت لإعادة الطبع إلا بمشيئة الله الذى قَدّر لكل شئ سببه ، ووقته وزمانَه ، لا يستأخر عنه ساعةً ولا يتقدّم . فكان مِن فضْله أن استنجزَنى الإخوان أن تظهر هذه الطبعةُ فى هذا الثوب الجديد ، فأجبتُ معتمداً على عون الله .

وكان كتابنا هذا فى جزأين صغيرين ، فجعلة جزءاً واحداً مجتمعَ الشَّمل ، وأضَفْت إلى فهارسه فهرساً جديدا هو فهرس اللُّغة التى فسَّرها الجاحظ أو قمتُ أنا بتفسيرها ، وميّزت بين هذه وتلك .

وأرجوا أن يحقِّق هذا العملُ ما رجوته منه من تأنيس شُداة الأدب العربى الأصيل ، وتقريبهم إلى المنابع الثريّة من منابع العروبة الصادقة ، وتقريب هذه الأصول الفارعة من أصول التراث العربى إلى المثقفين المعاصرين فى أقطار الدنيا ، ملتزماً فى هذا التهذيب كما التزمت من قبل فى تهذيب سيرة ابن هشام ، وتهذيب إحياء علوم الدين للغزالى ، أن يكون كل كتاب منها « طوع يمين الفتى ، فلا يستثيره ما يستثير الشباب ، وأن يكون فى خِدْر الفتاة الأدبية فلا يخدش خفرها واستحياءها ، بل يكون صاحباً لها أمينا [١] » .

والله المسئول أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ومنه التوفيق ،،

مصر الجديدة فى ٢٥ من شوال سنة ١٤٠٣ هـ
٤ من أغسطس سنة ١٩٨٣ م

عبد السلام محمد هارون

---

(١) انظر هذه المقدمة ص ١٣ - ١٤ . وقد التزمتُ فى جميع نصوص التهذيب هنا وهناك أن تكون مطابقة لأصلها حفاظا على الأمانة العلمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

١

تصدير

قال أبو عثمان عمرو بن بحرٍ الجاحظ :

جنّبك اللهُ الشُّبهَةَ ، وعَصَمَك من الحَيرة ، وجَعَل بينك وبين المعرفة نَسَباً ، وبين الصِّدق سبباً ، وحبَّبَ إليك التثبُّتَ ، وزيَّنَ فى عينيك الإنصافَ ، وأذاقكَ حلاوةَ التَّقوى ، وأشعر قلبَك عِزَّ الحق ، وأودعَ صدرَك برَد اليقين ، وطرد عنك ذلَّ اليأس ، وعرَّفك ما فى الباطل من الذِّلة ، وما فى الجهل من قِلَّة .

٢

هذا الكتاب

وهذا كتابُ عظةٍ وتفقُّه وتنبيه . وأراك قد عِبتَه قبل أن تَقِفَ على حدوده ، وتتفكَّرَ فى أصوله ، وتعتبرَ آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بمواردِه . وقد غلَّطَك فيه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزْحٍ لم تعرِف معناه ، ومن بَطالةٍ لم تَطَّلِعْ على غورها ، ولم تدْرِ لم اجتُلِبت ، ولا لأىّ علّةٍ تُكلِّفت ، وأىَّ شىءٍ أُريغَ بها (١) ، ولأىِّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل ، ولأىِّ رياضةٍ تُجُشِّمت تلك البَطَالة . ولم تدرِ أنَّ المزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلبَ ليكون عِلّةً للجِدّ ، وأنَّ البَطالة وقارٌ ورزانةٌ إذا تُكلِّفت تلك العاقبة .

ولمّا قال الخليل بن أحمد : « لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتّى يتعلّم ما لا يحتاج إليه » قال أبو شَمِر : « إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يُحتاج إليه إلاّ بما لا يُحتاج إليه ، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه » .

وذلك مثلُ كتابنا هذا ؛ لأنه إنْ حَمَلْنا جميعَ من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحقّ ، وصُعوبة الجِدّ ، وثِقَلِ المئونة ، وحلية الوقار ، لم يصبر عليه مع طوله إلاّ مَن تجرَّد وفهم معناه ، وذاق من ثمرتَه ، واستشعر قلبُه من

---

(١) أراغ الشئ : طلبه وأراده .

عزِّه ، ونال سرورَه على حسب ما يورث الطُّول من الكدّ ، والكثرة من السَّآمة .

وما أكثر من يُقادُ إلى حظِّه بالسواجير (١) ، وبالسَّوق الشديد ، وبالإخافة الشديدة .

---

(١) الساجور : خشبة تعلق فى عنق الكلب . وسجره : شده به ، كسوجره .

٣

نعت الكتاب

ولم أركَ رضيتَ بالطَّعن على كتابٍ لى بعينه ، حتّى تجاوزتَ ذلك إلى أن عبتَ وضعَ الكُتب كيف دارت بها الحال ، وكيف تصرَّفت بها الوجوه . وقد كنتُ أعجَبُ من عيبك البعضَ بلا علمٍ حتّى عبتَ الكلَّ بلا علم ، ثم تجاوزتَ ذلك إلى التشنيع ، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نَصْب الحرب . فعِبتَ الكتاب ونعم الذُّخْرُ والعُقدة [(١)] هو ، ونعم الجليسُ والعُدَّة ، ونعم النُّشْرَةُ [(٢)] والنُّزهة ، ونعم المستغَلُّ والحِرفة ، ونِعْمَ الأنيسُ ساعةَ الوُحدة ، ونعم المعرفةُ ببلاد الغُربة ، ونعم القرينُ والدخِيل ، ونعم الوزير والنَّزيل .

والكتاب وعاءٌ مليء علماً ، وظَرفٌ حُشِى ظَرفاً ، وإناءٌ شحِنَ مزحاً وجدًّا . إن شئت كان أبْيَنَ من سحبانِ وائل ، وإن شئتَ كان أعيا من باقل [(٣)] ، وإن شئتَ ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبتَ من غرائب فرائده ، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه ، وإن شئت أشجَتْكَ مواعظه ، ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ ، وبزاجرٍ مُغْرٍ ، وبناسك فاتك [(٤)] ، وبناطقٍ أخرسَ ، وببارِدٍ حارّ .

---

(١) العقدة : ما يكتفى به المرء من ملك خاص .

(٢) النشرة : الرقية يعالج بها المريض .

(٣) سحبان وائل : خطيب يضرب به المثل فى الفصاحة . وباقل : رجل يضرب به المثل فى العجز عن البيان .

(٤) الفاتك ، من الفتك ، وهو المجون .

ومَن لك بطبيبٍ أعرابىّ ، ومَنْ لك برومىٍّ هندىّ ، وبفارسىٍّ يونانىّ ، وبقديم مولَّد ، وبميِّت ممتع . ومَنْ لك بشىءٍ يجمع لك الأوَّل والآخر ، والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثَّ والسمين ، والشكلَ وخلافه ، والجنس وضدَّه .

وبعد فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل فى رُدن (١) ، وروضةً تُقَلُّ (٢) فى حِجْر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، ويترجِم عن الأحيا . ومن لك بمؤنسٍ لا ينام إلاّ بنومك ، ولا يَنطِق إلاّ بما تهوى . آمَنُ مِن الأرض ، وأكتم للسِّرّ من صاحب السرِّ ، وأحفظُ للوديعة من أرباب الوديعة .

وعبتَ الكتاب ولا أعلم جاراً أبرَّ ، ولا خليطاً أنصَفَ ، ولا رفيقاً أطوعَ ، ولا معلِّما أخضع ، ولا صاحباً أظهرَ كِفايةً ، ولا أقل إملالاً وإبراماً (٣) ، ولا أحفلَ أخلاقاً ، ولا أقلَّ خلافاً وإجراماً ، ولا أقل غِيبةً ، ولا أبعدَ من عَضِيهةٍ (٤) ، ولا أكثر أعجوبةً وتصرّفاً ، ولا أقلَّ تصلُّفاً (٥) وتكلُّفاً ، ولا أبعدَ من مِراءٍ (٦) ، ولا أتركَ لشغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ ، ولا أكفَّ عن قتالٍ ، من كتاب .

---

(١) الردن : أصل الكم .

(٢) تقل : تحمل .

(٣) أبرمه : أضجره وأمله .

(٤) العضيهة : الكذب والبهتان .

(٥) التصلف : التملق والتكلف .

(٦) المراء : الجدال . ماراه يماريه مماراة ومراء .

٤

ضرورة الاجتماع

ثم اعلم – رحمك الله – أنّ حاجةَ الناسِ إلى بعضٍ صفةٌ لازمةٌ فى طبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتةٌ لا تزايلهم ، ومحيطة بجماعاتهم ، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم . وحاجتُهم إلى ما غابَ عنهم – مما يُعِيشهم ويُحييهم ، ويُمسك بأرماقهم [١] ، ويصلح بالهَم ويجمع شملهم ، وإلى التعاون فى دَرْك ذلك والتوازُرِ عليه [٢] – كحاجتهم إلى التعاونِ على معرفة ما يضرُّهم ، والتوازر على ما يحتاجون إليه من الارتفاق [٣] بأمورهم التى لم تَغِبْ عنهم . فحاجة الغائب موصولةٌ بحاجة الشاهد ؛ لاحتياج الأدنَى إلى معرفة الأقصى ، واحتياجِ الأقصى إلى معرفة الأدنى . معانٍ متضمنَّة ، وأسبابٌ متَّصلة ، وحبال مُنْعقدة .

وجَعل الله حاجتنا إلى معرفة أخبارِ مَن كان قبلنا ، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا .

ولذلك تقدَّمَتْ فى كتب الله البِشاراتُ بالرسل .

ولم يسخِّر لهم جميعَ خَلْقِهِ إلاّ وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلْقه [٣] ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قِوام وقُوت ، والأخرى لذّة

---

(١) الرمق : بقية الحياة .

(٢) التوازر : التعاون .

(٣) الارتفاق : الانتفاع .

وإمتاع ، وازديادٌ فى الآلة ، وفى كل ما أجذلَ النفوس وجَمَع لهم العَتَاد [(١)] . وذلك المقدار من جميع الصِّنفين وَفْقٌ لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتِّساع معرفتهم وبُعد غَورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفطرة الإنسانية .

ولم يَخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه ، دونَ الاستعانة ببعض من سخَّر له ، فأدناهم مسخَّر لأقصاهم ، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة فى باب . وكذلك الغنىُّ والفقير ، والعبد وسيِّده .

---

(١) العتاد : ما تعده لأمر ما وتهيئه له .

٥

فضل الكتاب

والكتاب هو الذى يؤدّى إلى الناس كتبَ الدين ، وحسابَ الدواوين ، مع خفة ثِقْله ، وصغر حجمه . صامتٌ ما أسكتَّه ، وبليغٌ ما استنطقتَه . ومَن لك بمسامرٍ لا يبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجُك إلى التجمُّل له ، والتذمُّم منه (١) . ومن لك بزائر إن شئتَ جعل زيارتَه غبًّا ، ووِرْدَه خِمْسا (٢) ، وإن شئت لزِمَك لزومَ ظلِّك . وكان منك مكانَ بعضك .

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْرِيك ، والصديق الذى لا يغُرْيك ، والرفيق الذى لا يَمَلُّك ، والمستميح الذى لا يستَريثُك (٣) والجار الذى لا يستبْطيك ، والصاحب الذى لا يريد استخراجَ ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعُك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرتَ فيه أطالَ إمتاعَك ، وشحذَ طباعَك ، وبسطَ لسانك ، وجوّدَ بنانَك ، وفخّم ألفاظَك ، وبَجَّح نفسك (٤) ، وعمرَّ صدرك ، ومَنَحك تعظيم العوامّ وصداقة الملوك ، وعَرفتَ به فى شهرٍ ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دَهر ، مع السلامة من الغُرْم ، ومن كدِّ

---

(١) تذمم منه : حفظ ذمامه ، أى حقه . وتذمم أيضا : استنكف .

(٢) الخمس أصله أن ترد الإبل يوما ثم تترك الماء ثلاثة أيام ثم ترد الماء فى الخامس .

(٣) المستميح : طالب العرف . استراثه : استبطأه .

(٤) يقال بجحه فتبجح ، أى عظمه فعظمت نفسه عنده .

الطلب ، ومن الوقوفِ بباب المكتسِب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يَدىْ من أنت أفضل منه خلقاً ، وأكرم منه عِرقاً (١) ؛ ومع السلامة من مُجالسة البُغَضاء ، ومقارنة الأغبياء .

والكتاب هو الذى يُطيعك باللَّيل كطاعتهِ بالنَّهار ، ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضَر ، ولا يعتلُّ بنوم ، ولا يعتريه كلالُ السَّهَر . وهو المعلم الذى إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك (٢) ، وإن قطعتَ عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عُزِلَت لم يدَعْ طاعتك ، وإن هبّت ريح أعاديكَ لم ينقلبْ عليك .

ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك ، إلاّ منعهُ لك من الجلوس ببابك ، والنظر إلى المارِّ بك ، مع ما فى ذلك من التعرُّض للحقوق التى تلزم ، ومن فُضول النظر ، ومن عادة الخوض فيما لا يَعنيك ، ومن مُلابسة صِغار الناس ، وحضور ألفاظهم السَّاقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديّة ، وجَهالاتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامةُ ثم الغنيمة ، وإحرازُ الأصلِ مع استفادة الفرع .

ولو لم يكنْ فى ذلك إلاَّ أنه يَشغَلك عن سُخف المُنَى وعن اعتياد الراحة ، وعن اللَّعب وكلِّ ما أشبهَ اللعب ، لقد كان صاحبه أسبغَ النعمة ، وأعظمَ المِنّةَ .

---

(١) العرق : الأصل .
(٢) أخفره : نقض عهده وغدر به .

٦

جَمْع الكتب

وحدّثنى موسى بن يحيى قال : ما كان فى خزانة كتب يحيى وفى بيت مَدارسه [١] كتابٌ إلاّ وله ثلاث نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العلاء : ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررت ببابه ، فرأيتهُ ينظر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد ، إلاّ اعتقدتُ أنه أفضلُ منه وأعقَل .

وأنشد رجلٌ يونسَ النَّحوىّ :

استودَعَ العلمَ قِرطاساً فضيّعه   فبئس مُستَودَعُ العلم القراطيسُ

فقال يونس : قاتله الله ، ما أشدَّ ضَنانتَه بالعلم ، وأحسنَ صيانتَه له ! إنَّ عِلمَك من روحك ، ومالَكَ من بدنك ، فضعْه منك بمكان الرُّوح ، وضعْ مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داحَة – وأخرج كتاب أبى الشَّمقمَق ، وإذا هو فى جلودٍ كوفيّة ، ودَفَّتين طائفيّتين [٢] بخطٍّ عجيب ، فقيل له : لقد أُضيعَ من تَجوَّدَ بشعر أبى الشمقمق ! فقال : لا جرَم والله ! إنَّ العلم ليعطيكم على حساب ما تُعطونه ، ولو استطعتُ أن أُودِعَه سويداءَ قلبى ، أو أجعلَه محفوظاً على ناظرىَّ لفَعَلْت .

---

(١) المدارس : جمع مدرس ، كمنبر ، وهو الكتاب .

(٢) دفتا الكتاب : ضِمامتاه : وأصل الدفة الجنب . طائفية : منسوبه إلى الطائف .

ولقد دخلت على إسحاقَ بنِ سليمان فى إمْرَتِه (١) ، فرأيت السِّماطين (٢) والرجالَ مُثُولاً (٣) كأنَّ على رءوسهم الطير ، ورأيت فِرشتَه وبِزَّتَه (٤) ، ثمَّ دخلت عليه وهو معزولٌ ، وإذا هو فى بيت كتُبه ، وحوله الأسفاط والرُّقوق (٥) ، والقَماطِر والدَّفاتر ، والمساطر والمحابر ، فما رأيته قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ ، ولأ أهيبَ ولا أجزلَ منه فى ذلك اليوم ؛ لأنّه جَمَع مع المهابة المحبَّةَ ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السُّودد الحكمةَ .

---

(١) الإمرة : الإمارة والسلطان .

(٢) السماط : الصف .

(٣) مُثولا : وقوفا .

(٤) البزة ، بالكسر : متاع البيت من الثياب ونحوها .

(٥) جمع رق . والرق بالفتح : الصحيفة البيضاء ، أو ما يكتب فيه .

٧

شرائط الترجُمان

ولابدَّ للترجُمان من أن يكون بيانُه فى نفس الترجمة ، فى وزْن علمه فى نفس المعرِفة .

وينبغى أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواءً وغاية .

ومتى وجدناه أيضاً قد تكلَّم بلسانين ، علمنا أنّه قد أدخل الضيمَ عليهما ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ من اللغتين تجذِب الأخرى وتأخذ منها ، وتعترض عليها .

وكيف يكون تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعتين فيه كتمكُّنه إذا انفردَ بالواحدة ، وإنَّما له قوّةٌ واحدة استُفرِغت تلك القُوَّةُ عليهما . وكذلك إن تكلَّم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات .

وكلَّما كان البابُ من العلم أعسرَ وأضيق ، والعلماءُ به أقلَّ ، كان أشدَّ على المترجِم ، وأجدرَ أن يخطىء فيه . ولن تجد البتّة مترجِماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء .

٨

مشقة تصحيح الكتب

ولربّما أراد مؤلّف الكتاب أن يُصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة ، فيكونُ إنشاءُ عشرِ ورقاتٍ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعانى ، أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النَّقص حتّى يردَّه إلى موضعه من اتصال الكلام . فكيف يطيق ذلك المعارِض المستأجَر ، والحكيم نفسُه قد أعجزَه هذا الباب !

وأعجبَ من ذلك أنّه يأخذ بأمرين : قد أصلح الفاسدَ وزاد الصالح صلاحا . ثم يصير هذا الكتاب بعدَ ذلك نسخةً لإنسانٍ آخر ، فيسير فيه الورّاق الثانى سيرةَ الورّاق الأوّل ، ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدى الجانيةُ ، والأعراض المفْسِدة ، حتّى يصيرَ غلطاً صرفا ، وكَذِباً مُصْمَتاً [١] . فما ظنُّكم بكتابٍ يتعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتتعاوره الخُطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله ، كتابٍ متقادم الميلاد ، دُهريّ الصنعة [٢] .

---

(١) المصمت : الخالص .

(٢) أى قديم . ودهرى بضم الدال : نسبة إلى الدهر بفتحها .

٩

كتب أبي حنيفة

وقد تَجِد الرجلَ يطلب الآثارَ (١) وتأويلَ القرآن ، ويجالس الفقهاءَ خمسين عاماً وهو لا يُعَدُّ فقيها ، ولا يُجَعل قاضيا ، فما هو إلاّ أن ينظُر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنةٍ أو سنتين ، حتّى تمرَّ ببابه فتظنَّ أنه من بعض العُمَّال (٢) ، وبالحَرَا (٣) ألاّ يمرَّ عليه من الأيّام إلاّ اليسير ، حتّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار ، أو بلدٍ من البُلدان .

---

(١) ما أُثر عن رسول الله ﷺ وأصحابه .
(٢) يعنى عمال الولاة والأمراء .
(٣) الحرا : الخليق .

١٠

ضرورة العناية بتنقيح المؤلفات

وينبغى لمن يكتب كتاباً ألاَّ يكتبه إلاّ على أنّ الناسَ كلَّهم له أعداء ، وكلَّهم عالم بالأمور ؛ وكلّهم متفرّغٌ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدعَ كتابه غُفْلاً (١) ، ولا يرضى بالرأى الفَطير (٢) ؛ فإنّ لابتداء الكتاب فتنةً وعُجْبا ، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط (٣) ، وعادت النفسُ وافرة ، أعاد النظرَ فيه ، فيتوقف عند فصوله توقُّفَ من يكون وزنُ طمعه فى السلامة أنقصَ من وزن خوفه من العَيب ، ويتفهَّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تغرُّ القومَ خَلوته حتّى يلِجَّ بهم عيٌّ وإكثارُ

ويقف عند قولهم فى المثل : « كلُّ مُجْرٍ فى الخَلاء يُسَرّ » (٤) ، فيخاف أن يعتريَه ما اعترى من أجرى فرسَه وحدَه ، أو خلا بعلِمِه عند فقد خصومِه ، وأهلِ المنزلة من أهل صناعته .

---

(١) الغُفْل ، أصله ما لا علامة فيه . والمراد به الخالى من التنقيح والتهذيب .

(٢) الفطير : الذى لم ينضج بعد .

(٣) أخلاط البدن : أمزجته الأربعة ، وهى الصفراء ، والسوداء ، والبلغم ، والدم .

(٤) المجرِى : الذى يجرى دابته .

خصاء الإنسان والحيوان

وقالوا : كلُّ ذى ريحٍ منتنةٍ ، وكلُّ ذى دَفر وصُنان كريهِ المشَمَّة كالنَّسر وما أشبهه ، فإنّه متى خُصِىَ نقَص نتْنُه وذهب صُنانه ، غير الإنسان ، فإنَّ الخصىَّ يكون أنتن ، وصُنانه أحدّ ، ويعمُّ أيضاً خُبثُ العرقِ سائر جسدِه ، حتى لَتوجَد لأجسادهم رائحةٌ لا تكون لغيرهم . فهذا هذا .

وكلُّ شىءٍ من الحيوان يُخصَى فإنّ عظمَه يَدِقّ ، فإذا دقّ عظمُه استرخى لحمُه وتبرّأ من عظْمِه ، وعاد رَخصاً رَطباً بعد أن كان عضِلاً [١] صُلباً . والإنسانُ إذا خُصِىَ طالَ وعرُض ، فخالف أيضاً جميع الحيوان من هذا الوجه .

ويَعرِض للخِصيان أيضاً طولُ أقدام ، واعوجاجٌ فى أصابع اليد ، والتواءٌ فى أصابع الرِّجل ، وذلك من أوّل طعنهم فى السنّ . وتَعرِضُ لهم سرعةُ التغيُّر والتبدّل ، وانقلابٌ من حدِّ الرُّطوبة والبضاضة ، ومَلاسة الجلد ، وصفاء اللون ورقَّتِه ، وكثرة الماء وبريقه ، إلى التكرُّش والكمود ، وإلى التقبُّض والتخدُّد [٢] ، وإلى الهُزال وسوء الحال .

فهذا الباب يَعرِض لِلخصيان ، ويعرِض أيضاً لمعالجى النباتِ من الأكَرة [٣] من أهل الزرع والنخل ؛ لأنّك ترى الخصىَّ وكأنَّ السيوف تلمع

---

(١) العَضِل : الغليظ الشديد .

(٢) التخدد : التقبض .

(٣) جمع أكَّار ، وهو الحرَّاث .

فى لونه ، وكأنه مِرآةٌ صينيّة ، وكأنّه وذِيلةٌ (١) مجلوّة ، وكأنّه جُمّارة رَطْبة ، وكأنّه قضيبُ فِضّة قد مَسَّه ذهب ، وكأنّ وجَناتِه الوردُ ، ثم لا يلبث كذلك إلاّ نَسيئاتٍ (٢) يسيرةً حتى يذهب ذلك ذهاباً لا يعود ، وإن كان ذا خِصْب ، وفى عيشٍ رغْد ، وفى فراغِ بالٍ وقلّة نَصَب .

---

(١) الوذيلة : المرآة ، أو القطعة من الفضة المجلّوة .
(٢) جمع نسيئة ، وهى التأخير فى الوقت .

١٢

نَهَم الإناث من الحيوان

ودوام الأكل فى الإناث أعمّ منه فى الذّكور . وكذلك الحِجْر (١) دون الفرس ، وكذلك الرَّمَكَة دون البِرذَون (٢) ، وكذلك النعجة دون الكبش ، وكذلك النساءُ فى البيوت دون الرِّجال . وما أشُكُّ أنّ الرجل يأكل فى المجلس الواحدِ ما لاتأكل المرأة ، ولكنّها تستوفى ذلك المقدارَ وتُرْبِى عليه مقطَّعا غير منظوم . وهى بدوام ذلك منها يكون حاصلُ طعامها أكثر .

وهُنَّ يناسِبْن الصِّبيان فى هذا الوجه ؛ لأن طبع الصبىِّ سريعُ الهضم ، سريعُ الكَلَب ، قصيرُ مدّةِ الأكل ، قليلُ مقدارِ الطُّعم . فللمرأة كثرة معاودتها ، ثم تَبِينُ بكثرة مقدار المأكول .

ولشدَّة نَهَم الإناث صارت اللبؤة أشدَّ عُراماً وأنْزَق (٣) ، إذا طَلَبت الإنسانَ لتأكلَه ، وكذلك صارت إناث الأجناس الصائدة أصيَدَ ، كالإناث من الكلاب والبُزاة وما أشبه ذلك ، وأحرصَ ما تكون عند ارتضاع جرائها ، حتّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهَم فى ذلك .

---

(١) الحجر : الأنثى من الخيل .

(٢) الرمكة : الفرس . والبرذون : ذكر البراذين ، وهو من الخيل ما كان من غير نتاج العراب .

(٣) العُرام : الشدة . والنَّزَق : الطيش والخِفّة عند الغضب .

١٣

أخلاق الخصىّ

ويَعرِضُ للخصىّ العبثُ واللعبُ بالطير وما أشبه ذلك من أخلاق النساء ، وهو من أخلاق الصبيانِ أيضا .

ويعرض له الشَّرَه عند الطعام والبُخْل عليه ، والشحُّ العامُّ فى كل شيء . وذلك من أخلاق الصبيان .

ويعرض للخصىّ سرعةُ الغضب والرضا . وذلك من أخلاق الصبيان والنساء .

ويَعرِض له دون أخيه لأمّه وأبيه ، ودون ابن عمّه وجميع رهطه ، البصرُ بالرفع والوضع ، والكَنْسِ والرشّ ، والطَّرح والبَسْط ، والصَّبر على الخدمة . وذلك يَعرِض للنساء .

ويَعِرض له الصبرُ على الركوب ، والقوّة على كثرة الركض ، حتَّى يجاوز فى ذلك رجال الأتراك ، وفُرسانَ الخوارج . ومتى دفَع إليه مولاه دابّته ودخل إلى الصلاة ، أو ليغتسِل فى الحمام ، أو ليعودَ مريضاً ، لم يترك أن يُجرىَ تلك الدابّة ذاهباً وجائيا ، إلى رجوع مولاه إليه .

ومن العجَب أنهم مع خروجهم من شَطر طبائع الرّجال إلى طبائع النساء لا يعرِض لهم التخنيث . وقد رأيتُ غير واحدٍ من الأعراب متفكّكا ، ومؤنَّثاً يسيل سيلاً ، ورأيت عدّة مجانينَ مخنَّثين ، ورأيت ذلك فى الزِّنج الأقحاح .

وقد خبرّنى من رأى كرديًّا مخنّثاً . ولم أر خصيًّا قطُّ مخنَّثا ولا سمعتُ به ، ولا أدرى كيف ذلك ، ولا أعرفُ المانع منه . ولو كان الأمر فى ذلك إلى ظاهرِ الرأى لقد كان ينبغى لهم أن يكون ذلك فيهم عامًّا .

١٤

الحكمة فى تخالف النزعات والميول

ولولا أنَّ أُناساً من كل جيل ، وخصائصَ من كل أمّة ، يَلْهَجون ويَكْلَفون بتعرُّف معانى آخرينَ لدرسَتْ ، ولعلّ كثيراً من هؤلاء يُزْرى على أولئك ، ويعجِّب الناسَ من تفرُّغهم لما لا يُجدى ، وتركهم التشاغلَ بما يُجدى .

فالذى حَبّبَ لهذا أن يرصُد عُمر حمارٍ أو وَرَشان ، أو حيّةٍ أو ضبّ ، هو الذى حبّب إلى الآخَر أن يكون صيّاداً للأفاعى والحيّات ، يَتَّبِعُها ويطلبها فى كلّ وادٍ وموضعٍ وجبلٍ ، للتِّرياقات [1] . وسخّر هذا ليكون سائسَ الأُسْدِ والفهود ، والنُّمور والبُبور [2] ، وتَركَ من تلقاء نفسه أن يكون راعىَ غنم .

والذى فرَّق هذه الأقسامَ ، وسخَّر هذه النفوسَ ، وصرَّف هذه العقولَ لاستخراج هذه العلوم من مدافنها ، وهذه المعانى من مخابئها ، هو الذى سخّر بَطليموسَ مع مُلكه ، وفلاناً وفلاناً ، للتفرغ للأمور السَّماوية ، ولرعاية النجوم واختلاف مسير الكواكب .

وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له ، لتتمَّ النعمةُ ، ولتكمل المعرفة .

---

(١) جمع ترياق ، وهو دواء السم .

(٢) جمع بَبْر ، وهو ضرب من السباع .

١٥

أكل الهرة أولادها

وكرُم عند العرب حظُّ الهرّة ؛ لقولهم : « أبرُّ من هرّة ، وأعقُّ من ضبّ ». فوجَّهوا أكلَ الهرّة أولادها على شدَّة الحبِّ لها ، ووجَّهوا أكلَ الضب لها على شدَّة البغض لها .

وليس ينجو شيءٌ منها إلاَّ بشغله بأكْلِ إخوته عنه ، وليس يحرسها ممّا يأكلُها إلا ليأكلَها . ولذلك قال العملَّس بن عَقيل لأبيه عقيل بن عُلَّفة :

أكلتَ بنيكَ أكْلَ الضبِّ حتّى وجدتَ مرارة الكلأ الوبيلِ
فلو أنَّ الأُولَى كانوا شهوداً مَنَعْتَ فِناءَ بيتِك من بجَيلِ

وقال أيضا :

أكلتَ بنيكَ أكلَ الضبِّ حتّى تركتَ بنيكَ ليس لهم عديدُ

وشبَّه السيّد بن محمد الحِمْيرىّ عائشة رضى الله عنها فى نَصْبها الحربَ يومَ الجمل لقتال بنيها ، بالهرّة حين تأكل أولادَها ، فقال :

جاءت مع الأشقَيْنَ فى هودجٍ تُزْجى إلى البصرة أجنادَها (١)
كأنَّها فى فعلها هرّةٌ تريد أن تأكلَ أولادها

---

(١) تزجى : تسوق .

١٦

مصلحة الكون فى امتزاج الخير بالشر

اعلَمْ أنّ المصلحة فى ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدّتها ، امتزاجُ الخير بالشرّ ، والضارّ بالنافع ، والمكروه بالسارّ ، والضَّعة بالرفعة ، والكثرة بالقلّة .

ولو كان الشرُّ صِرفاً هلك الخَلْق ، أو كان الخير محضاً [١] سقطت المحنة [٢] ، وتقطّعت أسبابُ الفكرة . ومع عدم الفكرة يكون عدمُ الحكمة .

---

(١) المحض : الصرف الخالص .

(٢) المحنة : البلاء والاختبار .

١٧

حوار بين صاحب الديك وصاحب الكلب

قال صاحب الديك – وذَكَر الكلبَ – فقال : مِن لؤمه أنه إذا أسمنتَه أكلَك ، وإنْ أجَعْتَه أنكرك . ومن لؤمه اتّباعُه لمَنْ أهانه ، وإلفُه لمن أجاعَه ؛ لأنّه أجهل من أن يأنس بما يُؤنَس به ، وأشرَهُ وأنْهَمُ وأحرصُ من أن يذهب بمطْمَعته (١) ما يذهب بمطامع السباع .

ومن جَهله أيضاً:أنّا لم نجده يحرس المحسِنين إليه بنُباحه ، وأربابَه الذين ربَّوه وتبنَّوه ، إلاّ كحراسته لمَنْ عرفه ساعةً واحدة ، بل لمن أذلَّه وأجاعَه وأعطشَه ، بل ليس ذلك منه حراسةً ، وإنَّما هو من فضل البَذَاء (٢) أو الفُحش ، وشدَّةِ التحرش والتسرُّع . وإنما ذلك شكلٌ من الجبن ، وكالذى يعترى نساءَ السِّفلة من الصَّخَب .

والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم ، ولو كان شجاعاً وفيه بعضُ التهيّب كان أمثَلَ (٣) . ومن فَرط الجبن أنّه يفزعُ من كلِّ شىءٍ ويَنبَحه .

والبِرذون (٤)ربَّما رمحَ البرذونَ مبتدئاً ، وقَلِقَ وصَهَل صهيلاً فى اختلاط ، وليس ذلك من فضلِ قوّةٍ يجدُها فى نفسه على المرموح ، ولكنه يكون جباناً ، فإذا رأى البِرذَون الذى يظن أنه يعجز عنه أراه الجبنُ أنّه

---

(١) المطمعة : الطمع .

(٢) البَذَاء : الفحش . والفضل : الزيادة .

(٣) أمثل ، أى أفضل وأشبه بالحق .

(٤) البرذون : الفرس الذى أبواه أعجميان .

واقعٌ به (١) ، فعندها يقلق ، وإذا قلِق رَمَح . وهذِهِ العلّة تَعرِض للمجنون ، فإنَّ المجنون الذى تستولى عليه السَّوداء ربَّما وثَب على مَن لا يعرفه ، وليس ذلك إلاَّ لأن المِرّةَ أوهمتْه أنه يريده بسوءٍ ، وأنّ الرأىَ أن يبدأه بالضرب . وعلى مثل ذلك يرمى بنفسه فى الماء والنار .

قال أبو إسحاق (٢) :

إن أطعمه اللِّصُّ بالنهار كِسْرَةَ خُبزٍ خلاَّه ودار حولَه ليلاً . فهو فى هذا الوجه مُرتشٍ وآكِلُ سُحت (٣) ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلقِ صوتا ، وأحمقُ الخلق يقظةً ونوماً : ينام النَّهارَ كلَّه على نفس الجادّة (٤) ، وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفى كلِّ سوقٍ ومُلتقَى طريق ، وعلى سَبِيل الحَمولة (٥) ، وقد سهر الليلَ كلَّه بالصِّياح والصَّخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذَّهاب ، فيركبه مِن حبِّ النومِ على حسَب حاجته إليه ، فإن وطئته دابّة فأسوأُ الخلْق جزعاً ، وألأَمُه لؤما ، وأكثرُه نُباحاً وعُواء . فإنْ سَلِم ولم تطأه دابةٌ ولا وطئهُ إنسان ، فليست تتمُّ له السلامةُ ؛ لأنه فى حالٍ متوقِّعٍ للبليّة ، ومتوقعُ البليّة فى بليّة ؛ ولأنه الجانى على نفسه ، وقد كانت الطرقُ الخالية له مُعْرِضة ، وأصول الحِيطان له مباحة .

وبعدُ فإنَّ كلَّ خُلقٍ فارقَ أخلاقَ الناس فإنّه مذموم . والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سكنا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحا .

---

(١) يقال وقع به وأوقع به ، أى بالغ فى قتاله .

(٢) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٣) السحت : الحرام وما خبث من المكسب .

(٤) الجادة : الطريق ، أو وسطه .

(٥) الحمولة : ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه .

قال صاحب الكلب :

لو شئنا أن نقول إنَّ سَهَره بالليل ونومَه بالنهار خَصلةٌ ملوكية لقلنا ، ولو كان خلاف ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى !

وأما الذى أشرتم به من النوم فى الطرق الخالية ، وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق (١) والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة ، فكل امرئ أعلم بشأنه .

ولولا أنّ الكلب يعلم ما يَلْقَى من الأحداث والسفهاء وصبيان المكاتب ، من رضّ عظامه بألواحهم (٢) إذا وجدوه نائما فى طريقٍ خالٍ ليس بحضرته رجال يُهابون ، ومشيخةٌ (٣) يَرحمون ويَزْجرون السُّفهاء ، وأنَّ ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق – لقَلَّ خلافُه عليك ، ولَمَا رقد فى الأسواق .

وعلى أنّ هذا الخُلُقَ إنّما يعترى كلابَ الحُرّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها .

وبَعدُ فَمنْ أخطأُ وأظلمُ ممن يكلِّف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سِبَاعَ الأرض عن آخرها إنَّما تَهِيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلاً ، لأنَّها تُبصر بالليل . وإنّما نام الناسُ بالليل عن حوائجهم ، لأن التمييز والتفصيل والتبيُّن لا يُمكنهم إلاّ نهارا ، وليس للمُتْعَب المتحرِّك بُدٌّ من سكونٍ يكون جَمَاماً له (٤) . فجعلوا النومَ بالليل لضربين :

---

(١) الطرق الشارعة ، هى النافذة .

(٢) الرض : الدق والكسر .

(٣) المشيخة : الشيوخ ، كبار السن .

(٤) الجمام : الراحة .

أحدهما لأنّ الليلَ إذْ كان من طَبْعه البرد والرُّكود والخُثُورة [١] كان ذلك أنزعَ إلى النوم وما دعا إليه ؛ لأنه من شكله .

وأما الوجهُ الآخر فلأنّ الليلَ مُوحِشٌ مَخُوف الجوانبِ من الهوامِّ والسبّاع ، ولأنَّ الأشياءَ المبتاعة والحاجاتِ إلى تمييز الدنانير والدراهم والحبوب والبزور ، والجواهر وأخلاط العِطر ، والبَزِّ ، نَهاراً [٢] . فقادَتْهم طبائعهم ، وساقتهم غرائزُهم إلى وَضْع النَّوم فى موضعه ، والانتشارِ والتصرُّف فى موضعه ، على ما قدَّر الله تعالى من ذلك وأحبَّه . وأما السِّباع فإنها تتصرّف وتُبْصِرُ بالليل ، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذِكرها .

وأما ما ذكرتموه مِن نوم الملوكِ بالنَّهار وسهرِهم بالليل ، فإن الملوك لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنَّهار .

ولكنّ الملوك لكَثْرةِ أشغالها فضَلَتْ حوائجُها عن مقدار النَّهار ، ولم يتَّسع لها ، فلمَّا استعانت بالليل ولم يكنْ لها بُدٌّ من الخَلْوة بالتدبير المكتوم والسِّر المخزون ، وجمعت المقدارَ الفاضل عن اتِّساع النهار إلى المقدار الذى لابدّ للخلوة بالأسرار منه – أُخذَتْ من الليل صَدْرًا صالحاً . فلمَّا طال ذلك عليها أعانَها المِرانُ ، وخفَّ ذلك عليها بالدُّرْبَة .

وقال صاحب الكلب :

أمَّا تَرْكُهُ الاعتراض على اللصِّ الذى أطعَمه أياماً وأحسنَ إليه مِراراً ، فإنما وجَبَ عليه حِفْظُ أهلِه لإحسانهم إليه وتعاهُدِهم له . فإذا كان عهدُه ببرِّ اللصِّ أحدَثَ مِن عهدِه ببرِّ أهلِه لم يُكلَّف الكلبُ النظرَ فى العواقب

---

(١) الخثورة : الغلظ ، والثقل .

(٢) أى تكون نهارا . والبز : الثياب .

ومُوازنةَ الأمور . والذى أضمَرَ اللصُّ من البَيَات (١) غيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى : أجاء ليأخذَ أم جاءَ ليُعطِىَ ، أو هُمْ أمروه ، أو هو المتَكلِّف لذلك . أو لعلَّ أهلَه أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة ، وبالسبِّ والإهانة .

وأمَّا سَماجةُ الصَّوت فالبغلُ أسمجُ صوتاً منه ، وكذلك الطاوس ؛ على أنَّهم يتشاءمون به . وليس الصوتُ الحسَنُ إلاّ لأصناف الحمام من القماريّ والدَّبَاسىّ وأصناف الشَّفانين والوراشين (٢) . فأما الأسدُ والذئبُ وابن آوى والخنزير ، وجميع الطّير والسباع والبهائم ، فكذلك . وإنَّما لك أنْ تَذُمَّ الكلب فى الشىء الذى لا يعُمّ .

والناس يقولون : ليس فى الناس شىءٌ أقلَّ من ثلاثة أصناف : البيان الحسَن ، والصوت الحسَن ، والصورة الحسَنة ، ثم الناس بعدُ مختلطون ممتزجون .

وربَّما كان من النَّاس ، بل كثيراً ما تجده وصوتُه أقبحُ من صوتِ الكلب ، فلِمَ تخصُّون الكلبَ بشىء عامَّةُ الخلقِ فيه أسوأُ حالاً من الكلب ؟!

وأما عُواؤه من وَطْءِ الدابّة ، وسوءُ جَزَعِه من ضرب الصِّبيان فجزَعُ الفَرَس من وقع عذَبة السّوط (٣) أسوأُ من جَزَعه من وقْع حافِرِ برذَوْن .

---

(١) البيات : أن يوقع بالعدو ليلا .

(٢) جمع قُمْرِيّة ، ودِبْسية ، وشِفنين ، ووَرَشان ، وكلها ضروب من الحمام .

(٣) عذبة السوط : طرفه .

١٨

من نوادر دِيسيِموس اليونانى

قال صاحب الديك : حدثنى العُتبى قال : كان فى اليونانيين ممرور (١) له نوادرُ عجيبة ، وكان يسمى ديسيموس .

قال : والحكماء يرْوُونَ له أكثر من ثمانين نادرة ، ما منها إلاَّ وهى غُرَّةٌ وعينٌ من عيون النوادر .

فمنها:أنه كان كلَّما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطىء الفرات للطُّهور ألقَى فى أصل باب داره وفى دُوَّارته (٢) حجَراً ، كى لا ينصفقَ (٣) البابُ فيحتاجَ إلى معالجَةِ فَتْحِه ، وإلى دَفْعِه كلَّما رجَع من حاجته ، فكان كلَّما رجعَ لم يجد الحجرَ فى موضعه ، ووجد البابَ منصفقاً . فكَمَن فى بعض الأيام ليرَى هذا الذى يصنع ما يصنع . فبينا هو فى انتظاره إذْ أقبلَ رجلٌ حتَّى تناولَ الحجَر ، فلما نحَّاه عن مكانه انصفق الباب ، فقال له : مالكَ ولهذا الحجر ؟ ومالك تأخذه ؟ فقال : لم أعلم أنه لك . قال : فقد علمتَ أنه ليس لك .

قال : وقال بعضهم : ما بال ديسيموس يعلّم الناسَ الشعرَ ولا يقول الشعر ؟ قال : ديسيموس كالمِسَنّ الذى يَشحَذ ولا يقطع .

---

(١) الممرور : الشاذّ الخُلق الذى غلبت عليه المرة .

(٢) دُوّارة الباب : موضع دورانه .

(٣) انصفق : أُغلِق .

ورآه رجلٌ يأكل فى السوف فقال : أتأكل فى السوق ؟ فقال : إذا جاع ديسيموس فى السوق أكل من السُّوق !

قال : وأسمَعُه رجلٌ كلاماً غليظاً وسَطَا عليه (١) وأفحش فى القول ، وتَحلَّم عنه فلم يُجِبْه . فقيل له : ما منعك مِنْ مكافأته وهو لك مُعْرِض ؟ قال : أرأيت لو رَمَحَك (٢) حِمارٌ أكنت تَرْمَحُه ؟ قال : لا . قال : فإن ينبحْ عليك كلبٌ تنبحْ عليه ؟ قال : لا . قال : فإن السَّفيه إمّا أن يكون حماراً وإمّا أن يكون كلبا ، لأنه لا يخلو من شَرَارَةٍ (٣) تكونُ فيهِ أو جَهْل ، وما أكثر ما يجتمعان فيه !

---

(١) سطا عليه : اشتد عليه .

(٢) رمَحه الحمارُ : ضربه برجله .

(٣) الشرَارة : الشر .

١٩

أعراض الكلب

قال ابن عائشة : عضَّ رجلاً من بَلْعنبرِ (١) كلْبٌ كَلِبٌ فأصابه داءُ الكلَب ، فبال عَلَقاً فى صورة الكلاب ، فقالت بنت المُسْتَنْثِر :

أبـالَكَ أدراصاً وأولادَ زارِعٍ وتلك لعمرى نُهيةُ المتعجِّبِ (٢)

وحدّثنى أبو الصهباء عن رجالٍ من بنى سعد ، منهم عبد الرحمن بنُ شبيبٍ قالوا : عضَّ سِنجيرَ الكلبُ الكلِب ، فكان يعطش ويطلبُ الماءَ أشدَّ الطلب ، فإذا أتوه به هربَ منه أشدَّ الهرب !

وذكر مَسْلمة بن محارب ، وعلىّ بن محمد عن رجاله : أنَّ زياداً كتبَ دواء الكلَب ، وعلَّقه على باب المسجد الأعظم (٣) ، ليعرف جميعُ الناس .

وأنا – حفِظك الله تعالى – رأيت كلباً مرّة فى الحىّ ونحن فى الكُتّاب ، فعرَضَ له صبىٌّ يسمَّى مهديًّا من أولاد القصّابين ، وهو قائمٌ يمحو لوحَه ، فعضَّ وجهه فنَقَع ثَنِيَّتَه (٤) دونَ موضع الجفن من عينه اليُسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم إلى شَطْر خدِّه ، فرمى به ملقيًّا على

---

(١) أى بنى العنبر ، وهم قبيلة من قبائل العرب .

(٢) الدرص : ولد الكلبة . وأولاد زارع : الكلاب . والنهية ، بالضم : غاية الشئ وآخره .

(٣) هو مسجد البصرة .

(٤) أراد : ثبت ثنيته : أى سنه .

وجهه وجانِبِ شِدقه ، وتركَ مُقلتَه صحيحة ، وخرج منه من الدم ما ظَنَنْتُ أنّه لا يعيش معه ، وبقى الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس ، وأسكنه الفزعُ وبقى طائرَ القلب . ثم خِيطَ ذلك الموضع ورأيتُه بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكُتَّاب ، وليس فى وجهه من الشَّتْر (١) إلاَّ موضع الخيط الذى خيط (٢) ، فلم ينبَحْ إلى أن برىء ، ولا هرَّ (٣) ، ولا دعا بماءٍ حتى إذا رآه صاح : ردُّوه ! ولا بال جرواً ولا عَلَقاً (٤) ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير . ولم أجدْ أحداً من تلك المشايخ يشكُّ أنّهم لم يَرَوا كلباً قطُّ أكلَبَ ولا أفسد طبعاً منه .

فهذا الذى عايَنتُ . وأما الذى بلغنى عن هؤلاء الثِّقاتِ فهو الذى كتبتُه لك .

---

(١) الشتر : القطع .

(٢) هذا تسجيل تاريخى لقدم خياطة الجروح .

(٣) الهرير : نباح الكلب .

(٤) العلق ، بالتحريك : الدم الغليظ الجامد .

٢٠

عداوة بعض الحيوان لبعض

وزعم صاحب المنطق أنَّ العُقَاب تأكل الحيَّاتِ وأنَّ بينَهما عداوة ؛ لأنّ الحيةَ أيضاً تطلب بَيْضها وفراخها .

قال : والغُداف [١] يقاتل البومَة ؛ لأنّ الغداف يَخطِف بَيْضَ البومة نهاراً ، وتشُدُّ البومةُ على بيض الغُداف ليلاً فتأكله ؛ لأنَّ البومة ذليلة بالنهار رديَّة النظر ، وإذا كان الليل لم يَقوَ عليها شيء من الطير . والطير كلُّها تعرف البومةَ بذلك وصنيعَها بالليل ، فهي تطيرُ حولَ البومة وتضربها وتَنْتِفُ ريشها . ومن أجل ذلك صار الصيادون يَنْصِبُونها للطَّير .

والغُدَاف يقاتل ابن عِرس ليأكل بيضَه وفراخه .

قال : وبين الحِدأة والغُداف قِتال ؛ لأن الحِدأةَ تخطِف بَيضَ الغُداف ، وهي أشدُّ مخالبَ وأسرعُ طيراناً .

وبين الأُطرغُلَّة والشِّقِرَّاق [٢] قتال ؛ لأنه يقتلُ الأُطرغُلَّة ويطالبها .

وبين العنكبوت والعَظَاية [٣] عداوة ، والعَظَاية تأكل العنكبوت .

وعصفور الشَّوك يَعبَث بالحمار ، وعبثُه ذلك قتَّال له ؛ لأنَّ الحمار

---

(١) الغداف : نوع من الغربان .

(٢) الأطرغلة : القمرية من الحمام . والشقراق : طائر كالحمامة أخضر .

(٣) العظاية : حيوان يشبه سام أبرص .

إذا مرَّ بالشوك وكانت به دَبرَة (١) أو جَرَبٌ تحكَّك به ، ولذلك متى نَهَق الحمار سقط بيضُ عُصفورِ الشَّوك ، وجعَلْت فراخُه تخرج من عُشِّها ، ولهذه العلّة يطير العصفور وراء الحمار ويَنْقُر رأسَه .

والذئبُ مخالفٌ للثور والحمار والثعلب جميعاً ، لأنه يأكل اللحم النِّيءَ ، ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب .

وبين الثعالب والزُّرَّق (٢) خلافٌ لهذه العلّة ، لأنّهما جميعاً يأكلان اللحم .

والغراب يخالف الثَّور ويخالف الحمار جميعاً ، ويطير حولهما ، وربَّما نقر عيونَهما . وقال الشاعر :

عَاديتَنا لا زلتَ فى تَبَابِ عداوةَ الحمارِ للغـــرابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق ؛ لأن الثعلب لا يجوزُ أن يُعادِىَ من بين أحرار الطير وجوارحها الزُّرَّق وحدَه ، وغير الزُّرَّق آكلٌ للَّحم . وإن كان سببُ عداوته له اجتماعَهما على أكْل اللحم فَلْيُبْغِضِ العقابَ من الطير ، والذئبَ من ذوات الأربع ؛ فإنها آكَلُ لِلَّحم . والثعلبُ إلى أن يحسدَ ما هو كذلكَ أقربُ وأولَى فى القياس . فلو زعمَ أنه يعمُّ أكَلَة اللحم بالعداوة حتى يُعطى الزُّرَّق من ذلك نصيبَه كان ذلك أجْوَز .

ولعلَّ المترجم قد أساء فى الإخبار عنه .

قال : والحيَّة تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عِرسٍ ، وإنما تقاتل ابن عِرسٍ إذْ كان مأواهما فى بيتٍ واحد . وتقاتل الخنزير ، لأنَّ الخنزير يأكل الحيَّات . ويزعمون أن الذى يأكل الحيات القنافذُ ، والأوعال ، والخنازير ، والعِقبان .

قال : فالحيَّةُ تعرِفُ هذا من الخنزير، فهى تطالبُه .

---

(١) الدبرة : القرحة .

(٢) الزرّق : نوع من الطيور التى يصاد بها .

٢١

نبح الكلاب السحاب

والكلب إذا ألَّحت عليه السحائبُ بالأمطار فى أيّام الشتاء لقِىَ جِنّةً (١) ، فمتى أبصرَ غيماً نبَحه ؛ لأنّه قد عرف ما يَلْقَى من مثله . وفى المثل : « لا يضرُّ السحابَ نَبْحُ الكلاب (٢) » . فقال الشاعر :

ومالىَ لا أغزو وللدَّهر كَرّةٌ   وقد نبحَتْ نحوَ السماء كلابُها

يقول : قد كنت أدَع الغزوَ مخافةَ العطَش على الخيل والأنفس ، فما عُذرى اليوم والغُدرانُ كثيرة ، ومَناقعُ المياه موفورة .

والكلاب لا تنبَح السَّحابَ إلاّ من إلحاح المطر وترادُفه .

وقال الأفْوَهُ الأودىّ ، فى نبح الكلاب السحابَ ، وذلك من وصف الغيم :

له هَيدبٌ دانٍ ورعدٌ ولَجَّةٌ   وبرْقٌ تراه ساطعاً يتبلَّجُ (٣)
فباتت كلابُ الحىِّ يَنبَحنَ مُزْنَه   وأضحت بنات الماء فيها تَعَمَّجُ (٤)

---

(١) الجنة : الجنون .
(٢) يضرب مثلا لمن ينال من إنسان بما لا يضره .
(٣) الهيدب : السحاب المتدلى . واللجة ، بالفتح : الجلبة .
(٤) بنات الماء : السمك . تتعمج : تسبح ، أو تتثنى .

٢٢

عفّة عمر بن أبى ربيعة

وقال محمد بن إبراهيم : قدِمتِ امرأةٌ إلى مكّة ، وكانت ذاتَ جمالٍ وعفاف ، وبراعة وشَارة ، فأعجبت ابنَ أبى ربيعة ، فأرسلَ إليها فخافت شِعْرَه ، فلمَّا أرادت الطوافَ قالت لأخيها : اخرج معى . فخرج معها وعرضَ لها عُمر ، فلما رأى أخاها أعرضَ عنها ، فأنشدت قولَ جرير :

تعدُو الذئابُ على مَن لا كلابَ له وتتَّقى حَوزةَ المستأسِد الضارِى

هذا حديث أبى الحسن . وأمَّا بنو مخزوم فيزعمون أنَّ ابن أبى ربيعة لم يحُلَّ إزارَه على حرامٍ قطُّ ، وإنّما كان يذهب فى نسيبه إلى أخلاق ابن أبى عتيق ؛ فإنّ ابن أبى عتيق كان من أهل الطَّهارة والعفاف ، وكان مَن سمع كلامَه توهَّم أنّه من أجرأ الناس على فاحشة .

وما يشبه الذى يقول بنو مخزوم ما ذكروا عن قريش والمهاجرين ؛ فإنّهم يقولون : إن عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة إنما سُمِّى بعمر بن الخطاب ، وإنّه ولد ليلَة مات عمر . فلما كان بعد ذلك ذكروا فسادَ هذا وصلاح ذلك فقالوا : أىُّ باطلٍ وُضِع ، وأىُّ حقٍ رُفِع !!

ومثل هذا الكلام لا يقال لمن يُوصَف بالعفّة الثابتة .

٢٣

سياسة الحزم

وبعدُ فأيُّ رئيسٍ كان خيرُه محضاً عدِمَ الهيبة . ومَن لم يعمل بإقامة جزاء السّيئةِ والحسنة ، وقَتَل فى موضع القتل ، وأحيا فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العَفْو ، وعاقبَ فى موضع العُقوبة ، ومَنع فى ساعةَ المنع ، وأعطى ساعةَ الإعطاء ، خالف الربَّ فى تدبيره ، وظنَّ أنّ رحمته فوق رحمةِ ربّه .

وقد قالوا : « بعضُ القتلِ إحياءٌ للجميع » . وبعضُ العفو إغراءٌ كما أنَّ بعضَ المنع إعطاء .

ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌّ منه من كان شرُّه صِرفا . ولكن اخلِطِ الوعدَ بالوعيد ، والبِشرَ بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ؛ فإنَّ الناس لا يهابون ولا يصلُحون إلاّ على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة . ومَن أخاف ولم يُوقِعْ وعُرف بذلك كان كمن أطمَعَ ولم يُنجِز ، وعُرف بذلك . ومَن عُرف بذلك دخلَ عليه بحسب ما عُرف منه . فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشرُّ الشرِّ ما كان صرفا . ولو كان الناس يصلُحون على الخير وحدَه لكان الله عزَّ وجلّ أولَى بذلك الحكم .

٢٤

الطائران العجيبان

وأىّ شىءٍ أعجبُ من طائرين يراهما الناس من أدْنَى جُدود البحر (١) من شق البصرة إلى غاية البحر من شِقِّ السِّند : أحدهما كبير الجثّة يرتفع فى الهواء مُصعِداً ، والآخر صغير الجثة يتقلَّب عليه ويعبث به ، فلا يزال مرّةً يُرفِرفُ حوله ويرتقى على رأسه ، ومرّةً يطير عند ذُنَاباه ويَدخُل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه ، فلا يزال يغمُّه ويكرُبه (٢) حتَّى يتّقيَه بذَرْق (٣) ، فإذا ذرقَ شحا فاه (٤) فلا يخطىء أقصى حَلْقه حتّى كأنّه دحا بِهِ فى بئر ، وحتّى كأنَّ ذَرْقه مِدحاةٌ بيد أُسوار (٥) ، فلا الطائر الصغير يخطىء فى التلقّى ، وفى معرفته أنّه لا رزقَ له إلاّ الذى فى ذلك المكان ؛ ولا الكبيرُ يخطىء التسديدَ (٦) ، ويعلم أنّه لا يُنجيه منه إلاّ أن يتّقيَه بَذْرقه ، فإذا أوعَى ذلك الذَّرْقَ (٧) واستوفَى ذلك الرِّزْق ، رجَع شبعانَ ريَّانَ بِقوتِ يومه ، ومضى الطائر لِطِيَّتِه (٨) .

وأمرهما مشهور ، وشأنهما ظاهر ، لا يمكن دفعه ، ولا تهمَةُ المخبِرين عنه .

---

(١) جمع جد ، بالفتح ، وهو الشاطىء .

(٢) أى يغمه غماً شديداً .

(٣) الذرق : نجو الطائر .

(٤) شحافاه : فتحه .

(٥) المدحاة : آلة الدحو ، أى الرمى . والأسوار : الجيد الرمى بالسهام .

(٦) التسديد : إحكام الإصابة للهدف .

(٧) أوعاه : استوعبه .

(٨) الطية ، بالكسر : النية .

٢٥

قصة فى وفاء كلب

وأنشَدَ أبو الحسن بن خَالَويه عن أبى عُبيدة لبعض الشعراء :

يُعرِّد عنه جارُه وشقيقُه ... وينبِش عنه كلبُه وهو ضاربُه (١)

قال أبو عبيدة : قِيلَ ذلك لأنَّ رجلاً خرج إلى الجبّان (٢) ينتظر رِكابَه (٣) ، فاتَّبَعَه كَلْبٌ كان له ، فضرب الكلبَ وطردَه ، وكرِهَ أن يتْبَعه ، فلمَّا صار إلى الموضع الذى يريد فيه الانتظارَ ربَضَ الكلبُ قريباً منه (٤) ، فبينما هو كذلك إذْ أتاه أعداءٌ له يطلبونه بطائلةٍ لهم عندَه (٥) ، وكان معه جارٌ له وأخوه دِنْيا (٦) ، فأسلماهُ وهَرَبا عنه ، فجُرِحَ جِراحاتٍ ، ورُمِىَ به فى بئرٍ غَيرِ بعيدةِ القَعْر ، ثم حُثِىَ عليه التراب ، ثمَّ غُطِّىَ رأسُهُ ، ثم كُمِّم فوق رأسه منه (٧) . والكلب فى ذلك يَرخُم ويهِرُّ (٨) ، فلمَّا انصرفوا أتى رأسَ البئر ، فما زال يَعوِى وينبِش عنه ويحثو التُّرابَ بيديه ، ويكشِف عن رأسه حتّى أظهرَ

---

(١) التعريد : الإحجام والفرار .

(٢) الجبّان والجَبانة : المقبرة .

(٣) الرِّكاب : الإبل .

(٤) ربض : ثبت فى مكانه كالبارك .

(٥) الطائلة : العداوة والثأر .

(٦) أى الأدنى فى القرابة . ويقال هو ابن عمّه دِنْيَا ودِنْياً ، ينوَّن ولا ينوَّن .

(٧) كُمّم : غُطِّى . منه ، أى من التراب .

(٨) يرخم : يصوت ويعوى . يهر : ينبح .

رأسَه ، فتنفّس وردَّت إليه الرُّوحُ ، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه إلا حُشَاشَة ، فبينما هو كذلك إذ مرّ ناسٌ فأنكروا مَكانَ الكلب ، ورأوه كأنه يَحفِر عن قَبْر ، فنظروا فإذا هم بالرجُلِ على تلك الحال ، فاستشالوه (١) فأخرجوه حياً ، وحَمَلوه حتى أدَّوه إلى أهله .

وهذا العملُ يدلُّ على وفاءٍ طبيعيّ ، وإلِفٍ غريزيّ ، ومحاماةٍ شديدة ، وعلى معرفةٍ وصبر ، وعلى كرم وشُكر ، وعلى غَنَاءٍ عجيبٍ ، ومنفعةٍ تفوق المنافع ؛ لأنَّ ذلك كلَّه من غير تكلّفٍ ولا تصنُّع .

---

(١) أى رفعوه .

٢٦

طلب الأسد للكلب

وذلك لأنّ الأسدَ لا يَحرِص على شيءٍ من اللُّحمان حِرصَه على لحم الكلب . وأمّا العامّة فتزعم أن لحومَ الشاءِ أحبُّ اللحمانِ إليه . قالوا : ولذلك يُطيف الأسدُ بجنَبات القرى طلباً لاغترار الكلب ؛ لأنَّ وثبة الأسد تُعجل الكلبَ عن القيام وهو رابضٌ ، حتَّى ربّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلبِ من قُراهم ، إلاّ أن يكون بقرب ضِياعهم خنازير ، فليس حينئذ شيءٌ أحبَّ إليهم من أن تكثُر الأُسدُ عندهم . وإنما يُخرجون عنهم فى تلك الحالات الكلابَ ، لأنّهم يخافون على ما هو عندهم أنفسُ من الكلب .

وهذه مصلحةٌ فى الكلب ، ولا يكون ذلك إلاّ فى القُرى التى تَقْرُبُ الغَيضةَ أو المأسدة [1] .

وقال بعضُ الدَّهَاقين قولاً لا أدرى كيف هو ، غير أنّهم لا يشكُّون إنَّه إنما يطلب الكلب لحنَقِه عليه ، لا من طريق أنَّ لحمه أحبُّ اللُّحمان إليه . وإنّ الأسد ليأتى مَناقعَ المياه ، وشطوطَ الأنهار ، فيأكل السَّراطين والضفادع ، والرَّقّ [2] والسلاحف ، وإنّه أشرهُ من أن يختار لحماً . قال : وإنّما يكون ذلك منه إذا أرادَ المتطرِّفَ من حمير القرية وشائها ، وسائر

---

(١) المأسدة : الموضع الكثير الأسود .

(٢) الرق : دابة مائية شبيهة بالتمساح .

دوابِّها فإذا لجَّ الكلبُ فى النُّباح انتبهوا ونذِروا بالأسد (١) ، فكانوا بين أن يحصِّنوا أموالَهم وبين أن يُهجهجوا به (٢) ، فيرجع خائبا . فإذا أراد ذلك بَدَأ بالكلب ، لأنه يأمن بذلك الإنذارَ . ثم يستوفى على القرية بما فيها .

فإنما يطالب الأسدُ الكلاب لهذه العلّة .

---

(١) نَذِر بالشئ : علم به فحذره .

(٢) هجهج به : صاح به ليبعد فقال له : هج هج !

٢٧

معرفة الكلب صاحبه

والكلب يعرف وجه صاحبه وأَمَته (١) ، ووجه الزائر . حتّى ربّما غابَ صاحبُ الدار حَولاً مجرَّماً ، فإذا أبصرَه قادماً اعتراه من الفرح والبصبصة (٢) والالتواء الذى يدل على السُّرور ، وعلى شدّة الحنين ، بما لا شَىءَ فوقه .

وحدّثنى صديقٌ لى قال :

كان عندنا جَرو كلب ، وكانِ لى خادمٌ لهِجٌ بتقريبه ، مُولعٌ بالإحسان إليه ، كثير المعاينَة له ، فغاب عنّا إلى البصرة أشهرا ، فقلت لبعض مَن عندى : أتظنون أن فلاناً – يعنى الكلب – يُثْبت اليوم صورةَ فلان – يعنى خادمَهُ الغائب – وقد فارقه وهو جرو ، وقد صار كلباً يَشْغَر ببَوله ؟ قالوا : ما نشكُّ أنّه نسىَ صورتَه وجميع بِرّ كان يَبَرُّه . قال : فبينا أنا جالس فى الدار إذ سمِعتُ مِن قِبل باب الدار نُباحَه ، فلم أر شِكل نُباحه من التأبُّت (٣) والتعثيث (٤) والتوعُّد ، ورأيت فيه بصبصةَ السُّرور ، وحنينَ الإلفِ ، ثمَّ لم ألبثْ أن رأيتُ الخادِمَ طالعاً علينا ، وإنَّ الكلبُ لَيَلتفُّ على

---

(١) الأمَة : الجارية .

(٢) البصبصة : تحريك الذنب .

(٣) من قولهم تأبت الجمرُ ، أى احتدم .

(٤) التعثيث : الترجيع فى الصوت .

ساقيه ، ويرتفع إلى فخذيه وينظرُ فى وجهه ، ويصيح صِياحاً يَستبِين فيه الفرح . ولقد بلغ من إفراط سروره أنّى ظَننتُ أنّه عُرِض [١] . ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة ، ويمضى إلى بغداد ثم يرجع إلى العَسكر [٢] بعد أيام ، فأعرف بذلك الضربِ من البصبصة ، وبذلك النوعِ من النُّباح ، أنَّ الخادم قدم ، وحتّى قلتُ لبعضهم عندى : ينبغى أن يكون فلانٌ قَدِم ، وهو داخلٌ عليكم مع الكلب !

---

(١) عُرِض : أصابه الجنون .

(٢) العسكر : محلة معروفة فى الجانب الشرقى لبغداد .

٢٨

أدب الكلب

وزعَمَ غِلْمَانى وغيرُهم من أهل الدَّرب أنَّه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدربَ إلى عَراقيب برذَونِه (١) ، سائساً كان أو صاحبَ دابّة ، إلا أنَّه كان إذا رأى محمد بنَ عبد الملك داخلاً إلى بابِ الدَّرْب أو خارجاً منه لم ينبح البتَّةَ ، لا عليه ولا على دابّته ، بل كان لا يقفُ له على الباب ولا على الطريق ، ولكنه يدخل الدِّهليزَ سريعاً . فسألت عن ذلك ، فبلغنى أنَّه كان إذا أقبلَ صاح به الخادمُ وهَوَّله (٢) بالضرب ، فَيدخُل الدِّهليز ، وأنَّه ما فعل ذلك به إلاّ ثلاَثَ مرّات ، حتّى صار إذا رأى محمد بنَ عبد الملك دخلَ الدهليزَ مِن تلقاء نفسه ، فإذا جاوَز وثَبَ على عراقيب دوابِّ الشاكرية (٣) .

ورأيتُ هذا الخبر عندهم مشهوراً .

قال : وكنَّا إذا تغدَّينا دَنَا من الخُوان ، فرجمناه مَرَّةً أو مرَّتين (٤) ، فكان لا يقرُبنا لمكان الرَّجْم ، ولا يبعدُ عن الخُوانِ لِعلَّة الطمع ، فإن ألقينا إليه شيئاً أكَلَهُ ثَمَّ (٥) ، ودنا من أجل ذلك بعضَ الدُّنوّ ؛ فكنّا نستظهر عليه

---

(١) البرذون : الفرس من أبوين غير عربيَّين .

(٢) هوَّله : أفزعه ، مثل هاله .

(٣) الشاكرية : الجند المستأجرون .

(٤) الرجم : الرمى .

(٥) أى هناك .

فنرمِي باللُّقمة فوق مَرْبِضه (١) بأذرُع ؛ فإذا أكَلها ازداد فى الطمع ، فقَرَّبه ذلك من الخِوَان ، ثم يجوز موضعَه الذى كان فيه .

ولولا ما كنّا نَقصِد إليه من امتحانِ ما عِندَه ليصِير ما يَظهرُ لنا حديثاً ، لكانَ إطعامُ الكلب والسِّنَّور من الخوان خطأً من وجوه : أوّلُها أن يَكون تَضْرِيةً مضرِّيَةً له ، ودُرْبةً مُدَرِّبة (٢) ، حتّى إنّ منها ما يمدُّ يدَه إلى ما عَلَى الخوان ، وربّما تناوَلَ بفيه ما عليه ، وربّما قاء الذى أكلَه ، وربما لم يرضَ بذلك حتّى يعودَ فى قيئه .

وهذا كلُّه مما لا ينبغى أن يحضُره الرئيس ، ويشهدَه ربُّ الدار . وهو على الحاشية أجوَز .

---

(١) المربض ، موضع الربوض والجثوم .

(٢) مدربة فى معنى مضرية . ضراه : جعله يولع بالشئ ويعتاده حتى لا يصبر عنه .

٢٩

إلهام الحيوان

وليس عند البهائم والسِّباع إلاَّ ما صُنِعت له ، ونُصِبت عليه ، وأُلْهِمَتْ معرفتَه . وكيفِيَّةُ تكلُّف أسبابها والتعلُّمِ لها من تلقاء نفسها .

فإذا أحسَنَ العنكبوتُ نسجَ ثَوِيِّهِ (١) ، وهو من أعجب العجب ، لم يُحسن عَمَل بيتِ الزُّنبور .

وإذا صنع النَّحلُ خلاياه ، مع عَجِيب القسمة التى فيها ، لم يُحسِن أن يعملَ مثل بيت العنكبوت .

والسُّرفة (٢) التى يقال : « أصنَعُ مِن سُرْفة » لا تُحسن أن تبنَى مثلَ بيتِ الأَرَضة ، على جفاء هذا العملِ وغِلَظه ، ودقّة ذلك العملِ ولطافته .

وليس كذلك العاقل وصاحب التمييز ، ومَن ملك التصرُّفَ وخُوِّل الاستطاعة (٣) ؛ لأنه يكون ليس بنجَّار فيتعلَّم النِّجارة ، ثم يبدو له بعد الحذْق الانتقالُ إلى الفلاحة ، ثم ربَّما ملَّها بعد أن حَذَقَها وصار إلى النِّجارة .

---

(١) الثوى : البيت .

(٢) السرفة : دودة القز ، أو دودة أخرى . اللسان (سرف) .

(٣) خوله الشئ : ملكه إياه وأعطاه .

٣٠

أطيب الحيوان أفواهاً

ولا يشكُّ الناسُ أن ليس فى السباع أطيبُ أفواهاً من الكلاب ، وكذلك كلِّ إنسانٍ سائل الريق سائل اللعاب . والخُلُوف (١) لا يَعرِض للمجَانِينِ الذين تسيل أفواهُهم . ومن كان لا يعتريهِ الخُلُوف فهو من البَخَر أبعدَ . وكما أنَّ طول انطباق الفم يورث الخُلوف ، فكثرةُ تحلُّب الأفواه بالريق تنفى الخلوف . وحتّى إنّ مَن سال فوه من اللعاب فإنّما قضَوا له بالسلامة مِن فيه ، وإن استنكَهوه مع أشباهه وجدوه طَيِّبا ، وإن كان لا يَقْرَب سِواكاً على الرِّيق .

وكذلك يقال : إن أطيبَ الناس أفواهاً الزنج ، وإن كانت لا تَعرف سَنُوناً ولا سِواكا (٢) .

على أنَّ الكلب سبعٌ ، وسباعُ الطيرِ وذواتِ الأربع موصوفةٌ بالبَخَر . والذى يُضرَب به فى ذلك المثلُ الأسدُ . وقد ذكره الحكم بن عَبْدَلٍ فى هجائه محمد بنَ حسان فقال :

فنكهتُـه كنكهـةِ أخـــدَرِىّ شَتيمٍ شابِك الأنياب وَرْدِ (٣)

---

(١) الخلوف ، بضم الخاء : تغير الرائحة .

(٢) السَّنون : ما يستاك به من دواء مؤلف لتقوية الأسنان .

(٣) الشتيم : الفظيع المنظر . الورد : الذى لونه بين الكميت والأشقر .

٣١

رضيع مُلهَم

وزعم علماءُ البَصريِّين أن طاعوناً جارفاً جاء على أهلِ دار ، فلم يشُكَّ أهلُ تلك المَحَلَّة أنه لم يَبْقَ فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبىٌّ يَرتَضِعُ ويحبو ، ولا يقومُ على رجليه ، فعَمَد مَنْ بقى من المطعونين من أهل تلك المحلَّة إلى باب تلك الدَّار فسَدَّه ، فلما كان بعد ذلك بأشهرٍ تحوَّل فيها بعضُ ورَثة القوم ففتحَ الباب ، فلما أفضَى إلى عَرْصَة (١) الدار إذا هو بصبيّ يلعب مع أجْراءِ كلبةٍ (٢) وقد كانت لأهل الدار ؛ فراعَه ذلك ، فلم يلبَث أن أقبلت كلبةٌ كانت لأهل الدار ، فلما رآها الصبىُّ حَبَا إليها ، فأمكنتْه من أطْبائها (٣) فمصَّها .

فظنُّوا أن الصبىَّ لمَّا بقى فى الدار وصار منسيًّا واشتدَّ جُوعه ، ورأى أَجْرَاءَها تستقى من أطبائها حَبَا إليها فعطفَتْ عليه ، فلما سقَتْه مرّةً أدامت ذلك له ، وأدام هو الطلب .

والذى ألهَم هذا المولودَ مصَّ إبهامه ساعةَ يُولَد من بطن أمِّه ولم يعرف كيفية الارتضاع ، هو الذى هداه إلى الارتضاع من أطْبَاء الكلبة . ولو لم تكن

---

(١) عرصة الدار : ساحتها .

(٢) أجراء : جمع جرو ، وهو ولد الكلبة .

(٣) الأطباء : جمع طُبى ، وهو الضَّرْع .

الهداية شيئاً مجعولاً فى طبيعته لما مصَّ الإبْهامَ وحَلَمةَ الثَّدْى . فلمَّا أفرطَ عليه الجوعُ واشتدَّت حالهُ وطلَبت نفسُه وتلك الطبيعةُ فيه ، دعَتْه تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنوّ .

فسبحانَ من دبَّر هذا وألهمه ، وسَوَّاه ، ودَلَّ عليه !

٣٢

قصة أبى دُلامة

أبو الحسن قال :

قال أبو العباس (١) أمير المؤمنين لأبى دُلامة : سَلْ ! قال : كلباً . قال : ويلك ! ما تصنع بالكلب ؟! قال : قلت أصيدُ به . قال : فلك كلب . قال : ودابّةً . قال : ودابّةً . قال : وغلاماً يركب الدابّة ويصيد . قال : وغلاماً . قال : وجاريةً . قال : وجارية . قال : يا أمير المؤمنين ، كلبٌ وغلامٌ وجارية ودابّةٌ ، هؤلاء عِيالٌ ، ولابدَّ من دار . قال : ودار . قال : ولابدّ لهؤلاء من غَلَّةِ ضَيعة . قال : أقطَعْناك مائةَ جَريبٍ عامرة (٢) ، ومائة جَريب غامرة . قال : وأىُّ شيءٍ الغامرة ؟ قال : ليس فيها نبات . قال : أنا أُقطِعُك خمسمائة جريب من فيافى بنى أسد غامرة (٣) . قال : قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلَّها . ثم قال : أبَقِىَ لك شيء ؟ قال : نَعم ، أقبِّل يدك . قال : أمّا هذه فدَعْها . قال : ما منعتَ عيالى شيئاً أهونَ عليهم فقداً منه !

---

(١) أبو العباس عبد الله بن محمد ، الملقب بالسفاح ، أول خلفاء العباسيين .

(٢) الجريب : مساحة من الأرض مقدارها عشر قصبات فى عشر ، والقصبة ستة أذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع . الأحكام السلطانية لأبى يعلى ص ١٥٧ .

(٣) الفيافى : جمع فيفاء ، وهى الصحراء الملساء .

٣٣

علّمه حيلةً فوقع فى أسرها

روى أبو الحسن (١) عن أبى مريم قال :

كان عندنا بالمدينة رجلٌ كثُر عليه الدَّيْن حتَّى توارَى عن غُرمائه ، ولزِم مَنزلَه ؛ فأتاه غريمٌ له عليه شيء يسير ، فتلطَّفَ حتى وصلَ إليه ، فقال له : ما تجعل لى إنْ أنا دلَلتُكَ على حيلةٍ تَصِير بها إلى الظُّهور والسلامة من غُرَمائك ؟ قال : أقْضِيكَ حقَّك وأزيدك مما عندى مما تقرُّ به عينُك . فتوثَّق منه بالأيمان ، فقال له : إذا كان غداً قبل الصلاة مُرْ خادمَك يكنُسْ بابَكَ وفِناءك ويرشَّ ، ويبسُطْ على دُكَّانك حُصْراً ، ويضعْ لك متَّكأ ، ثم أمهِلْ حتى تصبحَ ويمرَّ الناس ، ثم تجلس وكلُّ مَن يمرُّ عليك ويسلّم انبحْ له فى وجهه ، ولا تزيدنَّ على النباح أحداً كائناً من كان ، ومَن كلَّمك من أهلك أو خدَمِك أو من غيرهم أو غريمٍ أو غيره ، حتَّى تصيرَ إلى الوالى ، فإذا كلَّمك فانبحْ له ، وإياك أن تزيدَه أو غيرَه على النُّباح ، فإنَّ الوالىَ إذا أيقنَ أن ذلك منك جِدّ لم يشكَّ أنه قد عرضَ لك عارضٌ من مَسٍّ (٢) فيخلِّى عَنْكَ ولا يُغْرِى عليك .

قال : ففعَل ، فمرّ به بعضُ جيرانه فسلَّم عليه فنبحَ فى وجهه ، ثم مرَّ آخر ففعلَ مثلَ ذلك ، حتى تسامَعَ غرماؤه ، فأتاه بعضُهم فسلَّم عليه فلم

---

(١) أبو الحسن على بن محمد المدائنى الأخبارى .

(٢) المس : الجنون .

يزدْه على النُّباح ، ثم آخر ، فتعلَّقوا به فرفَعوه إلى الوالى ، فسأله الوالى فلم يزده على النُّباح ، فرفَعه معهم إلى القاضى ، فلم يزدْه على ذلك ؛ فأمر بحبسه أياماً ، وجَعل عليه العيونَ فى منزله ، وجعل لا ينطق بحَرْفٍ إلا النُّباح . فلما رأى القاضى ذلك أمر غرماءَه بالكفِّ عنه وقال : هذا رجلٌ به لَمم [1] ! فمكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمَه الذى كان علّمه الحيلة أتاه متقاضياً لعِدَته [2] ، فلمَّا كلَّمه جعل لا يَزيدُه على النُّباح ، فقال له : ويلكَ يا فلانُ ! وعليَّ أيضاً ، وأنا علَّمْتُكَ هذه الحيلة ؟! فجعل لا يزيدُه على النُّباح ، فلما يئس منه انصرف يائساً مما يُطالبُه به .

---

(١) لمم : جنون .

(٢) لِعِدَته : لما كان وعده به .

٣٤

اتحاد المتعادين فى وجه عدوِّهما المشترك

قال أبو الحسن ، عن سلمة بن خطَّابٍ الأزدى قال :

لما تشاغَلَ عبد الملك بن مَرْوَان بمحاربة مُصْعَب بن الزُّبير اجتمع وجوهُ الروم إلى مَلِكهم فقالوا له : قد أمكنَتْك الفُرْصةُ من العرب بتشاغلِ بعضهم مع بعض ، لوقوع بَأْسِهم بينهم [١] ، فالرأى لك أن تغزوهَم إلى بلادهم ، فإنك إن فعلتَ ذلك نِلْتَ حاجتكَ ، فلا تدَعْهم حتى تنقضىَ الحرب التى بينهم فيجتمعوا عليك !

فنهاهم عن ذلك وخطَّأَ رأيهم ، فأبَوا عليه إلاَّ أن يَغْزوَ العربَ فى بلادهم . فلما رأى ذلك أمر بكَلْبَيْن فحرَّشَ بينهما [٢] فاقتتلا قتالا شديداً ، ثم دعا بثعلبٍ فخلاَّه ، فلمَّا رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه . وأقبلا عليه حتى قتلاه .

فقال ملك الروم : كيف ترون ؟ هكذا العرب تَقْتَتِلُ بينها ؛ فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا .

فعرفوا صِدقَه ورجعوا عن رأيهم .

---

(١) البأس : العذاب والشدة .

(٢) حَرّش بينهما : أغرى بينهما .

٣٥

الكلب الزينى

والكلب الزِّينىّ (١) الصينى ، يُسرَج على رأسه ساعات كثيرةً من الليل فلا يتحرَّك .

وقد كان فى بنى ضَبَّة كلبٌ زِينىٌّ صِينىّ يُسرَج على رأسه ؛ فلا يَنْبِض فيه نابض ، ويَدْعونه باسمه ، ويُرمَى إليهِ ببَضْعة لحمٍ (٢) ، والمِسرجَةُ على رأسه ، فلا يميلُ ولا يتحرَّكُ حتى يكونَ القومُ هم الذين يأخذون المصباحَ من رأسه ، فإذا زَايَلَ رأسَه وثبَ على اللحم فأكله .

دُرِّب فدَرِب ، وثُقِّفَ فثَقِف ، وأُدِّب فقَبِل .

وتُعلَّق فى رقبته الدَّوخَلَّة (٣) ، وتوضَع فيها رُقْعة ، ثمَّ يَمضى إلى البقَّال (٤) ويجىء بالحوائج .

---

(١) ضرب من الكلاب قصير القوائم ، شديد الذكاء . يقال بالهمز وترك الهمز .

(٢) البضعة : القطعة من اللحم .

(٣) الدَّوخَلة ، بتشديد اللام وتخفيفها ، وعاء من خوص .

(٤) البقال : بائع البقل ، وهو من النبات ما ليس بشجر .

٣٦

واقية الكلاب

ويقال : إنَّ علَى الكلاب واقيةً (١) من عبث السُفهاء والصِّبيان بها . قال دُرَيد بن الصِّمّة حين ضرب امرأته بالسِّيف ولم يقتُلْها (٢) :

أقَرَّ العَينَ أنْ عُصِبَتْ يداها وما إنْ يُعْصَبانِ على خضابِ
فأبقاهـــنّ أنّ لهنّ جَدًّا وواقيـةً كواقيـة الكـلاب (٣)

وقال الآخر :

إنْ يَقِنـا اللهُ من شرِّهـا فإنَّ الكـلابَ لها واقيـه

ويروى : « سينُجيه من شرِّها شَرُّه » .

وقال غيره :

ولقد قتلتُكَ بالهجاء فلم تَمُتْ إنَّ الكلابَ طويلةُ الأعمـارِ

---

(١) أى وقاية .

(٢) كان تَزوَّجها وزعموا أنها بكر ، فوجدها ثيِّباً ، فأخذ سيفَه وأقبل يضربها ، فتلقته أمها لتدفعه عنها ، فوقَفَ يديها – أى حزها ولم يقطعهما – فنظر إليها بعد ذلك وهى معصوبة ، فقال هذا الشعر .

(٣) الجَدّ ، بالفتح : الحظ .

٣٧

قصة أبي الأعَزّ عروةَ بنِ مرثد

كان بالبَصْرَة شيخٌ من بنى نهشل يقال له عروة بن مَرْثد ، نزلَ ببنى أُختٍ له فى سِكّة بنى مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرجَ رجالُهم إلى ضِياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقيت النساءُ يُصَلِّين فى مسجدهم ، فلم يَبقَ فى الدار إلاّ كلبٌ يَعُسُّ (١) ، فرأى بيتاً فدخل وانصفَقَ الباب (٢) ، فسمِع الحركَةَ بعضُ الإماء (٣) ، فظُنّوا أنَّ لِصًّا دَخلَ الدار ، فذهبت إحداهنَّ إلى أبى الأعزّ وليس فى الحىّ رجلٌ غيره ، فأخبرتْه ، فقال أبو الأعزّ : ما يبتغى اللصُّ منّا ؟! ثم أخذ عصاه وجاء حتّى وقفَ على باب البيت فقال : إيهِ يا مَلْأَمَانُ (٤) ! أمَا واللهِ إنّك بِى لعَارفٌ وإنّى بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلاّ من لصوص بنى مازن ، شرِبَت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارَتِ الأقداحُ فى رأسك منَّتكَ نفسك الأمانىَّ ! وقلتَ : دُورَ بنى عَمرٍو والرِّجال خُلُوف (٥) ، والنساء يصلِّين فى مسجدهم فأسرِقهنّ . سوءةً والله ! ما يفعل هذا الأحرارُ ، لبئس والله ما منَّتْك نفسُك ! فاخرجْ وإلاّ دخلتُ عليك فصرَمْتُكَ (٦)

---

(١) عس واعتس : طاف ليلا .

(٢) انصفق : أغلق .

(٣) الإماء : الجوارى ، جمع أمة .

(٤) أى يا لئيم .

(٥) خلوف : أى متخلفون غائبون .

(٦) صرمتك : قطعتك .

منّى العُقُوبة . لاَيْمُ اللهِ [١] لتخرجنّ أو لأهتفنّ هَتْفةً مشئومةً عليك يلتقى فيها الحَيّان : عمرٌو وحنَظْلة ، ويصيرُ أمركَ إلى تَبَاب [٢] ، وتجىء سعدٌ بعدد الحصى ، ويسيلُ عليك الرجالُ من هاهنا وهاهنا !! ولئن فعلتَ لتكوننَّ أُشأَمَ مولودٍ فى بنى تميم !!

فلمَّا رأى أنّه لا يُجيبه أَخَذَهُ باللِّين وقال : اخرجْ يا بُنَىَّ وأنت مستور ! إنِّى والله ما أُراكَ تعرِفُنى ، ولو عرَفْتَنى لقد قنِعتَ بقولى وأطمأَنْنْتَ إلىّ ، أنا عروة بن مَرْثِدٍ أبو الأعزّ المرثدىّ ، وأنا خالُ القومِ وجِلدةُ ما بين أعيُنِهم [٣] لا يَعصُوننى فى أمر ، وأنا لَك بالذمّة كفيلٌ خفير ، أصيِّرك بين شَحْمَةِ أذُنِي وعاتقى لا تُضَارّ ، فاخرجْ فأنت فى ذِمتّى ، وإلاّ فإنّ عندى قوصرَتَّين [٤] إحداهما إلى ابن أختى البارِّ الوصول ، فخذْ إحداهما فانتبذْها حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ .

وكان الكلبُ إذا سمِع الكلام أطرَقَ [٥] ، وإذا سكتَ وثَبَ يُريغُ المُخْرَج [٦] فتهافَت الأعرابىُّ – أى تساقط – ثم قال : يا ألأمَ النّاسِ وأوضَعَهم ، ألاَ يَأْنِى لكَ [٧] ! أنا مُنذُ الليلة فى وادٍ وأنتَ فى آخرَ ، إذا قلتُ لك السوداءَ والبيضاء تسكُت وتُطرِق ، فإذا سكتُّ عنك تُريغُ المخرَج !

---

(١) لايم الله : قسم بالله .
(٢) التباب : الخسران .
(٣) يقال هو جلدة ما بين العين والأنف ، أى هو مثلها فى مكان العزة والقرب .
(٤) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر .
(٥) أطرق : سكت ولم يتكلم .
(٦) يريغ : يريد .
(٧) أنى يأنى : حان .

والله لتخرُجَنَّ بالعفو عنكَ أو لأَلِجَنَّ (١) عليكَ البيتَ بالعقوبة !

فلمَّا طال وقوفُه جاءت جارية من إماءِ الحيِّ فقالت : أعرابيٌّ مجنون ، والله ما أَرى فى البيت شيئا !! ودفعت البابَ فخَرج الكلبُ شَدًّا (٢) ، وحادَ عنه (٣) أبو الأعزِّ مستلقيا ، وقال : الحمدُ لله الذى مسخَكَ كلباً وكفانى منك حَربا !!

ثم قال : تاللهِ ما رأيتُ كالليلة ! ما أُراه إلاَّ كلبا ! أما والله لو علمتُ بحاله لولجتُ عليه !

---

(١) ولج يلج : دخل .

(٢) شدا : وثبا وعدوا .

(٣) حاد عنه : مال وانحرف .

٣٨

بعض مزايا الدِّيك

وللدِّيكِ انتصابهُ إذا قام ، ومباينتُه صورةً فى العين لصورة الدَّجاجة . وليس هذا الفرق الواضح من جميع الإناث والذكور موجوداً إلاّ فيه . وليس ذلك للحمام والحمامة ، ولا للحمار والحمارة ، ولا للبِرذون والرَّمَكة (١) ، ولا للفرس والحِجْر (٢) ، ولا للجملِ والناقة ، وليس ذلك إلاّ لهذه الفحولة ، لأنَّها كالرجلِ والمرأة ، والتَّيْس والظَّبية ، والدِّيك والدَّجاجة ، وكالفُحَّال والنخلة المُطْعِمة (٣) ، ألاَ ترى أنّك لو رأيتَ ناقةً مقبلةً لم تدر أناقةٌ هى أم جمل حتى تَنظُر إلى موضع الثِّيل والضَّرع ، وإلى موضع الحَيَا . وكذلك العَنْز ، وكذلك جميع ما وصفتُ ، إلاَّ أن يدَّعُوا أنَّ للعامَّة أو لِبعض الخاصّة فى ذلك خصُوصيّة . ولذلك ضربوا المثلَ بالتيس والنّخلة والفُحّال ، فاشتقُّوا من هذا الفحل . وهذا أيضا من خصال الديك .

ثُمّ للدِّيك لحيةٌ ظاهرةٍ . وليست تكون اللِّحَى إلاّ للجمل فإنه يوصف بالعُثنون (٤) ، وإلا للتّيس وإلاّ للرجل .

---

(١) الرمكة : البرذونة ، وهى الأنثى من الخيل الأعجمية .

(٢) الحِجر : أنثى الخيل .

(٣) المطعِمة : التى دنا إثمارها .

(٤) البأس : العذاب والشدة .

٣٩

بعض ما قيل فى حسن الدجاجة ونُبْل الديك

قال الشاعر فى حُسن الدجاجة ونُبل الدِّيك

غدوتُ بِشَرْبَةٍ من ذات عِرقٍ أبا الدَّهناء من حَلَب العصيرِ (١)
وأخرى بالعَقَنْقَلِ ثُمّ رُحنا نُرَى العصفورَ أعظَمَ من بعيرِ
كأن الدِّيك ديكَ بنى نُمَيرٍ أميرُ المؤمنين على السَّرير (٢)
كأنَّ دَجاجَهمْ فى الدَّار رُقطاً بناتُ الرُّوم فى قُمُص الحريرِ (٣)
فبتُّ أُرى الكواكبَ دانياتٍ يَنَلْنَ أناملَ الرجُلِ القصير (٤)
أُدافعهنَّ بالكفَّين عَنِّى وأمسَحُ جانبَ القمر المُنِيرِ

---

(١) ذات عرق ، هو الحدُّ بين نجد وتهامة . الحَلَب : الشراب .

(٢) السرير هنا : عَرش الخلافة ، أو هو الملك والإمارة .

(٣) الرُّقط : جمع رقطاء ، وهى ذات اللون الأسود يَشُوبه نقطٌ بيض ، أو عكسه .

(٤) أراد : تنالهن أنامل الرجل القصير .

٤٠

رثاء أعرابىّ شاةً له أكلها ذئب

وقال صاحب الكلب : قال أعرابىٌّ وأكل ذئبٌ شاةً له تسمَّى وردة ، وكنيتُها أمُّ الورد :

أودَى بورْدةَ أمِّ الوَرْد ذو عَسَلٍ ... من الذِّئاب إذا ما راح أو بَكَرا (١)
لولا ابنُها وسَلِيلاتٌ لها غُرَرٌ ... ما انفكّت العين تُذْرِى دمعها دِرَرا (٢)
كأنَّما الذئبُ إذْ يعدو على غنمى ... فى الصُّبح طالبُ وِتْرٍ كان فاتَّأَرا (٣)
اعتامَها اعتامَه شَثْنٌ براثنُهُ ... من الضَّوارى اللواتى تَقصِم القَصَرا (٤)

قال : فى هذا الشعر دليلٌ أنّ الذئب إنما يعدو عليها مع الصُّبح ، عند فُتور الكلب عن النُّباح ؛ لأنه باتَ ليلتَه كلَّها دائباً يقظانَ يَحرُس ، فلما جاء الصُّبحُ جاء وقتُ نوم الكلاب وما يعتريها من النُّعاس . ثم لم يَدْعُ الله على الذئب بأن يأكله الأسد حتى يختارَه ويعتامَه ، إلاَّ والأسدُ يأكل الذِّئاب ويختار ذلك . وإنما استطاب لحم الذئب بفضل شهوته للحْمِ الكلب .

---

(١) العسل : أن يمضى مسرعاً ويضطرب فى عدوه هازًّا لرأسه .

(٢) جمع درة بالكسر ، وهو الاسم من در يدر ، أى سال بكثرة .

(٣) الوتر : الثأر . اتأر : أدرك ثأره .

(٤) اعتامها : اختارها . الشثن : الغليظ . القصر : جمع قصرة ، بالتحريك ، وهى العنق .

٤١

خبث الثعلب والكلب

وحدَّثنى صديقٌ لى قال :

تعجَّبَ أخٌ لنا من خُبْث الثعلب – وكان صاحبَ قَنْص – وقال لى : ما أعجبَ أمرَ الثعلب ! يَفصِل بين الكلب والكَلاَّب ، فيحتال للكَلاَّب بما يعلم أنَّه يجوز عليه ، ولا يحتال مِثلَ تلك الحيلةِ للكلب ؛ لأنَّ الكلبَ لا يخفى عليه الميِّت من المغشىِّ عليه ، ولا ينفع عنده التماوُت ، ولذلك لا يُحمَل مَن مات من المجوس إلى النَّار حَتَّى يُدنَى منه كلب ، لأنَّه لا يَخفى عليه مغمور الحِسِّ أحىٌّ هو أو ميِّت . وللكلب عند ذلك عملٌ يَستدلُّ به المجوس .

قال : وذلك أنِّى هجمتُ على ثعلبٍ فى مَضيقٍ ومعى بُنَىٌّ لى ، فإذا هو ميِّت منتفخ ، فصدَدْت عنه ، فلم ألبثْ أن لحقتْنى الكلاب ، فلمَّا أحسَّ بها وثَب كالبرق ، بعد أن تحايَدَ عن السَّنَن [1] .

فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فِعله معروف ، وهو أن يَستلقىَ وينفخَ خواصِرَه ويَرفعَ قوائمه ؛ فلا يشكُّ مَنْ رآه مِن الناس أنَّه ميِّتٌ منذُ دهر ، وقد تزكَّرَ بالانتفاخ بدنُه [2] ؛ فكنت أتعجَّبُ من ذلك ، إذْ مررتُ فى

---

(١) السَّنن : الطريق المسلوك . تحايد عنه : مال .

(٢) تزكَّر : عظم وامتلأ .

الزُّقَاق الذى فى أصل دار العَبَّاسَةِ ، ومنفذُه إلى مازن ، فإذَا جَرْو كلبٍ (١) مهزولٌ سيّىء الغذاء ، قد ضرَبَه الصِّبيان وعَقَروه ؛ ففرَّ منهم ودخلَ الزُّقاق ، فرمَى بنفسه فى أصل أُسطوانة (٢) ، وتبِعوه حتّى هَجموا عليه ، فإذا هو قد تماوتَ ، فضربوه بأرجلهم فلم يتحرَّك ، فانصرفوا عنه ، فلمَّا جاوَزوا تأمَّلتُ عينَيه فإذا هو يَفتحُهما ويُغمِضُهما ، فلمَّا بعُدوا عنه وأمِنَهم عَدَا وأخذَ فى غيرِ طريقهم .

فأذهبَ الذى كان فى نفسى للثعلب ، إذ كان الثعلبُ ليس فيه إلاّ الرَّوَغانُ والمكر (٣) ، وقد ساواه الكلبُ فى أجْوَدِ حِيَله .

---

(١) الجرو : ولد الكلب .

(٢) الأسطوانة : السارية ، والعمود .

(٣) الروغان : الميل وأن يحيد عن طالبه .

٤٢

قسمة الدَّجاج

قال أبو الحسن : حدَّثنى أعرابىٌّ كانَ ينزل بالبصرة قال :

قدم أعرابىٌّ من البادية فأنزلتُه ، وكان عندى دَجاج كثير ، ولى امرأةٌ وابنان وابنتان منها ، فقلت لامرأتى : بادِرِى واشْوِى لنا دجاجةً وقدِّميها إلينا نتغدَّاها ، فلما حضَرَ الغَداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتى وابناىَ وابنتاىَ والأعرابى .

قال : فدَفَعْنا إليه الدجاجة فقلنا له : اقسمها بيننا – نريد بذلك أن نَضْحَك منه – فقال : لا أُحسِنُ القسمة ؛ فإنْ رضيتُم بقِسْمَتى قسمتُها بينكم . قلنا : فإنّا نرضَى . فأخذ رأس الدجاجة فقطعه فناوَلَنيه وقال : الرأس للرَّأس . وقَطَع الجناحينِ وقال : الجناحان للابنين . ثم قطع السَّاقين فقال : السَّاقان للابنتين . ثم قطع الزِّمِكّى (١) وقال : العَجُز للعُجُز (٢) . ثم قطع الزَّور وقال : الزَّورِ للزائر .

فأخذ الدَّجاجة بأسْرِها وسخِر بنا .

فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمسَ دَجاجات . فلمَّا حضر الغداء قلت : اقسم بيننا . قال : إنى أظُنُّ أنكم وجَدتم فى أنفسكم (٣) .

---

(١) الزِّمكى : أصل ذنب الطائر .

(٢) العجز : جمع عجوز .

(٣) وجَدَ عليه : غضب .

قلنا : لا ، لم نَجِد فى أنفسنا فاقسم . قال : أقسِمُ شَفْعاً أو وَتراً ؟ قلنا : اقسم وَتْراً . قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : أنا ودجاجتين ثلاثة ! وأخذ دَجاجتين وسَخِر بنا .

قال : فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتَيْه فقال : ما تنظرون ، لَعلَّكم كرِهتم قسمتى ؟ الوَتْرُ لا يجىء إلاّ هكذا . فهل لكم فى قسمة الشَّفع ؟ قلنا : نعم . فضمَّهن إليه ثم قال : أنتَ وابناك ودجاجة أربعة . ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ، ورمَى إليهن بدجاجة . ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة . وضمَّ إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمدُ ، أنت فهَّمتَنيها !!

٤٣

ديك سهل بن هارون

قال دِعبِلٌ الشاعر : أقمنا عند سَهل بن هارون فلم نبرحْ ، حتَّى كدنا نموتُ من الجوع ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ، وَيلَكَ غدِّنا ! قال : فأُتينا بقَصعةٍ فيها مرقٌ فيه لحمُ ديكٍ عاسٍ هَرِمٍ [١] ليس قبلها ولا بعدها ، لا تحزُّ فيه السكِّين ، ولا تؤثِّر فيه الأضراس ، فاطَّلَع فى القصعة وقلَّبَ بصره فيها ، ثمَّ أخذ قطعةَ خُبزٍ يابس فقلَّب جميعَ ما فى القَصعة حتّى فقد الرأس من الدِّيك وحدَه ، فبقى مطْرقاً ساعة ، ثمَّ رفع رأسَه إلى الغلام فقال : أين الرأسُ ؟ فقال : رميتُ به . قال ولمَ رميتَ به ؟ قال : لم أظنَّك تأكله ! قال : ولأىِّ شىءٍ ظننتَ أنِّى لا آكلُه ؟ فوالله إنِّى لأمقُتُ من يَرمى برجليه ، فكيف من يَرمى برأسه ؟! ثم قال له : لو لم أكره ما صنعتَ إلاّ للطِّيَرة [٢] والفأل لكرهتُه ! الرأس رئيسٌ وفيه الحواسُّ ، ومنه يَصدح الدِّيك ، ولولا صوتُه ما أُرِيدَ ، وفيه فَرْقه الذى يُتَبَرَّك به ، وعينه التى يُضرَب بها المثل ، يقال : « شرابٌ كعين الديك » . ودِماغُه عجيبٌ لوجع الكُلية . ولم أر عظماً قطُّ أهشَّ تحت الأسنان من عَظم رأسه ، فهلاَّ إذْ ظننتَ أنِّى لا آكلُه ، ظننتَ أنَّ العيالَ يأكلونه ؟! وإن كان بلغ من نُبلك أنّك لا تأكله ، فإنَّ عندنا مَن يأكله . أوَ ما علمتَ أنَّه خير من طَرَف الجَناح ، ومن السَّاق والعُنق ! انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ! قال : لكنِّى أدرى ، إنَّكَ رميتَ به فى بطنك ، والله حسيبُك !

---

(١) العاسى : الذى أسنَّ حتى صلب وجفّ .

(٢) الطِّيرة ، كعنبة : التفاؤل .

٤٤

استنشاط القارئ ببعض الهزل

وإنْ كُنَّا قد أملَلْنَاك بالجِدِّ وبالاحتجاجات الصحيحة والمروَّجة لتُكثِّر الخواطرُ وتُشحَذ العقول ، فإنا سننشِّطك ببعض البَطالات (١) وبِذِكْرِ العلَل الظَّريفة والاحتجاجات الغريبة ؛ فربَّ شعرٍ يبلغ بفَرْطِ غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حَشْدُ أحرِّ النوادر ، وأجمع المعانى .

وأنا أستَظْرِف أمرَيْنِ استظرافاً شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر: احتجاجُ متنازَعين فى الكلام وهما لا يُحسنان منه شيئاً ؛ فإنّهما يثيران من غريب الطِّيب (٢) ما يُضحِك كلَّ ثكلانَ وإنْ تشدّد ، وكلَّ غضبانَ وإن أحرقه لهيبُ الغَضَب .

وسنَذْكُر من هذا الشَّكل عِلَلا ، ونُورِد عليك من احتجاجات الأغبياء حُجَجاً ، فإن كنت ممن يستعملُ الملالة وتَعجَلُ إليه السآمة ، كان هذا البابُ تنشيطاً لقلبك ، وجَماماً لقوّتك (٣) . ولِنبتدئَ النظرَ فى باب الحَمَام وقد ذهَب عنك الكلال وحدث النشاط

---

(١) جمع بطالة ، كسحابة ، وهى الهزل .

(٢) الطيب : الفكاهة والهزل .

(٣) الجمام ، بفتح الجيم : الراحة .

وإن كنتَ صاحب عِلم وجِدّ ، وكنت ممرَّناً موقَّحاً [١] ، وكنت حِلْفَ تفكير وتنقير ، ودراسة كتب ، وحلفَ تبيُّن ، وكان ذلك عادةً لك ، لم يَضِرْك مكانُه من الكتاب ، وتَخَطِّيهِ إلى ما هو أولَى بك .

وعلى أنِّي قد عزَمْت – والله الموفِّق – أنِّي أوشِّحُ هذا الكتَاب وأفصِّل أبوابَه بنوادرَ من ضروب الشِّعر وضروب الأحاديث ، ليخرُجَ قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ؛ فإني رأيت الأسماعَ تملُّ الأصوات المطربِة والأغانيَّ الحسنة ، والأوتارَ الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا فى طريقِ الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة .

وإذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السِّيرةَ ، كان هذا التدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أَصلَح ، وما غايتُنا من ذلك كلِّه إلا أن تستفيدوُا خيراً .

وقال أبو الدرداء : إنِّى لأُجمُّ نفسي [٢] ببعض الباطل ، كراهة أنْ أحمِلَ عليها من الحقِّ ما يُمِلُّها .

---

(١) الموقح : المجرب .

(٢) أى اريحها .

٤٥

قطعة من أشعار النساء

قالت أمرأةٌ من خثعم :

فإن تسألونى من أُحبُّ فإنَّنى ... أحِبُّ وبيتِ اللهِ كعبَ بنَ طارقِ
أُحِبُّ الفتى الجَعدَ السَّلولىَّ فاضلاً ... على الناس معتاداً لضرب المفارقِ

وقالت أخرى :

وما أحسَنَ الدُّنيا وفى الدار خالدٌ ... وأقبَحَهـا لما تجهَّـزَ غاديـا

وقالت أمُّ فروةَ الغَطَفانيَّة :

فما ماءُ مُزْنٍ أىُّ ماءٍ تقوله ... تَحدَّرَ مِن غُرٍّ طوالِ الذوائبِ (١)
بمنعَرَجٍ أو بطن وادٍ تحدَّرتْ ... عليه رياحُ الصَّيف من كلِّ جانبِ
نَفَى نَسَمُ الرِّيح القذَى عن مُتونه ... فما إنْ به عيبٌ تراهُ لشاربِ
بأطيبَ ممن يَقصُرُ الطَّرفَ دونه ... تُقَى اللهِ واستحياءُ بعضِ العواقبِ

وقال بعضُ العُشّاق :

وأنتِ التى كلَّفتِنِى دَلَجَ السُّرَى ... وجُونُ القطا بالجلهتَين جُثومُ (٢)
وأنتِ التى أورثتِ قلبى حرارةً ... وقَرَّحتِ قَرْحَ القلب فهو كليمُ (٣)

---

(١) عنى بالغُرّ : السحائب ، وبذوائبها أطرافها .
(٢) الجَلْهتان : جانبا الوادى .
(٣) الكليم : المجروح .

وأنت التى أسْخَطْتِ قومى فكلُّهمْ ... بعيدُ الرِّضا داني الصدود كَظيمُ (١)

فقالت المعشوقة :

وأنتَ الذى أخلفتَنى ما وعدتَنى ... وأشمتَّ بى من كان فيكَ يلومُ
وأبرزتَنى للناس حتّى تركتَنى ... لهمْ غَرَضاً أُرمَى وأنت سليمُ (٢)
فلو أنَّ قَوْلاً يَكلِمُ الجسمَ قد بدا ... بجلدىَ من قول الوُشاةِ كلومُ

وقال آخر (٣) :

شهدتُ وبيتِ الله أنّكِ غادةٌ ... رَدَاحٌ وأنَّ الوجهَ منكِ عتيقُ (٤)
وأنّكِ لا تَجزيننى بمودّةٍ ... ولا أنا للهجرانِ منكِ مُطيقُ

فأجابته :

شهدتُ وبيتِ الله أنك بارد الـ ... ـثّنايا وأنَّ الخَصْرَ منكَ دَقيقُ
وأنّكَ مشبوح الذِّراعين خَلجَمٌ ... وأنّك إذْ تخلو بهنَّ رفيقُ (٥)

---

(١) الكظيم : المكظوم ، وهو من امتلأ جوفه الغضب .

(٢) الغرض : الهدف .

(٣) هو قيس لبنى . تزيين الأسواق ص ٤٩ .

(٤) الرداح ، كسحاب : الثقيلة الأوراك . والعتيق : الجميل الرائع .

(٥) مشبوح : طويل ، أو عريض . الخلجم : الجسيم العظيم .

٤٦

قصة الممهورة

قال الأصمعى :

تزوَّج رجلٌ امرأةً ، فساقَ إليها مَهرَها ثلاثين شاةً ، وبعث بها رسولاً ، وبعثَ بزِقٍّ خمر . فعَمَد الرسولُ فذبح شاةً فى الطريق فأكلَها وشرِبَ بعضَ الزِّقّ ، فلما أتى المرأةَ نظرتْ إلى تسعٍ وعشرين ، ورأت الزِّقّ ناقصاً ؛ وعَلِمَتْ أن الرجلَ لا يبعثُ إلا بثلاثين وزِقٍّ مملوءٍ ، فقالت للرسول : قل لصاحبك : إن سُحَيْماً قد رُثِم [١] ، وإنَّ رسولَكَ جاءنا فى المَحَاق [٢] !

فلما أتاه الرسول بالرسالة قال : يا عدوّ الله ؛ أكلتَ من الثلاثين شاةً شاة ، وشربتَ من رأس الزِّق !

فاعترف بذلك .

---

(١) رثم : كسر أنفه .

(٢) المحاق – مثلث الميم : آخر الشهر .

٤٧

مقطعات شتى

قال بعضهم :

وفَلاةٍ كأنما اشتمَـلَ اللَّيـ ـلُ على رَكْبِه بأبنـاءِ حامِ (١)
خُضتُ فيها إلى الخليفة بالرَّ قّةِ بَحْـرَىْ ظهيرةٍ وظَـلام (٢)

وقال آخر :

أودَى الخيارُ من المعاشر كلُّهم واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ (٣)
وتنازَعُوا فى كلِّ أمرِ عظيمـةٍ لو قد تكون شهِدتَهم لم ينبِسُوا (٤)

وأبياتُ أبى نواس ، على أنّه مولَّد شاطر ، أشعر من شعر مهلهِل فى إطراق الناس فى مجلس كُلَيب ، وهو قولُه :

على خبز إسماعيلَ واقيةُ البُخل وقد حَلَّ فى دار الأَمَان من الأَكْلِ (٥)
وما خُبزُهُ إلاَّ كآوى يُرَى ابنُها ولم تُرَ آوَى فى الحُزون ولا السهلِ (٦)

---

(١) حامّ : أبو السودان .

(٢) الرقة : بلد بالعراق .

(٣) أودى : هلك . استبُّوا : سبَّ بعضهم بعضا .

(٤) لم ينبسوا : لم يتكلموا .

(٥) هو إسماعيل بن أبى سهل بن نيبخت .

(٦) ابن آوى : حيوان شبيه بالثعلب .

وما خبزُه إلاّ كعنقاءِ مُغْرِبٍ تُصَوَّر فى بُسط الملوك وفى المُثْلِ (١)
يحدِّث عنها الناسُ من غير رؤيةٍ سوى صُورةٍ ما إنْ تُمِرُّ ولا تُحْلِى (٢)
وما خُبْزُه إلاّ كليبُ بن وائلٍ ليالىَ يحمى عزُّه مَنبِتَ البقلِ (٣)
وإذ هو لا يستبُّ خَصمانِ عِندَه ولا القول مرفوعٌ بجِدٍ ولا هزل (٤)

---

(١) عنقاءُ مغربٍ : طائر خرافى ، يزعمون أنه يبيض بيضاً كالجبال ، وأنه يخطِف الفيلة ، وأنه يعيش ألفى سنة . المثل : جمع مثال ، وهو الفراش .

(٢) أمرَّ وأحلَى : صار مرا وصار حلوا .

(٣) كان كليب بن وائل قد جعل مرعى من المراعى حمىً لا ترعى فيه إلا إبله .

(٤) مرفوع : يرفع به الصوت .

٤٨

القول فى المعنى واللفظ

وذهب الشيخُ إلى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحةٌ فى الطريق يَعرفها العجميّ والعربيّ ، والبدوىّ والقروىّ ، وإنما الشّأن فى إقامة الوزن ، وتخيُّر اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحّة الطبع وجَودة السَّبك . فإنما الشِّعر صياغَةٌ ، وضربٌ من النسج ، وجنسٌ من التصوير .

وقد قيل للخليل بن أحمد : مالكَ لا تقول الشعر ؟ قال : الذى يجيئنى لا أرضاه ، والذى لا أرضاه لا يجيئنى .

فأنا أُستحسِنُ هذا الكلام ، كما أستحسنُ جوابَ الأعرابى حين قيل له : كيف تجدُك ؟ قال : أجدنى أجد ما لا أشتهِى ، وأشتهى ما لا أجد !

٤٩

ذكر خصال الحرَم

فمن خصاله : إنَّ الذئبَ يصيد الظَّبىَ ويُريغُه (١) ويعارضه ، فإذا دخل الحرَمَ كفَّ عنه .

ومن خصاله : أنَّه لا يسقُط على الكعبة حمامٌ إلاَّ وهو عليل . يُعرفُ ذلك متى امتُحِن وتُعُرِّفتْ حاله ، ولا يسقط عليها ما دام صحيحاً .

ومن خصاله : أنه إذا حاذَى أعلى الكعبة عَرَقَةٌ (٢) من الطير ، كاليمام وغيره ، انفرقت فرقتين ولم يَعلُها طائرٌ منها .

ومن خصاله : أنه إذا أصاب المطرُ البابَ الذى من شِقِّ العراق كان الخِصبُ والمطر فى تلك السَّنَة فى شِقِّ العراق ، وإذا أصاب الذى من شِقِّ الشام كان الخِصبُ والمطر فى تلك السنة فى شِقّ الشام ، وإذا عمَّ جوانبَ البيت كان المطر والخِصبُ عامًّا فى سائر البُلدان .

ومن خصال الحرم : أنَّ حَصَى الجِمار يُرمَى بها فى ذلك المَرمَى ، مُذْ يومَ حجَّ الناسُ البيتَ على طَوَالِ الدَّهر ، ثم كأنّه على مقدارٍ واحد . ولولا موضعُ الآية والعلامةِ والأعجوبة التى فيها ، لقد كان ذلك كالجبال . هذا من غير أن تكتسحه السُّيول ، ويأخذَ منه الناس .

---

(١) يُريغه : يطلبه .

(٢) العرقة ، بالتحريك : السطر من الطير أو الخيل .

ومِن سُنَّتهم : أنَّ كلَّ مَن علا الكعبة من العبيد فهو حُرٌّ ، لا يرون المِلْكَ على مَن عَلاها ، ولا يجمعون بين عزِّ علوّها وذلَّة المِلْك .

وبمكَّة رجالٌ من الصُّلحاء لم يدخُلوا الكعبة قطّ .

وكانوا فى الجاهلية لا يبنون بيتاً مربَّعاً ، تعظيماً للكعبة . والعربُ تسمّى كلَّ بيتٍ مربَّع كعبةً ، ومنه كعبة نَجْرانَ . وكان أوَّلَ من بنى بيتاً مربَّعاً : حُميدُ بنُ زُهير (١) ، أحد بنى أسد بن عبد العُزّى .

ثم البركة والشفاءُ الذى يجده مَن شرِبَ من ماء زمزم على وجه الدهر ، وكَثرةُ من يُقيم عليهِ يَجِدُ فيه الشفاءَ بعد أن لم يَدَعْ فى الأرض حَمَّةً (٢) إلاّ أتاها وأقام عندها ، وشرب منها واستنقَعَ فيها (٣) .

هذا مع شأن الفيل والطَّير الأبابيل ، والحجارة السِّجِّيل ، وأنّها لم تَزَل أَمْناً ولَقَاحاً (٤) ، لا تؤدِّى إتاوةً ، ولا تَدِين للملوك . ولذلك سمِّى البيتَ العتيق ؛ لأنّه لم يزل حُرًّا لا يمِلكُه أحد .

وقال حربُ بن أميّة فى ذلك :

أبا مَطَرٍ هلُمَّ إلى صَلاَحِ ... فتكْفِيَكَ النَّدامَى من قُريش (٥)
فتأمَنَ وَسْطَهم وتعيشَ فيهمْ ... أبا مَطَرٍ هُدِيتَ لخير عَيشِ
وتَنــزِلَ بلــدةً عَزَّت قديماً ... وتأمَنَ أن يَزُورَكَ رَبُّ جيشِ

---

(١) كانت له دار ملاصقةٌ للمسجد ، ترجم له ابن حجر فى الإصابة ١٨٣٣ .
(٢) الحمة : كل عين فيها ماء حار ينبع ، يستشفى بها الأعِلاَّء .
(٣) أى نزل واغتسل .
(٤) اللقاح ، بالفتح : الذى ليس فى سلطان أحد .
(٥) يقول الشعر لأبى مطر الحضرمى ، يدعوه إلى حِلفه ونزول مكة .

وقال الله عزَّ وجلّ : ﴿ وإذْ جَعَلْنا البيتَ مَثَابةً للنَّاسِ وأمْناً واتَّخِذوا مِن مَقام إبراهيم مُصَلًّى ﴾ . وقال عزَّ وجلّ حكايةً عن إبراهيم : ﴿ ربَّنا إنّى أسكَنْتُ مِن ذُرِّيتى بِوادٍ غيرِ ذى زَرْعٍ عنْدَ بَيتِكَ المحرَّمِ ربَّنا لِيُقيمُوا الصلاةَ فاجعَلْ أفئدةً مِن النَّاس تَهْوِى إليهمْ وارزقْهُمْ مِن الثَّمَراتِ لَعَلَّهم يشكُرونَ ﴾ .

٥٠

خصال المدينة

والمدينة هى طَيْبة ، ولطيبها قيل تَلْفِظُ خَبَثها ، ويَنصَع طِيبُها . وفى ريح تُرابها ، وبَنَّة تُربتِها (١) ، وعَرف ترابها ، ونسيم هوائها ، والفَعمة (٢) التى تُوجَد فى سِككها وفى حيطانها ، دليلٌ على أنّها جُعِلَتْ آيةً حين جُعِلت حَرَما .

وكلُّ مَن خرجَ من منزلٍ مطيّبٍ إلى استنشاق ريح الهواء والتُّربة فى كل بلدة ، فإنّه لابدّ عند الاستنشاق والتثبُّت من أن يجدها مُنتنة . فذلكَ على طبقاتٍ من شأن البُلدان ، إلاّ ما كان فى مدينة الرسول ، رسول الله ﷺ ؛ فللصَّيَّاحِ (٣) والعِطر والبَخُور والنَّضُوح (٤) ، من الرائحة الطيِّبة إذا كان فيها ، أضعافُ ما يوجَد له فى غيرها من البلدان ، وإن كان الصَّيَّاحُ أجودَ ، والعِطرُ أفخرَ ، والبَخُور أثمَن .

---

(١) البنة ، بالفتح : الرائحة الطيبة .

(٢) الفَعْمة : طيب الرائحة .

(٣) الصياح ، بوزن كتان : عطر .

(٤) النضوح : ضرب من الطيب .

٥١

عناية الحمام بنسله

والحَمَامُ أكثر مَعانيه الذَّرء (١) وطلب الولد . فإذا علم الذكرُ أنّه قد أودعَ رحمَ الأنثى ما يكون منه الولدُ تقدَّما فى إعداد العُشّ ، ونَقْل القصب وشِقَق الخُوص (٢) ، وأشباهِ ذلك من العيدان الخوّارة (٣) الدِّقاق ، حتَّى يَعمَلاَ أُفحوصةً ويَنسِجاها نسجاً مُداخَلاً ، وفى الموضع الذى قد رضِياه واتَّخَذاه واصطنعاه ، بقدر جُثمان الحمامة ، ثمَّ أشخصا لتلك الأفحوصة حروفاً غير مرتفعة ، لتحفظ البيضَ وتمنعه من التَّدحرُج ، ولتلزمَ كنفَي الجؤجؤ (٤) ، ولتكون رِفداً (٥) لصاحب الحَضْن ، وسَنَداً للبيض . ثم يتعاوران ذلك المكانَ ، ويتعاقبان ذلك القُرموصَ (٦) وتلكَ الأفحوصةَ ، يُسخّنانها ويدفّيانها ويطيّبانها ، وينفيان عنها طِباعَها الأوّل (٧) ، ويُحدثان لها طبيعةً أخرى مشتقَّةً من طبائعهما ، ومستخرجةً من رائحة أبدانهما وقواهما الفاصلةِ منهما ، لكى تقع البيضةُ إذا وقعت ، فى موضعٍ أشبهِ المواضع

---

(١) الذرء : النسل .

(٢) جمع شِقّة ، بالكسر ، وهى القطعة المشقوقة .

(٣) الخوارة : الضعيفة .

(٤) الكنف : الجانب . والجؤجؤ : الصدر .

(٥) أى عونا .

(٦) القرموص : العش يبيض فيه الحمام .

(٧) الطباع ، بالكسر ، هو الطبع .

طباعاً بأرحام الحمام ، مع الحصَانة والوَثَارة (١) ؛ لكيلا تنكسر البيضةُ بِيُبْس الموضع ، ولئلاّ ينكِرَ طباعُهما طباعَ المكان ، وليكون على مقدارٍ من البَرد والسَّخانة ، والرَّخاوة والصَّلابة .

ثمَّ إنْ ضربهَا المَخَاض وطَرَّقَت بِبَيْضتها (٢) ، بَدَرت إلى الموضع الذى قد أعدَّته ، وتحاملت إلى المكان الذى اتَّخذته وصنعته ، إلاَّ أن يُقَرِّعَها (٣) رعدٌ قاصف ، أو ريحٌ عاصف ، فإنَّها ربَّما رمت بها دون كِنِّها وظلِّ عُشِّها ، وبغير موضعها الذى اختارته .

والرعد ربَّما مَرِق (٤) عنده البيضُ وفسَد ، كالمرأة التى تُسقِط من الفزَع ، ويموت جنينُها من الرَّوع .

وإذا وضعت البيضَ فى ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحَضْنَ ويتعاورانه ، حتّى إذا بلغَ ذلك البيض مَداه وانتهت أيامُه ، وتمَّ ميقاتُه الذى وظفَّه خالقُه ، ودبَّره صاحبه ، انصدع القَيْض (٥) عن الفَرخ ، فخرج عارِىَ الجلد صغير الجنَاح ، قليلَ الحيلة ، منسدَّ الحلقوم ، فيعينانه على خلاصِهِ من قيْضه ، وترويحه من ضِيق هَوَّته (٦) .

وهما يعلمان أنَّ الفرخين لا تتَّسع حلوقُهما وحواصلُهما للغِذاء ، فلا يكون لهما عند ذلك هَمٌّ إلاَّ أن ينفُخا فى حلوقهما الرِّيح ، لتتَّسع الحوصلةُ بعد التحامِهَا ، وتَنْفتق بعد ارتتاقها . ثم يعلمان أنّ الفرخ وإن اتّسعت

(١) الوثارة : أن يكون الشئ موطأ ممهدا .
(٢) طرَّقت : حان خروج بيضها . وأصل التطريق للقطا .
(٣) قرَّعها : أقلقها وأزعجها .
(٤) مَرِقت البيضة : فسدت فصارت ماء .
(٥) القيض : القشرة العليا اليابسة على البيضة .
(٦) الهوة ، بالفتح ، أصل معناها الكوة ، وهى الخرق فى الحائط والثقب فى البيت .

حوصلتُه شيئاً ، أنّه لا يحتمل فى أوّل اغتذائه أن يُزَقَّ بالطُّعم (١) فيُزَقّ عند ذلك باللُّعاب المختلط بقواهما وقُوى الطُّعم – وهم يسمُّون ذلك اللُّعابَ اللِّباء – ثم يعلمان أنَّ طبع حوصلِته يرقّ عن استمراء الغذاء وهضم الطُّعم ، وأنَّ الحوصلة تحتاج إلى دبغٍ وتقوية ، وتحتاج إلى أن يكون لها بعضُ المتانة والصَّلابة ، فيأكلان من شَوْرجٍ (٢) أصول الحِيطان – وهى شئٌ بين المِلح الخالص وبين التُّراب الملح – فيزُقّانه به ، حتّى إذا علما أنّه قد اندبغ واشتدّ ، زقّاه بالحبّ الذى قد غبَّ (٣) فى حواصلهما ، ثم زقّاه بعد ذلك بالحبّ الذى هو أقوى وأطرى ، فلا يزالان يَزُقّانِهِ بالحبّ والماء على مقدار قوّته ، ومبلغ طاقته ، وهو يطلب ذلك منهما ، ويَبِضُّ نحوَهما (٤) حتّى إذا علما أنّ أداتَه قد تمّت ، وأنّ أسبابَه قد اجتمعت ، وأنّهما إنْ فطَماه فطماً مقطوعاً مجذوذا (٥) قوِىَ على اللَّقْط ، وبلغ لنفسه منتهى حاجته – ضرباه إذا سألهما الكفاية ، ونفَياه متى رجَعَ إليهما .

ثم تُنْزَعُ عنهما تلك الرَّحمةُ العجيبة منهما له ، وينسَيانِ ذلك العطفَ المتمكِّن عليه ، ويُذهَلان عن تلك الأَثَرَة له ، والكَدِّ المُضْنِى من الغدوِّ عليه والرَّواح إليه ، ثمَّ يبتديان العملَ ابتداءً ثانياً على ذلك النظام ، وعلى تلك المقدّمات .

فسبحان من عَرَّفهما وألهمهما وهداهما ، وجعلهما دَلالةً لمن استدلَّ ، ومخبِراً صادقاً لمن استَخبَرَ . ذلكمُ الله ربُّ العالمين .

---

(١) الطعم ، بالضم : الطعام .
(٢) الشورج : ضرب من الملح .
(٣) أى مكث طويلا .
(٤) أصل البض أن يسأل الإنسان عن الحاجة فيتمطق بشفتيه .
(٥) المجذوذ : المقطوع المستأصل .

٥٢

إلف الوطن

ومِن كَرَم الحمام: الإلْفُ والأُنس والنِّزاع والشوق ؛ وذلك يدلُّ على ثبات العهد ، وصَوْنِ ما ينبغى أن يُصَان . وإنه لَخُلُقُ صِدقٍ فى بنى آدم فكيف إذَا كان ذلك الخلق فى بعض الطير ؟!

وقد قالوا : عَمَّر اللهُ البُلْدَان ، بحبِّ الأوطان .

قال ابنُ الزُّبير : ليس الناسُ بشيءٍ من أقسامهم (١) أقنعَ منهم بأوطانهم .

وأخبر الله عزَّ وجلّ عن طبائع الناس فى حبِّ الأوطان فقال : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ . وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ .

وقال الشاعر :

وكنتُ فيهم كممطورٍ ببَلْدَتِه ... فسُرَّ أنْ جَمَعَ الأوطانَ والمطرا

فتَجِدُه يُرْسَل من مَوضعٍ فيجيء ، ويُستَرَقُ (٢) مِن منزل صاحبِهِ

---

(١) جمع قسم ، وهو الحظ والنصيب .

(٢) يسترق ، أى يسرق .

فيُقَصّ ، ويغَبُر (١) هناك حولاً وأكثر من الحول ، فحين ينبُت جَناحُه يَحِنُّ إلى إلْفِه ، ويَنزِع إلى وطنه وإن كان الموضعُ الثَّانى أنفعَ له وأنعَمَ لباله ، فيَهَبُ فَضْل ما بينهما لموضعِ تربيتِه وسَكَنه ؛ كالإنسان الذى لو أصاب فى غير بلاده الرِّيفَ (٢) لم يَقَعْ ذلك فى قلبه ، وهو يصالحهم على أن يُعطى عُشرَ ما هو فيه فى وطنه .

ثم ربَّما باعَهُ صاحبُه ، فإذا وجَدَ مَخلصاً رجع إليه ، حتّى ربَّما فعل ذلك مِراراً ، وربَّما طار دَهرَه وجالَ فى البلاد ، وألِفَ الطيرانَ والتقلُّبَ فى الهواء والنَّظَرَ إلى الدنيا ، فيبدو لصاحبه (٣) فيقُصُّ جناحَه ويُلقيه فى دِيمَاسٍ (٤) فينبُتُ جَناحُه فلا يذهب عنه ولا يتغيَّر له . نَعمْ حتّى ربَّما جَدَف (٥) وهو مقصوصٌ فإمَّا صار إليه ، وإمَّا بَلَغَ عُذْرا .

---

(١) يغبر : يمكث .
(٢) الرِّيف : حيث الخضرة والمياه والزروع .
(٣) بدا له فى الأمر : نشأ له فى رأى .
(٤) الديماس : الكن الذى يحفظ فيه .
(٥) جَدَف الطائر : طار وهو مقصوص الجناحين كأنه يردُّ جناحيه إلى خلفه .

٥٣

التلهّي بالحمام

وقال مُثنّى بنُ زُهير ذات يوم : ما تَلَهّى الناس بشيء مثل الحمام ، ولا وجدْنا شيئاً ممّا يتّخذُه الناسُ ويُلعَبُ به ويُلْهى به ، يَخرُج من أبواب الهزل إلى أبواب الجدّ كالحمام – وأبو إسحاق (١) حاضر – فغاظه ذلك ، وكَظَم على غيظه . فلمَّا رأى مُثَنًّى سكوتَه عن الردّ عليه طمع فيه فقال : يبلُغ واللهِ من كَرمِ الحمام ووفائه وثبات عَهْدِه ، وحنينه إلى أهله ، أنّى ربما قصَصت الطائر بعد أن صار عِندى دَهراً ، فمتى نَبَت جناحُه كنباته الأوّلِ لم يَدْعُه سوءُ صُنعى إليه إلى الذِّهاب عَنّى . ولربَّما بِعتُه فيقُصُّه المبتاعُ حيناً ، فما هو إلا أن يجدَ فى جناحه قوّةً على النهوض حتّى أراه أتانى جادفاً أو غير جادف (٢) ، وربَّما فعلتُ ذلك به مِراراً كثيرة ، كلُّ ذلك لا يزداد إلاَّ وفاء .

قال أبو إسحاق : أما أنت فأراك دائباً تَحمَدُه وَتذمّْ نفسُك ، ولئن كان رجوعُه إليك مِن الكرم إن إخراجَك له من اللُّؤم ! وما يعجبنى من الرجال من يقطع نفْسَه لصِلة طائرٍ وينسَى ما عليه فى جنْبِ ما للبهيمة .

ثم قال : خبِّرنى عنك حين تقول : رجَعَ إلىّ مرَّةً بعد مرة ، وكلَّما زَهِدتُ فيه كان فىَّ أرغبَ ، وكلَّما باعدته كان لى أطلَب ، إليك جاء

---

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٢) الجادف : الذى يكسر من جناحيه شيئا ، كأنه يردهما إلى الخلف ، ولاسيما إذا كان مقصوص الجناحين .

وإليك حَنَّ ، أم إلى عُشِّه الذى دَرَج منه ، وإلى وَكْرِه الذى رَبِىَ فيه ؟!

أرأيت أنْ لو رَجَع إلى وَكْرِهِ وبيته ثم لم يجِدْك وألفاكَ غائباً أو ميِّتاً ؛ أكان يَرجِع إلى موضعه الذى خَلَّفَهُ ؟

وعلى أنَّك تتعجّب من هدايته ، وما لك فيه مقالٌ غيره .

فأما شُكرُك على إرادته لك فقد تبيَّنَ خَطَاؤك فيه [1] وإنما بقىَ الآنَ حُسْن الاهتداء ، والحنينُ إلى الوطن .

---

(١) الخطاء : الخطا .

٥٤

طلب الأسد للملح

والأُسدُ إذا أكثرت من حَسْوِ الدِّماء (١) – والدِّماء حُلوةٌ – وأكلِ اللحمِ ، واللحمُ حلو ، طلبت المِلحَ لتتملَّح به ، وتجعلَه كالحَمْض بعد الخُلَّة (٢) .

ولولا حُسن موقع المِلح لم يُدخلْه الناسُ فى أكثر طعامهم .

والأُسد يخرج للتملُّح فلا يزال يسير حتى يجد ملاَّحة (٣) . وربَّما اعتاد الأسد مكاناً فيجده ممنوعاً ، فلا يزال يقطع الفراسخَ الكثيرةَ بعد ذلك ، فإذا تملَّح رجَع إلى موضعه وغَيْضتِه وعَرينه ، وغابِه وعِرِّيسته (٤) ، وإن كان الذى قطعَ خمسين فرسخا .

---

(١) الحسو : الشرب يكون شيئا بعد شئ .

(٢) الحمض : ما ملح وأمر من النبات . والخلة : ما فيه حلاوة من النبت .

(٣) الملاحة : موضع الملح .

(٤) العريسة : مأوى الأسد .

٥٥

حديث أفليمون عن الحمام

وقال أفلِيمونُ صاحب الفِراسة لصاحبه :

وأنا محدِّثك عن نَفْع الحمام بحديثٍ يزيدُك رغبةً فيها . وذلك أن مَلِكَينِ طلب أحدُهما مُلْك صاحبه ، وكان المطلوب أكثرَ مالاً وأقلَّ رجالا وأخصبَ بلاداً ، وكانت بينهما مسافةٌ من الأرض بعيدة ، فلمَّا بلغه ذلك دعا خاصَّتَه فشاوَرهم فى أمره ، وشكا إليهم خوفَه على مُلكِه ، فقال له بعضُهم : دامَتْ لك أيّها الملكُ السلامةُ ، ووُقِيتَ المكروه ! إن الذى تاقَتْ له نفسُك قد يُحتال له باليسير من الطمع ، وليس من شأن العاقل التغرير ، وليس بعد المناجَزة بقية . والمُناجِز لا يدرى لمن تكون الغَلَبة ، والتمسُّك بالثقة خير من الإقدام على الغَرَر (١) .

وقال بعضهم : دامَ لك العِزّ ، ومُدَّ لك فى البقاء ! ليس فى الذُّلّ دَرَك ، ولا فى الرِّضا بالضَّيمِ بقية ، فالرأىُ اتخاذ الحصون وإذكاء العيون (٢) ، والاستعداد للقتال ، فإنّ الموت فى عِزّ خيرٌ من الحياة فى ذُلّ !

وقال بعضهم : وقُيتَ وكُفيت ، وأعطِيتَ فضلَ المزيد ! الرأى طلَبُ المصاهرة له والخِطبة إليه ؛ فإن الصِّهر سببُ ألفةٍ تقع به الحرْمَة ، وتثبت به المودّة ، ويحلُّ به صاحبُه المحلَّ الأدنى . ومَن حَلَّ من صاحبِه هذا المحلَّ لم يخلّه

---

(١) الغرر : التعرض للهلاك .

(٢) العيون : الجواسيس . والإذكاء أصل معناه الإشعال والإيقاد .

مما عراه ، ولم يمتنعْ من مناواةِ مَن ناواه (١) . فالتمسْ خُلْطَتَه (٢) فإنه ليس بعد الخلطة عداوة ، ولا مع الشّركة مباينة !

فقال لهم الملك : كلٌّ قد أشارَ برأى ، ولكلٍ مُدَّة ، وأنا ناظرٌ فى قولكم ، وبالله العِصْمَةُ ، وبشكره تتمُّ النعمة !

وأظهَرَ الخِطبة إلى الملك الذى فَوقَه ، وأرسل رُسلاً وأَهْدَى هدايا ، وأمَرَهم بمصانعة جميع من يصل إليه ، ودسَّ رجالاً من ثقاته ، وأمرهم باتخاذ الحَمَام فى بلاده وتوطينهنَّ ، واتخذَ أيضاً عند نفسه مثلهنَّ ، فرفَّعهنَّ من غاية إلى غاية . فجعل هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم ، وجعل مَن عند الملك يُرسِلون من بلاد المَلِك ، وأمرهم بمكاتبته بخَبرِ كلِّ يوم ، وتعليق الكُتب فى أصولِ أجنحة الحَمام ؛ فصار لا يخفَى عليه شئٌ من أمره ، وأطمعَه الملكُ فى التَّزويج ، وتابَعَ بين الهدايا ، ودسَّ لحرسه رجالاً يُلاطفونهم حتَّى صاروا يبيتون بأبوابه معهم .

فلما كتب أصحابُه إليه بغِرَّتهم (٣) وصل الخبرُ إليه من يومه ؛ فسار إليه فى جندٍ قد انتخبهم ، حتى إذا كان على ليلةٍ أو بعض ليلة أَخذ بمجامع الطرق ، ثم بيَّتَهم (٤) ، ووثَب أصحابُه من داخل المدينة ، وهو وجُندُه من خارج ، ففتحوا الأبوابَ وقتلوا الملك ، وأصبح قد غَلَب على تلك المدينة وعلى تلك المملكة .

فعظُم شأنُه وأعظَمتْه الملوكُ ، وذُكِر فيهم بالحَزْم والكَيْد . وإنما كان سبب ذلك كله الحمام .

---

(١) ناوأه : عاداه .

(٢) الخلطة بالكسر : العشرة . والخلطة بالضم : الشركة .

(٣) الغرة : الغفلة وعدم الاحتراس .

(٤) بيتهم : أوقع بهم ليلا .

٥٦

أخذ الشعراء بعضهم معانىَ بعض

ولا يُعلمُ فى الأرض شاعرٌ تقدَّم فى تشبيهٍ مُصيبٍ تامّ ، وفى معنَى غريبٍ عجيب ، أو فى معنًى شريف كريم ، أو فى بديعٍ مختَرع ، إلاَّ وكلُّ مَن جاء من الشعراء مِن بعدِه أو معه — إن هو لم يَعْدُ على بعضه فيسرقَ بعضه أو يدّعيَه بأَسْرِه ، فإنه لا يَدعُ أن يستعين بالمعنى ، ويجعلَ نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذى تتنازعُه الشعراءُ فتختلفُ ألفاظُهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعلَّه أن يَجْحَد (١) أنه سمع بهذا المعنى قَطّ ، وقال : إنه خطَر على بالى من غير سماع ، كما خطر على بال الأوّل . هذا إذا قرَّعوه به ، إلاَّ ما كان من عنترة فى صفة الذُّباب ؛ فإنه وَصَفه فأجاد صفتَه ، فتحامى معناه جميعُ الشعراء فلم يَعرِضْ له أحدٌ منهم .

ولقد عَرَض له بعضُ المحْدَثين ممن كان يُحَسِّن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه ، أنّه صار دليلاً على سوء طَبعه فى الشعر . قال عنترة :

جادَتْ عليها كلُّ عَينٍ ثَرَّةٍ   فتَركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ (٢)

---

(١) الجحود : الإنكار مع العلم .

(٢) أراد بالعين الثرة السحابة الغريزة المطر . والحديقة من الرياض : كل أرض استدارت وأحدق بها حاجز ، وجعل الحديقة كالدرهم فى استدارته لا قدره .

فترى الذبابَ بها يغنِّى وحدَه   هزِجاً كفِعْلِ الشاربِ المترنِمِ
غرِداً يَحُكُّ ذراعَه بذراعه   فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

قال : يريد فِعْلَ الأقطع المكبِّ على الزناد . والأَجْذَم : المقطوع اليدين . فوصف الذُّباب إذا كان واقعاً ثم حكَّ إحدى يديه بالأخرى ، فشبَّهه عند ذلك برجل مقطوعِ اليدين يَقْدَحُ بعودَين . ومتى سقط الذبابُ فهو يفعل ذلك .

ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة .

٥٧

خصلتان محمودتان فى الذباب

وفى الذباب خَصْلتانِ من الخصال المحمودة : أما إحداهما فقُربُ الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها . فمن أراد إخراجَها من البيت فليس بينه وبين أن يكون البيت على المقدار الأوّل من الضِّياء والكِنّ بعد إخراجها ، مع السَّلامة من التأذّى بالذِّبّان ، إلاَّ أن يُغلِقَ البابَ ؛ فإنَّهنَّ يتبادرن إلى الخروج ، ويتسابقن فى طلب الضَّوء والهربِ من الظُّلمة . فإذا أُرخىَ السِّترُ وفُتح الباب عادَ الضَّوء وسلِم أهلُه من مكروه الذُّباب . فإن كان فى الباب شَقٌّ ، وإلاّ جافَى المُغْلِقُ (١) أحدَ البابَين عن صاحبه ، ولم يُطْبِقْه عليه إطباقا . وربّما خَرجن من الفَتْح الذى يكون بين أسفلِ الباب والعَتَبة . والحيلةُ فى إخراجها والسَّلامةِ من أذاها يسيرة .

وليس كذلك البَعُوض ؛ لأنَّ البعوضَ إنما يشتدُّ أذاه ، ويقْوَى سُلطانُه ، ويشتدُّ كَلَبه (٢) فى الظُّلمة ، كما يقْوَى سُلطان الذِّبّان فى الضياء .

وليس يُمكن الناسَ أن يُدخِلوا منازلهم من الضياء ما يمنع عملَ البعوض ، لأنّ ذلك لا يكون إلاّ بإدخال الشمس ، والبعوضُ لا يكون إلاّ فى الصَّيف ، وشمس الصيف لا صبرَ عليها . وليس فى الأرض ضياء انفصلَ من

---

(١) جافى : أبعد .

(٢) كلبه : شدة رغبته فى العض .

الشمس إلاّ ومعه نصيبُه من الحرّ . وقد يفارق الحرُّ الضِّياءَ فى بعض المواضع . والضياء لا يفارق الحرَّ فى مكانٍ من الأماكن .

فإمكان الحيلة فى الذُّباب يسير ، وفى البعوض عسير !

والفضيلة الأخرى : أنه لولا أنّ الذُّبابة تأكل البعوضةَ وتلتمسُها على وجوه حيطان البيوت وفى الزَّوايا ، لَمَا كان لأهلها فيها قرار !

٥٨

قصة عبد الله بن سوّار

كان لنا بالبَصْرَة قاضٍ يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناسُ حاكماً قطُّ ، ولا زَميتاً ولا ركيناً (١) ، ولا وقوراً ولا حليما ، ضَبَط من نفسه ومَلَك من حركته مثلَ ما ضَبَط ومَلَك . كان يصلّى الغداةَ فى منزله ، وهو قريبُ الدارِ من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحْتَبِى ولا يتَّكىء ، فلا يزال منتصباً لا يتحرَّك له عُضْو ولا يلتفت ، ولا يَحُلُّ حُبْوَته (٢) ولا يحوِّل رِجلاً عَنْ رِجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيه ، حتى كأنَّه بناءٌ مبنىّ ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظُّهر ؛ ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتّى يقومَ إلى صلاة العصر ؛ ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتّى يقومَ لصلاة المغرب ، ثم ربَّما عاد إلى مَحلِّه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقىَ عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف .

فالحقُّ يقال : لم يقُمْ فى طول تلك المدّة والوِلاية مرةً واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماءً ولا غيرَه من الشراب . كذلك كان شأنُه فى طِوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفْها وفى شتائها . وكان مع ذلك

---

(١) الزميت : العظيم الوقار . والركين : الرزين .

(٢) الحُبْوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

لا يحرِّك يدَه ، ولا يُشير برأسه ، وليس إلاَّ أن يتكلَّم ثم يوجز ، ويَبْلُغ بالكلام اليسير المعانىَ الكثيرة .

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابُه حوالَيْه ، وفى السِّماطَين بين يديه (١) ، إذ سقط على أَنْفِه ذُبَابٌ فأطال المُكْثَ ، ثم تحوَّلَ إلى مُؤْق عينِه (٢) ، فَرام الصَّبرَ فى سقوطه على المؤق ، وعلى عضهِّ ونفاذ خُرطومه ، كما رام من الصَّبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرِّك أرنبتَه (٣) أو يغضِّنَ وجهه ، أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذُّباب وشغَلَه ، وأوجعه وأحرقه ، وقصدَ إلى مكانٍ لا يحتمِلُ التغافل ، أطْبق جَفْنَه الأعلى فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن وَالَى (٤) بين الإطباق والفَتْح . فتنحَّى ريثما سكن جفنُه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشدَّ من مَرَّته الأولى ؛ فغمَسَ خُرطومَه فى مكانٍ كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتمالُه له أضعف ، وعَجْزُه عن الصبر فى الثانية أقوى ؛ فحرَّك أجفانَه وزاد فى شدة الحركة وفى فَتْح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحُّ عليه حتى استفرغ صبرَه وبلغ مجهودَه ، فلم يجدْ بُدًّا من أن يَذُبَّ عن عينيه بيده ، ففعَلَ وعيونُ القوم ترمُقه وكأنَّهم لا يرونه ، فتنحَّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطَرَف كُمِّه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أنَّ فعلَه كلَّه بعَينِ مَنْ حضَرَهُ من أُمنائه وجلسائه ، فلمَّا نظروا إليه قال :

---

(١) السماط : الصف .

(٢) مؤق العين : طرفها الداخل . واللحاظ : طرفها الخارج .

(٣) الأرنبة : طرف الأنف .

(٤) والى : تابع .

أشهد أنّ الذباب ألجُّ من الخُنفَساء ، وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله ؛ فما أكثر من أعجبَتْه نفسُه فأراد اللهُ عزَّ وجل أن يعَرِّفه من ضعفه ما كان مستورا ! وقد علمتُ أنّي عند الناس من أزمَتِ الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلِقه .

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .

٥٩

عود الحياة إلى الموتى

وفى الذِّبَّانِ طبعٌ كطبع الجِعلان ، فهو طبعٌ غريبٌ عجيب ، ولولا أنَّ العِيانَ قهَرَ أهلَه لكانوا خُلَقاءَ أن يدفعوا الخبرَ عنه . فإنَّ الجُعلَ إذا دُفن فى الورد مات فى العَين ، وفنيتْ حركاتُه كلُّها ، وعاد جامداً تارزاً (١) ، ولم يفصِلِ الناظرُ إليه بينه وبين الجُعَلِ الميّت ، ما أقامَ على تأمُّله ، فإذا أُعيدَ إلى الروث عادت إليه حركةُ الحياة من ساعته .

وجَرَّبتُ أنا مثلَ ذلك فى الخُنفساء ، فوجدتُ الأمرَ فيها قريباً من صفة الجعلَ . ولم يبلغ كلَّ ذلك إلاّ لقرابة ما بين الخنفساء والجعل .

ودخلت يوماً على ابن أبى كريمة ، وإذا هو قد أخرَجَ إجَّانةً (٢) كان فيها ماءٌ من غُسالة أوساخ الثِّياب ، وإذا ذِبّانٌ كثيرة قد تساقطن فيه من الليل فمَوَّتْن (٣) . هكذا كُنَّ فى رأْى العين . فغبَرْن كذلك عَشيَّتَهنَّ وليلتَهنّ ، والغَدَ إلى انتصاف النهار ، حتّى انتفخْنَ وعَفِنَّ واسترخَين ، وإذا ابنُ أبى كريمة قد أَعدَّ آجُرَّة جديدة ، وفُتَاتَ آجرٍّ جديد ، وإذا هو يأخذ الخَمسَ منهنَ والستّ ، ثم يضَعُهنَّ على ظهر الآجُرَّة الجديدة ، ويذُرُّ عليهنَّ

---

(١) التارز : اليابس الذى لا روح فيه .

(٢) الإجانة : وعاء يغسل فيه الثياب .

(٣) موتن : كثر فيهن الموت .

من دُقاقِ ذلك الآجُرّ الجديد المدقوق ، بقَدْر ما يغمرها ، فلا تلبث أن يراها قد تحرَّكت ، ثم مشَتْ ، ثم طارت . إلاّ أنَّه طيرانٌ ضعيف .

وكان ابن أبى كَريمة يقول : لا والله ، لا دفنتُ ميّتاً أبداً حتى يُنْتِن ! قلت : وكيف ذاك ؟ قال : إنَّ غلامى هذا نُصَيراً مات ، فأخّرتُ دفنَه لبعض الأمر ، فقدِم أخوه تلك الليلَة فقال : ما أظنُّ أخى مات ! ثم أخذ فتيلتين ضخمتين ، فروَّاهما دُهناً ثم أشعلَ فيهما النار ، ثمَّ أطفأهما وقرّبهما إلى منخريه ، فلم يلبَثْ أن تحرَّك . وها هو ذا قد تراه !

قلت له : إنَّ أصحابَ الحروب ، والذين يَغْسِلون الموتى ، والأطبّاء ، عندهم فى هذا دَلالات وعلامات ، فلا تحملْ على نفسك فى واحدٍ من أولئك إلاّ أن تستُرَه بالدفن حتّى يَجيِف .

والمجوسُ يقرِّبون الميِّت من أنف الكلب ، ويستدلُّون بذلك على أمره .

فعلمت أنّ الذى عاينّاه من الذِّبّان قد زاد فى عزمه .

٦٠

قصة الهارب من الذباب

وحدَّثنى الحسن بن إبراهيم العلوى قال :

مررتُ بخالى وإذا هو وحدَه يضحك ، فأنكرتُ ضحكَه لأنّى رأيتُه وحدَه ، وأنكرته لأنه كان رجلاً زِمِّيتاً رَكِيناً (١) قليلَ الضَّحك ، فسألتُه عن ذلك فقال :

أتانى فلانَ – يعنى شيخاً مدينيًّا – وهو مذعور ، فقلت له : ما وراءك ؟ قال : أنا والله هاربٌ من بيتى ! قلت : ولم ؟ قال : فى بيتى ذبابٌ أزرقُ ، كلَّما دخلتُ ثار فى وجهى ، وطار حولى ، وطَنَّ عند أذنى ، فإذا وجَدَ منّى غفلةً لم يخطىء مُؤقَ عينى (٢) . هذا والله دأبُه ودأبى دهراً معه ! قلتُ له : إنَّ شَبَه الذباب بالذباب ، كشبَه الغراب بالغراب ، فلعلَّ الذى آذاكَ اليوم أن يكون غيرَ الذى آذاك أمس ، ولعل الذى آذاك أمس غيرُ الذى آذاك أوّلَ من أمس . فقال : أُعتِقُ ما أملك إنْ لم أكن أعْرِفُه بعينه منذ خمسَ عشرةَ سنة !!

فهذا الذى أضحكنى .

---

(١) الزميت ككريم وكسكين كما ضبط هنا : العظيم الوقار . والركين : الرزين . انظر ص ٩٤

(٢) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

أعجوبة البصرة

وعندنا بالبصرة فى الذِّبَّان أُعجوبة ، لو كانت بالشَّامات (١) أو بمصر لأدخلوها فى باب الطِّلَّسْم (٢) ؛ وذلك أن التمرَ يكون مصبوباً فى بيادر التمر (٣) فى شِقّ البساتين ، فلا ترى على شئ منها ذبابةً لا فى اللَّيل ولا فى النّهار ، ولا فى البَرْدَين (٤) ، ولا فى أنصاف النهار .

نعم ، وتكون هناك المعاصر (٥) ، ولأصحاب المعاصر ظِلالٌ ، ومن شأن الذباب الفِرارُ من الشمس إلى الظلّ ، وإنّما تلك المعاصرُ بين تَمرةٍ ورُطَبة ، ودِبسٍ وثَجير (٦) ، ثمّ لا تكادُ ترى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، ولا فى وقت طلب الذِّبَّانِ الكِنَّ ، إلاَّ دونَ ما تراه فى المنزل الموصوف بقلّة الذبّان .

وهذا شئٌ يكون موجوداً فى جميع الشِّق (٧) الذى فيه البساتين ، فإنْ تحوَّلَ شئٌ من تمرِ تلك الناحيةِ إلى جميع ما يقابلُها فى نواحى البصرة ، غشِيَهُ من الذِّبَّان ما عسى ألاَّ يكون بأرض الهند أكثرُ منه .

---

(١) أى بلاد الشام .

(٢) الطلسم : ضرب من ضروب السحر .

(٣) البيدر : الجرن الذى توضع فيه الحبوب ونحوها .

(٤) البردان : الغداة والعشى .

(٥) معاصر التمر ، كانوا يعصرونه لاستخراج الدبس ، وهو عسل التمر .

(٦) الثجير : الثفل .

(٧) الشق : الناحية .

نوم عجيب لضروب من الحيوان

وأعجوبةٌ أخرى ، وهى عندى أعجبُ من كلِّ شئٍ صدَّرنا به جملَة القول فى الذباب .

فمن العجب أن يكون بعضُ الحيوان لا ينام ، كالصَّافر والتُّنَوِّط (١) فإنَّهما إذا كان الليلُ فإنَّ أحدَهما يتدلَّى من غُصْنِ الشجرة ويضمُّ عليه رجلَيه وينكِّس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتّى يبرُقَ النُّور . والآخر لا يزالُ يتنقَّل فى زوايا بيته ولا يأخذه القَرار ، خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك وقد نتفَ قبل ذلك ممّا على ظهور الأشجار مما يُشْبِهُ اللِّيفَ فنفشَه ، ثم فتَل منه حبلاً ، ثم عمِل منه كهيئة القُفَّة ، ثم جعله مُدَلًّى بذلك الحبل ، وعَقَده بطَرف غُصنٍ من تلك الأغصان ، إلاَّ أنَّ ذلك بترصيع ونسجٍ ومداخلةٍ عجيبة ، ثم يتّخذ عشَّة فيه ويأوى إليه مخافةً على نفسه .

والأعراب يزعُمون أن الذّئبَ شديدُ الاحتراس ، وأنه يُراوح بين عينيه فتكون واحدةٌ مطْبَقةً نائمة ، وتكون الأخرى مفتوحةً حارسة .

ولا يشُكُّون أنَّ الأرنبَ تنامَ مفتوحةَ العينَين .

وأما الدَّجاج والكلاب فإنَّما تعزُب (٢) عقولهما فى النوم ثم ترجع إليهما بمقدار رُجوعِ الأنفاس .

---

(١) الصافر : طائر من أنواع العصافير . والتنوط : طائر شبيه به .

(٢) تعزب : تبعد .

فأما الدَّجاج فإنها تفعل ذلك من الجُبن .

وأما الكلب فإنه يفعل ذلك من شدّة الاحتراس .

وجاءوا كلُّهم يُخبرون أن الغَرَانِيق [١] والكراكيَّ لا تنامُ أبداً إلاَّ فى أبعدِ المواضع من الناس وأحرَزِها [٢] من صغار سباع الأرض ، كالثعلب وابن آوى . وأنَّها لا تنامُ حتَّى تقلِّد أمرَها رئيساً وقائداً ، وحافظاً وحارساً ، وأن الرئيسَ إذا أعيا رَفع إحدى رجلَيه ؛ ليكون أيقظَ له .

---

(١) جمع غرنيق ، وهو طير مائى ، وكذلك الكركى .

(٢) أحرزها : أى أمنَعِها .

٦٣

النظَّام وعدم إيمانه بالطِّيَرة

وأخبرنى أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سيَّارٍ النظَّامُ قال :

جُعت حتّى أكَلْت الطِّين ، وما صِرْت إلى ذلك حتّى قلَّبت قَلْبى أتذكَّر : هل بها [١] رجلٌ أُصيبُ عنده غَداءً أو عَشاء ؟ فما قدرتُ عليه ، وكان علىّ جُبَّةٌ وقميصان ، فنزعتُ القميصَ الأسفَل فبعتُه بدريهماتٍ ، وقصدتُ إلى فُرضَة الأهواز [٢] أريدُ قصبةَ الأهواز ، وما أعرف بها أحداً . وما كان ذلك إلاّ شيئاً أخرجَه الضجَرُ وبعضُ التعرُّض ، فوافيتُ الفُرضةَ فلم أصِبْ فيها سفينة ؛ فتطيّرت من ذلك .

ثم إنِّى رأيت سفينةً فى صَدْرها خَرْقٌ وهَشْم فتطيَّرتُ من ذلك أيضاً ، وإذا فيها حَمولة [٣] فقلت للملاَّح : تحملنى ؟ قال : نعم . قلت : ما اسمك ؟ قال : داوداذْ – وهو بالفارسيّة الشيطان – فتطيَّرت من ذلك .

ثم ركبتُ معه تصكُّ الشَّمالُ وجهى [٤] وتُثير باللَّيل الصقيعَ على رأسى . فلمَّا قرُبْنا من الفُرضةِ صِحْت : يا حَمَّال ! ومعى لِحافٌ لى

---

(١) بها ، أى فى الدنيا ، أو فى الأرض .

(٢) الفُرضة : محطّ السفن .

(٣) الحُمولة : الأحمال .

(٤) تصكّ : تضرب . والشمال : الريح الشمالية .

سَمَلٌ [١] ، وَمَضْرَبَةٌ خَلَق [٢] ؛ وبعضُ ما لا بدَّ لمثلى منه ، فكان أول حمّالٍ أجابنى أعورَ ؛ فقلت لبقّارٍ كان واقفاً : بكم تُكرِى ثورَك [٣] هذا إلى الخان ؟ فلمَّا أدناه من متاعى إذا الثورُ أعضبُ القرن [٤] ، فازددْتُ طِيَرةً ؛ فقلت فى نفسى : الرجوعُ أسلَمُ لى ! ثم ذكرت حاجتى إلى أكْلِ الطِّين فقلت : ومَن لى بالموت ؟! فلما صِرت فى الخان وأنا جالسٌ فيه ومتاعى بين يدىَّ وأنا أقول : إنْ أنا خلَّفتُه فى الخان وليس عندهُ مَن يحفظه فُشَّ الباب [٥] وسُرِق ، وإن جلستُ أحفظه لم يكن لمجيئى إلى الأهواز وَجْه .

فبينا أنا جالسٌ سمعتُ قَرْعَ الباب ، قلتُ : مَن هذا عافاك الله تعالى ؟ قال : رجلٌ يريدك . قلت : ومَن أنا ؟ قال : أنت إبراهيم . قلت : ومَن إبراهيم ؟ قال : إبراهيم النظّام . قلت : هذا خَنّاقٌ ، أو عدوٌّ ، أو رسولُ سلطان !

ثم إنِّى تحامَلْتُ وفتحتُ الباب ، فقال : أرسلَنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول : نحن وإن اختلفْنا فى بعض المقالة فإنا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرِّيّة . وقد رأيتكَ حين مررتَ بى على حالٍ كرهتُها منك ، وما عرفتك حتى خبَّرَنى عنك بعضُ مَن كان معى ، وقال : ينبغى أن يكونَ قد نَزَعت بك حاجة [٦] ، فإن شئتَ فأقمْ بمكانك شهراً أو شهرين ،

---

(١) السَّمَل : البالى ، الخلق .

(٢) الخلق : البالية . ويراد بالمضربة الثوب المنسوج من خليط القطن والصوف .

(٣) تكرى : تؤجر .

(٤) أعضب القرن : مكسوره .

(٥) فش القفل : فتحه بدون مفتاح . عن كتاب شفاء الغليل .

(٦) نزعت به : حملته على الهجرة .

فعسى أن نبعثَ إليك ببعض ما يَكفيك زمناً من دَهْرِكَ ، وإن اشتهيتَ الرجوعَ فهذه ثلاثون ديناراً ، فخذْها وانصرِفْ ، وأنت أحَقُّ مَن عَذَر .

قال : فهجَمَ والله عليّ أمرٌ كان يَنقُضنِى [1] ؛ أمّا واحدةً فأنِّى لم أكن ملَكْتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً فى جميع دهرى .

والثانية : أنّه لم يَطُلْ مُقامى وغيبتى عن وطنى ، وعن أصحابى الذين هم على حالٍ أشْكَلَ بى [2] ، وأفهَمَ عَنِّى .

والثالثة : ما بَيَّن لى [3] من أنَّ الطِّيَرَةَ باطل . وذلك أنّه قد تتابَع علىَّ منها ضروب ، والواحدةُ منها كانت عِندهم مُعْطِبة [4]

(١) النقض : الهدم .
(٢) أشكلُ بى : أشبه بى وأمثل .
(٣) بين الشئُ : بان ووضح . وفى المثل : « قد بيّن الصبحُ لذى عينين » .
(٤) معطبة : مُهلكة .

٦٤

ما يُتفاءل به من الطير والنبات

والعامّة تتطيَّر من الغراب إذا صاح صيحةً واحدة ، فإذا ثنَّى تفاءلت به .

والبوم عند أهل الرَّىّ وأهل مَرْو يتُفاءل به ، وأهل البصرة يتطيَّرون منه . والعربىّ يتطيَّر من الخِلاف [1] ، والفارسىُّ يتفاءل إليه ، لأن اسمه بالفارسية « باذامك » أى يبقى ، وبالعربية : خِلاف ، والخلاف غير الوفاق .

والرَّيحان يُتفاءل به ؛ لأنّه مشتقٌّ من الرَّوح ، ويُتَطيَّر منه لأنّ طعمه مُرٌّ وإن كان فى العين والأنف مقبولا .

وقال شاعرٌ من المحْدَثين :

أهـدى له أحبابُـه أُترُجَّــةً ... فبكى وأشفقَ من عِيافة زاجرِ
متطيِّـراً مما أتـاهُ ، فطعمُـه ... لونانِ باطنُه خلافُ الظاهر

والفُرس تحبُّ الآسَ [2] وتكره الورد ، لأن الورد لا يدوم ، والآس دائم .

قال : وإذا صاح الغراب مرَّتين فهو شرٌّ ، وإذا صاح ثلاثَ مرّات فهو خير ، على قدر عدد الحروف .

---

(١) الخلاف : صنف من الصفصاف .

(٢) الآس : ضرب من الريحان يسمى بمصر « مرسين » .

الهدهد

وأما القول فى الهُدهُد فإنّ العربَ والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القُنزُعةَ التى على رأسه ثوابٌ من الله تعالى على ما كان من برِّه لأمّه ! لأنَّ أمَّه لما ماتت جَعلَ قبرَها على رأسه . فهذه القنزعة عِوَضٌ عن تلك الوَهْدة .

والهدهد طائر مُنتن الرِّيح والبَدن ، من جوهره وذاته ؛ فربَّ شيءٍ يكون منتناً من نفسه ، من غير عَرَضٍ يَعرِض له ، كالتُّيوس والحيّات وغير ذلك من أجناس الحيوان .

فإمّا الأعراب فيجعلون ذلك النَّتنَ شيئا خامَرَه (١) بسبب تلك الجيفة التى كانت مدفونة فى رأسه .

ويزعمون أنّ الهدهدَ هو الذى كان يدلُّ سليمانَ عليه السلامُ على مواضع المياه فى قُعور الأرَضينَ إذا أراد استنباطَ شيءٍ منها .

ويروُون أنَّ نَجْدةَ الحَرُورىَّ أو نافعَ بن الأزرق قال لابن عباس : إنك تقول : إنّ الهدهد إذا نَقَر الأرض عرف مسافةَ ما بينه وبين الماء ، والهدهد لا يُبصر الفخّ دُوَيْنَ التُّراب ، حتَّى إذا نقر التَّمْرةَ انضمَّ عليه الفخّ ! فقال ابن عباس : « إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصرُ ! » .

---

(١) خامرد : خالطه .

ومن أمثالهم : « إذا جاء الحَيْن [١] غَطَّى العَينَ » .

وابن عباسٍ ، إن كان قال ذلك فإنّما عَنَى هدهد سليمان عليه السلام بعينه ؛ فإنّ القول فيه خِلاف القول فى سائر الهداهد .

وقد قال صاحب المنطق [٢] وزعَم فى كتاب الحيوان ، أنَّ لكلِّ طائرٍ يعشِّش شَكلاً يتَّخذ عُشَّه منه ، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع ، وعلى قدر اختلاف صُوَر تلك القراميص والأفاحيص [٣] . وزعَمَ أنّ الهدهد مِن بينها يطلُب الزِّبل ، حتّى إذا وجدَه نَقلَ منه ، كما تنقُل الأَرَضةُ من التُّراب ، ويبنى به بيتاً كما تبنى الأَرَضة ، ويضع جزءاً على جزء ، فإذا طال مكثُه فى ذلك البيت ، وفيه أيضاً وُلد أو فى مثله ، وتربَّى ريشُه وبدنُه بتلك الرائحة ، فأخلِقْ به أيضاً أن يُورث ابنَه النَّتنَ الذى عَلِقَه ، كما أورثَ جدُّه أباه ، وكما أورثَه أبوه . قال : ولذلك يكون منتناً .

وهذا وجهُ أن كان معلوماً أنّه لا يتَّخذ عشَّه إلاَّ من الزِّبْل .

فأما ناسٌ كثير ، فيزعمون أنْ ربَّ بدن يكون طيِّبَ الرائحة ، كفأرة المسك التى ربَّما كانت فى البيوت . ومن ذلك ما يكون مُنْتِنَ البدن ، كالذى يُحكى عن الحيّات والأفاعى والثعابين ، ويُوجَد عليه التُّيوس .

---

(١) الحَيْن : الهلاك .

(٢) هو أرسطاطاليس .

(٣) القُرموص : العش يبيض فيه الحمام . والأفحوص : مبيض القطا والدَّجاج ، تفحصه برجليها وجناحيها .

من أعاجيب الخفاش

ومن أعاجيبه : أنه لا يطيرُ فى ضوء ولا ظُلْمة ، وهو طائرٌ ضعيفُ قُوَى البصر ، قليلُ شعاع العَيْن الفاصل من الناظر ، ولذلك لا يظهر فى الظُّلمة لأنَّها تكون غامرةً لضياء بصره ، غالبةً لمقدار قُوَى شعاعِ ناظره . ولا يظهر نهاراً لأنّ بصرَه لضَعْف ناظرِه يلتمع فى شدة بياض النَّهار ، ولأن الشيءَ المتلألىء ضارٌّ لعيون الموصوفين بحدّة البصر ، ولأنَّ شُعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه يكون رادعاً لشعاع ناظرِه ومفرِّقاً له ؛ فهو لا يبصر ليلاً ولا نهاراً . فلمَّا عَلمَ ذلك واحتاج إلى الكَسْب والطُّعْم [١] ، التَمَس الوقتَ الذى لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً ، وعالياً غالباً ؛ ولا من الضياء ما يكون مُعْشِياً [٢] رادعا ، ومفرِّقاً قامعاً . فالتمس ذلك فى وقت غروب القُرْص ، وبَقيَّة الشَّفَق ، لأنَّه وقتُ هَيْج البعوضِ وأشباهِ البعوض ، وارتفاعِها فى الهواء ، ووقتُ انتشارِها فى طلب أرزاقها ؛ فالبعوضُ يخرج للطُّعم ، وطُعمه دِماء الحيوان ، وتخرُج الخفافيشُ لطلب الطُّعم ، فيقع طالبُ رزقٍ على طالب رزق ، فيصير ذلك هو رِزْقَه .

وهذا مما جعل اللهُ فى الخفافيش من الأعاجيب .

---

(١) الطُّعم : الطعام .

(٢) العشى : ضعف البصر ليلا .

معارف فى الخفاش

قال معمرٌ أبو الأشعث : ربَّما أتأمت الخفافيش [١] ، فتحمل معها الولَدينِ جميعاً ، فإنْ عَظُما عاقَبَتْ بينهما .

والخفّاش من الطير ، وليس له مِنقار مخروط ، وله فمٌ فيما بين مناسر السباع وأفواه البوم . وفيه أسنانٌ حِداد صِلاب مرصوفة من أطراف الحنك إلى أصول الفكّ إلاّ ما كان فى نفس الخَطْم .

وإذا قبضَتْ على الفرخ وعضَّت عليه لتطير به ، عَرَفَتْ ذَرَبَ أسنانها [٢] فعرفَتْ أىَّ نوع ينبغى أن يكون ذلك العضّ ، فتجعله أزْماً [٣] ولا تجعله عضًّا ولا تَنْييباً ولا ضَغْما [٤] ، كما تفعل الهرَّة بولدها ، فإنَّها مع ذَرَب أنيابها ، وحدَّة أظفارها ودقّتها ، لا تَخدِش لها جلداً ، إلاّ أنّها تُمسكها ضرباً من الإمساك ، وتأزم عليها ضرباً من الأزم قد عَرَفَتْه .

ولكلِّ شئ حدٌّ به يصلح ، وبمجاوزتهِ والتَّقصيرِ دونه يفسُد .

وقد نرى الطائر يغوص فى الماء نهارَه ، ثم يخرجُ منه كالشَّعَرة سللتَها من العجين ، غيرَ مبتلِّ الرِّيش ، ولا لثِقِ الجناحين . ولو أنَّ أرفقَ النَّاسِ رفقًا ،

---

(١) أى ولدت توأمين فى بطن واحد .

(٢) الذرب : الحدة .

(٣) الأزم : القبض بجميع الفم .

(٤) التنييب : العض بالناب . والضغم : العض الشديد .

راهَنَ على أن يَغمِس طائراً منها فى الماء غمسةً ثم خلَّى سِرْبَه (١) ليكون هو الخارجَ منه ، لَخَرجَ وهو متعجِّن الريش ، مُفْسَد النظم ، منقوضُ التأليف ، ولكان أجودَ ما يكون طيراناً أن يكون كالجادف (٢) . فهذا أيضاً من أعاجيب الخفّاش .

ومن أعاجيبها : تركُها ذُرى الجبال وبسيطَ الفيافى ، وأقلابَ النَّخل (٣) ، وأعالى الأغصان ، ودغَل الغياض والرِّياض (٤) ، وصدوع الصخر ، وجزائرَ البحر ، ومجيئُها تطلب مَساكن الناس وقُربَهم ، ثم إذا صارت إلى بيوتهم وقُربهم ، قصدَتْ إلى أرفع مكانٍ وأحصنه ، وإلى أبعد المواضع من مواضع الاجتياز ، وأعراض الحوائج .

ثُمّ الخُفاش بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر ، حتّى يَجُوز فى ذلك العُقابَ والورَشانَ إلى النَّسر ، ويجوز حدَّ الفِيَلة والأُسْدِ وحمير الوحش إلى أعمار الحيّات .

ومن أعاجيب الخفافيش : أنَّ أبصارَها تصلُح على طول العمر ، ولها صبرٌ على طول فقد الطُّعم ، فيقال : إن اللواتى يظهرنَ فى القمر من الخفافيش المُسِنّات المعمَّرات ، وإنَّ أولادَهنّ إذا بلغْنَ لم تقو أبصارهن على ضياء القمر .

ومن أعاجيبها : أنّها تضخُم وتَجسُم وتقبل الشَّحمَ على الكِبَر وعلى السِّنّ .

* * *

(١) خلَّى سِربه ، أى تركه لطريقه ووجهه .

(٢) الجادف : الذى يطير وهو مقصوص الجناحين .

(٣) جمع قُلْب ، بالضم ، وهو السعف الذى يطلع من قلب النخلة .

(٤) الدغل : الشجر الملتف .

وأما قول النِّساء وأشباهِ النساء فى الخفافيش ، فإنّهم يزعمون أنّ الخفّاش إذا عضَّ الصبىِّ لم يَنْزِعْ سِنَّه من لحمه حتَّى يسمعَ نهيقَ حمارٍ وحشىّ . فما أنسَى فَزَعى من سِنِّ الخُفَّاش ووَحْشتى من قُربه ! إيماناً بذلك القول ، إلى أنْ بلغت .

وقال يحيى بن منصور فى هجاء بعض آل الصَّعِق :

يا ليتَنى والمُنَى ليسَتْ بنافعةٍ كيف اقتصاصك من ثأر الأحابيش[١]
أتَنكِحون مواليهمْ كما فعلُوا أم تُغمِضون كإغماض الخفافيشِ

وقال أبو الشمقمق ، وهو مَرْوان بن محمد :

أنـا بالأهـوازِ محزو نٌ وبالبَصْرة دارى
فى بنى سعدٍ وسعدٍ حيثُ أهلى وقرارى
صِرتُ كالخفّاش لا أُبـ صِرُ فى ضوء النَّهارِ

وقال الأخطل التغلبىّ :

وقد غَبَرَ العَجلانُ حِيناً إذا بكى على الزَّاد ألقته الوليدةُ فى الكِسْرِ[٢]
فيصبحُ كالخُفاش يَدلُكُ عينَه فقُبِّحَ من وجهٍ لئيم ومن حَجْرِ[٣]

* * *

---

(١) الاقتصاص : القصاص . والأحابيش : طائفة من قريش ، هم بنو المصطلق وبنو الهون ابن خزيمة .
(٢) الكسر ، بالكسر : جانب البيت .
(٣) الحجر ، بالفتح : محجر العين ، وهو ما دار بها من العظم .

وقالوا فى اللُّغز ، وهم يَعْنُونَ الخفُاش :

أَبَى شعراءُ الناس لا يُخبروننى وقد ذَهَبوا فى الشعر فى كلِّ مذهبِ
بجلدةِ إنسانٍ وصورة طائرٍ وأظفار يربوع وأنياب ثعلبِ

* * *

قال : والخفاش يأتى الرُّمَّانة وهى على شجرتها ، فينقُب عنها ، فيأكل كلَّ شيءٍ فيها حتّى لا يدعَ إلاَّ القشرَ وحدَه . وهم يَحفظون الرُّمّانَ من الخفافيش بكلِّ حيلة .

قال : ولحوم الخفافيش موافقة للشَّواهين والصُّقورة والبَوَازى ، ولكثيرٍ من جوارح الطَّير . وهى تَسمَن عنها ، وتصحُّ أبدانُها عليها . ولها فى ذلك عملٌ محمودٌ نافعٌ عظيمُ النَّفْع ، بيِّن الأثَر .

النمل

قد علمنا أنْ ليس للذَّرَّة [١] غَناء الفرس فى الحرب ، والدَّفعِ عن الحريم ، ولكنَّا إذا أردنا موضعَ العجب والتعجيب ، والتنبيه على التدبير ، ذكرنا الخسيسَ القليل ، والسَّخيف المَهِين ، فأريناك ما عنده من الحِسِّ اللَّطيف ، والتَّقدير الغريب ، ومن النظر فى العواقب ، ومشاكلِة الإنسان ومزاحمته .

والإنسانُ هو الذى سُخِّر له هذا الفلك بما يشتمل عليه .

وقد علمنا أن الذَّرَّةَ تدَّخِر للشِّتاء فى الصَّيف ، وتتقدّم فى حال المُهْلة ، ولا تُضيع أوقات إمكان الحزْم .

ثم يبلغ من تفقُّدها وحسن خُبْرِها [٢] والنظر فى عواقب أمرها ، أنها تخاف على الحبوب التى ادَّخرتها للشِّتاء فى الصيف ، أن تَعفن وتُسوِّس ، ويقبَلها بطنُ الأرض ، فتُخرجها إلى ظهرها لتيبِّسها وتعيد إليها جُفوفَها ، وليضربَها النَّسيم ويَنفِيَ عنها اللَّخَنَ والفساد .

ثم ربَّما كان – بل يكون أكثَرَ – مكانُها نديًّا ، وإن خافت أن تنبت نقرت موضعَ القِطْمير [٣] من وسَط الحبّة ، وتَعلم أنَّها من ذلك الموضع

---

(١) الذرة : واحدة الذر ، وهى صغار النمل .

(٢) الخبر ، بالضم : العلم بالشئ .

(٣) القطمير : أصله شق النواة ، يريد شق كل حبة .

تبتدىء وتنبُت وتنقلب ، فهى تَفْلِقُ الحبَّ كلَّه أنصافاً . فأما إذا كان الحَبُّ من حبّ الكُزبُرَة فلقتْه أرباعاً ، لأنّ أنصاف حبِّ الكزبرة ينبُت من بين جميع الحبوب . فهى على هذا الوجه مجاوِزةٌ لفطنة جميع الحيوان ، حتَّى ربَّما كانت فى ذلك أحزمَ من كثيرٍ من الناس .

ولها ، مع لطافة شخصها وخِفّة وزنها ، فى الشمِّ والاسترواح (٢) ، ما ليس لشىء .

وربَّما أكل الإنسانُ الجرادَ أو بعضَ ما يشبه الجراد ، فتسقُط من يده الواحدةُ أو صدرُ الواحدة ، وليس يرى بقُربِه ذَرّةً ، ولا له بالذَّر عهدٌ فى ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تُقبل ذرّةٌ قاصدةً إلى تلك الجرادة ، فتَرومها وتحاول قلبَها ونقلَها ، وسحبَها وجرَّها ، فإذا أعجَزْتها بعد أن بلغَتْ بها عُذراً مضَتْ إلى جُحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلَتْ ، وخلفها صُويحباتُها كالخَيط الأسود الممدود ، حتَّى يتعاونَّ عليها فيحملنها .

فأوّل ذلك صدقُ الشمّ لما لا يشمّه الإنسان الجائع . ثم بُعد الهمَّة والجراءةُ على محاولة نقل شىء فى وزن جسمها مائة مرة ، وأكثر من مائة مرّة .

وليس شىءٌ من الحيوان يقوى على حملِ ما يكون ضعفَ وزنه مراراً غيرها . وعلى أنَّها لا ترضى بأضعاف الأضعاف ، إلاّ بعد انقطاع الأنفاس .

---

(١) الاسترواح : التشمم .

٦٩

كلام النمل

فإن قلت : وما علَّمَ الرجلَ أنّ التى حاولت نقْلَ الجرادة فعجَزت ، هى التى أخبرت صُويحباتها من الذَّرّ ، وأنها كانت على مقدّمتهنّ ؟

قلنا : لطولِ التجربة ، ولأنّا لم نر ذَرّةً قطُّ حاولت نقل جرادةٍ فعجزتْ عنها ثم رأيناها راجعةً إلاّ رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنّا لا نفصل فى العين بينها وبين أخَواتها ؛ فإنّه ليس يقع فى القلب غيرُ الذى قلنا . وعلى أنّنا لم نر ذرّةً قطُّ حملتْ شيئاً أو مَضَتْ إلى جُحرها فارغةً ، فتلْقاها ذرّةٌ إلاّ واقَفَتْها ساعةً وخبَّرتْها بشىء . فدلَّ ذلك على أنّها فى رجوعها عن الجرادة ، إنّما كانت لأشباهها كالرائد لا يَكْذِب أهلَه .

ومن العجَب أنّك تنكر أنّها تُوحِى إلى أختها بشىءٍ والقرآنُ قد نطقَ بما هو أكثرُ من ذلك أضعافاً . وقال رؤبة بنُ العجّاج :

لو كنتُ علِّمتُ كلامَ الحُكْلِ (١)   علْمَ سليمانَ كلامَ النملِ

وقال الله عزّ وجلّ : ﴿ حتّى إذا أتَوْا على وادِى النَّمل قالت نملةٌ يأيُّها النَّمْلُ ادخُلوا مساكنَكم لا يَحطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وجُنودُه وهم لا يَشعُرون . فتبسَّمَ ضاحكاً مِن قولها وقال رَبِّ أوزِعْنى أنْ أشكُرَ نِعْمَتَكَ التِى أنعَمْتَ علىّ ﴾ .

---

(١) الحكل ، بالضم ، هو من الحيوان ما لا يسمع له صوت ، كالذر والنمل .

فقد أخبر القرآن أنَّها قد عَرَفت سليمانَ وأثبَتتْ عينَه ، وأنَّ علم منطقِها عندَه ، وأنَّها أمرتْ صويحباتِها بما هو أحزَمُ وأسلم ، ثم أخبر أنّها تعرف الجنود من غير الجنود ، وقد قالت : « وهم لا يشعرون » .

٧٠

أكل لحوم الكلاب والسنانير ونحوها

وقد يأكل أجْراءَ [١] الكلاب ناسٌ ، ويستطيبونها فيما يزعمون . ويقولون : إن جَرْوَ الكلب أسمنُ شيءٍ صغيرا ، فإذا شبَّ استحال لحْمُه ، كأنّه يشبّهه بفرخ الحمام ما دام فرخاً وناهضاً ، إلى أن يستحكم ويشتدّ .

وما أكثر مَن يأكل السنانير . والذين يأكلونها صنفان من الناس : أحدهما الفتى المغرور الذى يقال له : أنت مَسحُور ، ويقال له : من أكَل سنّوراً أسود بهيماً لم يعمل فيه السِّحر ، فيأكُله لذلك . فإذا أكله لهذه العلّة وقد غسَلَ ذلك وعَصَره ، أذهب الماءُ زُهُومتَه ، ولم يكن ذلك المخدوع بمستقذِرٍ ما استطابه . ولعلَّهُ أيضاً أن يكون عليه ضربٌ من الطعام فوق الذى هو فيه ، فإذا أكله على هذا الشرط ، ودبّر هذا التدبير ولم يُنكره ، عاودَه ، فإذا عاودَه صار ذلك ضَراوةً له [٢] .

والصِّنف الآخَر : أصحاب الحمام ، فما أكثر ما يَنصِبون المصايدَ للسنانير التى يُلَقَّونَ منها فى حَمامهم . وربّما صادف غيظُ أحدهم وحَنَقُه وغضبه عليه ، أن يكون السنّورُ مُفرِطَ السِّمَن ، فيدعَ قتله ويذبحه . فإذا فعل ذلك مرّة أو مرّتين صار ضَرَاوةً عليها .

---

(١) أجراء : جمع جرو ، وهو هنا ولد الكلب .

(٢) أى مضرّياً له ومُغْرِياً .

وقد يتقزَّز الرجلُ من أكل الضبِّ والورَل والأرنب ، فما هو إلاّ أنْ يأكله مرّةً لبعض التجربةِ ، أو لبعض الحاجة ، حتّى صار ذلك سبباً إلى أكلها ، حتّى يصير بهم الحالُ إلى أن يصيروا أرغبَ فيها من أهلها .

وها هنا قومٌ لا يأكلون الجراد الأعرابيَّ السمين ، ونحن لا نعرف طعاماً أطيبَ منه .

والأعراب إنما يأكلون الحيّاتِ على شبيهٍ بهذا الترتيب ، ولهذه العوارض .

وزعم بعضُ الأطبّاء والفلاسفة أنَّ الحيّات والأفاعىَ تؤكل نِيئةً ومطبوخة ، ومشويّة ، وأنها تغذو غذاءً حسناً .

وزعم أبو زيد أنّه دخل على رؤبة وعنده جِرذانٌ قد شواهُنَّ ، فإذا هو يأكلهنَّ ، فأنكر ذلك عليه ، فقال رؤبة : هنَّ خيرٌ من اليرابيع والضِّباب وأطيب ؛ لأنها عندكم تأكل الخُبْزَ والتَّمر وأشباهَ ذلك .

وكفاك بأكل الجرذان !

ولولا هَولُ الحيّاتِ فى الصدور من جهة السُّموم ، لكانت من جهة التقذُّر أسهل أمراً من الجرذان .

وناسٌ من السُّفالة (١) يأكلون الذِّبّان . وأهل خراسانَ يُعجَبون باتّخاذ البَزْماوَرد (٢) من فراخ الزَّنابير ، ويعافون أذنابَ الجراد الأعرابىّ السمين .

---

(١) السُّفالة ، بالضم : من بلاد الزنج فى شرق أفريقية .

(٢) البزماورد : طعام من البيض واللحم ، أو هو الرقاق الملفوف باللحم .

وليس بين ريح الجراد إذا كانت مشويّةً وبين ريح العقارب مشويّة فرق . والطعم تَبَعٌ للرائحة ، خبيثُها لخبيثها ، وطيِّبها لطيِّبها .

وقد زعم ناسٌ ممّن يأكلون العقارب مشويّةً ونِيئةً ، أنَّها كالجِرْذان السِّمان .

وكان الفضل بن يحيى يوجِّه خدمَهُ فى طلب فراخ الزَّنابير ليأكَلها . وفراخُها ضَرَبٌ من الذِّبّان .

٧١

الخنزير

أمَّا ضرره وإفساده ، فما ظنُّك بشيءٍ يُتَمنَّى له الأسد ؟! وذلك أن الخنازير إذا كانت بُقرب ضِياع قومٍ هلكت تلك الضياعُ ، وفسدت تلك الغَلاَّت . وربَّما طلب الخنزير بعضَ العروق المدفونة فى الأرض فيخرِّب مائةَ جريب (١) ، ونابُهُ ليس يغلبه مِعْول . فإذا اشتدَّ عليهم البلاءُ تمنَّوا أن يكون فى جَنْبتهم (٢) أسد . ولربّما صار فى ضياعهم الأسَدُ فلا يهَيجونه ولا يؤذونه . ولو ذهب إنسانٌ ليحفرَ له زُبيةً (٣) مَنعوه أشدَّ المنع ، إذْ كان ربَّما حَمَى جانبَهم من الخنازير فقط . فما ظنُّك بإفسادها ، وما ظنُّك ببهيمةٍ يُتَمنَّى أن يكون بدلَها أسد ؟! ثمَّ مع ذلك إذا اجتمعوا للخنازير بالسِّلاح ، وبالآلات والأدوات التى تُقتَل بها ، فربَّما قتل الرَّجلَ منهم ، أو عقَره العَقْرَ الذى لا يندمل ؛ لأنه لا يضرب بنابه شيئاً إلاّ قطعه كائناً ما كان . فلو قتلوا فى كلِّ يوم منها مائةً وقتلت فى كل يومٍ إنساناً واحداً لما كان فى ذلك عِوَض .

والخنازير تطلب العَذِرة ، وليست كالجَلاَّلة (٤) ؛ لأنها تطلُب أحرَّها وأرطبها وأنتنَها وأقربَها عهداً بالخروج . فهى فى القرى تعرفُ أوقاتَ الصُّبح

---

(١) الجريب : عشرة آلاف ذراع ، أو ثلاثة آلاف ذراع وستمائة ذراع .

(٢) الجنبة : الناحية .

(٣) الزبية : بالضم : حفرة يصاد بها الأسد .

(٤) الجلالة من الحيوان : التى تأكل الجلة والعذرة .

والفجر ، وقبل ذلك وبعده ، لبروز الناس للغائط ، فيعرف مَن كان فى بيته نائماً فى الأسحار ومع الصُّبح ، أنه قد أسحَرَ [١] وأصبح ، بأصواتها ومرورها ، ووقْع أرجلها فى تلك الغِيطان ، وتلك المُتَبَرَّزات . وبذلك ضربوا المثَلَ ببكور الخنزير ، كما ضربوا المثَلَ بحذَر الغراب ، وروَغان الثعلب .

على أن الثَّعلبَ ليس بأروغَ من الخنزير ، ولا أكدَّ للفارس ، ولا أشدَّ إتعاباً لصاحبه .

فأما قُبْح وجهه ، فلو أنَّ القُبحَ والإفلاس ، والغَدر والكذب ، تَجَسَّدت ثم تصوَّرت ، لما زادت على قُبح الخنزير . وكُلُّ ذلك بعضُ الأسباب التى مُسِخَ لها الإنسان خنزيراً .

وإن القِردَ لَسَمِجُ الوجه ، قبيحُ كلِّ شئ . وكفاكَ به أنّه لِلمثَلِ المضروب ، ولكنَّه فى وجهٍ آخرَ مليحٌ . فمِلحُه [٢] يعترض على قُبحه فيُمازجُه ويُصلح منه . والخنزير أقبح منه ؛ لأنه ضربٌ مصمَتٌ بَهيم ، فصار أسمجَ ببعيد .

وبابٌ آخر مما ذكر صاحب المنطق [٣] ، فزعمَ أنَّ من الخنازير ما له ظِلفٌ واحد ، وليس لشئ من ذوات الأنياب فى نابه من القوَّةِ والذَّرَب [٤] ما للخنزير الذَّكَر ، وللجمل والفهد والكلب .

قال : والإنسان يُلقى أسنانه ، وكذلك الحافر والخُفّ .

---

(١) أسحر : صار فى السحر ، وهو الوقت قبيل الصبح .
(٢) أى ملاحته وحسنه .
(٣) هو أرسطاليس .
(٤) الذرب : الحدة .

قال : والخنزير لا يُلقى أسنانَه ألبتّه .

ويقال : إنّ عبد الصمد بن عليّ لم يُثْغَرْ قطّ (١) ، وأنّه دخل قبرَه بأسنان الصِّبا .

* * *

قال : وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهر ، وأكثر ما تحمل عشرون خِنَّوْصاً (٢) . وإذا وضعت أجراءً كثيرةً لم تَقْوَ على رَضاعها وتربيتها .

---

(١) أى لم تسقط أسنانه . يقال ثُغِر بالبناء للمجهول ، وأثْغر بالبناء للفاعل .

(٢) الخنوص ، كسنور : ولد الخنزير .

٧٢

طريفـة

قال أبو الحسن : كان واحدٌ يَسْخَرُ بالناس ويَدَّعى أنه يَرْقِي من الضِّرس إذا ضَرَب على صاحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكى ضِرْسَه قال إذا رقاه : إياك أن تذكر إذا صرتَ إلى فِراشك القِرْد . فإنّك إن ذكرتَه بطلَتِ الرُّقية ! فكان إذا أوى إلى فراشه أوَّل شيء يَخطُر على باله ذِكْر القرد ، ويبيت على حاله من ذلك الوَجَع ، فيغدُو إلى الذى رقَاه فيقول له : كيف كنتَ البارحة ؟ فيقول : بِتُّ وَجِعاً ! فيقول : لعلك ذكرتَ القرد ! فيقول : نعم . فيقول : مِن ثَمَّ لم تنتفع بالرُّقْية !!

٧٣

أثر البِيئة

وقد رأينا العرب – وكانوا أعراباً – حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى . وترى طباع بلادِ الترك كيف تطبع الإبلَ والدوابَّ وجميعَ ماشيتهم من سَبُع وبهيمةٍ على طبائعهم . وترى جراد البقول والرياحين وعيدانَها خضراء ، وترى القملة فى رأس الأسود الشعر سوداءَ ، وتراها فى رأس الأبيض الشعر بيضاء ، وتراها فى رأس الأشمط شمطاء ، وفى لون الجمل الأورَقِ [١] . فإذا كانت فى رأس الخضيب [٢] بالحمرة تراها حمراء ، فإن نَصَل خضابُه صار فيها شُكلةٌ [٣] من بين بِيض وحُمرٍ .

وقد نرى حَرَّةَ بنى سُليمٍ [٤] ، وما اشتملت عليه من إنسانٍ وسبُعٍ ، وبهيمة ، وطائرٍ ، وحشرة ، فنراها كلَّها سَوداء .

---

(١) الأورق : ما فى لونه بياض إلى سواد .

(٢) الخضيب ، المخضوب : أى المصبوغ .

(٣) الشكلة : بياض يضرب إلى الحمرة .

(٤) الحرة : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار . وبنو سليم : قبيلة .

٧٤

القول فى الحيَّات

اللهمَّ جنِّبْنا التكلُّف ، وأعِذْنا من الخطَل ، واحمِنا من العُجْب بما يكون مِنّا والثِّقةِ بما عندنا ، واجعلْنا من المحسنين .

حدّثَنا أبو جعفرٍ المكفوفُ النحويُّ العنبرى ، وأخوه رَوحٌ الكاتب ، ورجالٌ من بنى العنبر ، أنَّ عندهم فى رمال بلعنبر حيّةً تصيد العصافيرَ وصغارَ الطَّير بأعجبِ صيد . زعموا أنَّها إذا انتصفَ النَّهارُ واشتدَّ الحرُّ فى رمال بَلْعَنبر ، وامتنعت الأرضُ على الحافى والمنتعل ، ورَمِض الجندُب (١) ، غمستْ هذه الحية ذنَبها فى الرَّمل ، ثم انتصبَتْ كأنَّها رمحٌ مركوز ، أو عُودٌ ثابت ، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادةُ ، فإذا رأى عُوداً قائماً وكَرِهَ الوقوعَ على الرَّمل لشدَّة حرِّه ، وقَعَ على رأس الحيّة ، على أنَّها عُود . فإذا وقَع على رأسها قبضَتْ عليه . فإن كان جرادةً أو جُعَلا (٢) أو بعضَ ما لا يُشبعها مثلُه ، ابتلعتْه وبقيت على انتصابها . وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يُشبعها مثلُه أكلتْه وانصرفت . وأنَّ ذلك دأبُها ما مَنَع الرملُ جانبَه فى الصَّيف والقيظ ، فى انتصاف النَّهار والهاجرة . وذلك أنَّ الطائر لا يشُكُّ أن

---

(١) الجندب : ضرب من الجراد صغير . ورمض : آلمه الرمض وأحرقه .

(٢) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفس .

الحيَّة عود ، وأنه سيقوم له مَقام الجِذْل للحِرباء (١) إلى أن يسكُن الحرُّ ووهَجُ الرمل .

وفى هذا الحديث من العجَب أن تكون هذه الحيةُ تهتدى لمثل هذه الحيلة . وفيه جهل الطائر بفرقِ ما بين الحيوانِ والعود . وفيه قلّة اكتراث الحيّة بالرمل الذى عاد كالجمر ، وصَلَح أن يكون مَلَّةً وموضعاً للخُبْزة (٢) . ثمّ أن يشتمل ذلك الرملُ على ثلث الحية ساعاتٍ من النهار والرملُ على هذه الصفة . فهذه أعجوبة من أعاجيب ما فى الحيات .

* * *

وزعمَ لى رجالٌ من الصَّقالبة خِصيانٌ وفحول ، أنّ الحية فى بلادهم تأتى البقرةَ المحفَّلة (٣) فتنطوى على فخذيها وركبتيها إلى عراقيبها ، ثم تُشخِص صدرَها نحو أخلاف ضَرعها حتّى تلتقمَ الخِلْف (٤) ، فلا تستطيع البقرةُ مع قوّتها أن تترمرم (٥) فلا تزال تَمَصُّ اللبنَ ، وكلَّما مَصّت استرخت ، فإذا كادت تتلَفُ أرسلتْها .

وزعموا أنَّ تلك البقرة إمّا أن تموت ، وإمّا أن يصيبَها فى ضرعها فسادٌ شديدٌ تعسُر مداواتُه .

* * *

(١) الجذل ، بالكسر : ما عظم من أصول الشجر .

(٢) الملة ، بالفتح : الرماد الحار . والخبزة ، بالضم : عجين يوضع فى الملة حتى ينضج .

(٣) المحفلة : التى لا يحلبها صاحبها أياما حتى يجتمع لبنها فى ضرعها .

(٤) الخلف ، بالكسر : حلمة الضرع .

(٥) تترمرم : تتحرك .

والحيّة تُعجَب باللبن . وإذا وجدت الأفاعى الإناء غير مخمَّر [١] كرعت فيه [٢] . وربَّما مجَّتْ فيه ما صار فى جوفها فيصيب شاربَ ذلك اللبن أذًى ومكروهٌ كثير .

ويقال إنَّ اللبنَ محتَضَر [٣] . فظنّ كثير من العلماء أنَّ المعنى فى اللَّبن إنّما رجعَ إلى الحيّات .

والحية تُعجَب باللُّفَّاح [٤] ، والبِطّيخ ، وبالْحُرف [٥] والخردل المرخوف [٦] ، وتكره ريح السَّذَاب والشِّيح ، كما تكره الوزَغُ ريحَ الزعفران .

---

(١) خمره تخميرا : غطاه .
(٢) كرع فى الماء أو فى الإناء : تناوله بفيه من موضعه .
(٣) محتضر : تحضره الجن فيما يزعمون .
(٤) اللفاح : نبت له ثمر فى حجم التفاح ، يسمى بالشام تفاح الجن .
(٥) الحرف ، بالضم ، هو حب الرشاد .
(٦) المرخوف : الذى وضع عليه الماء فاسترخى .

٧٥

قوّة بدن الحية

وليس فى الأرض شىءٌ جسمُه مثلُ جسم الحية إلاّ والحيةُ أقوى بدناً منه أضعافاً .

ومن قوَّتها أنَّها إذا أدخلَتْ رأسَها فى جُحرها أو فى صَدْعٍ [١] إلى صدرها ، لم يستطع أقوى الناس وهو قابضٌ على ذنَبها بكلتا يديه أن يُخرِجها ؛ لشدَّة اعتمادها وتعاوُنِ أجزائها . وليست بذات قوائمَ لها أظفارٌ أو مخالبُ ، أو أظلافٌ تُنْشِبها فى الأرض ، وتتشبّث بها ، وتعتمد عليها . وربَّما انقطعت فى يَدَىِ الجاذب لها ، مع أنها لَدْنَة [٢] مَلْساءُ عَلِكة [٣] ، فيحتاج الرفيق فى أمرها عند ذلك أن يرسلَها من يديه بعضَ الإرسال ، ثم يَنْشُطَها [٤] كالمختطِف والمختلِس . وربّما انقطع ذنبُها فى يد الجاذبِ لها .

---

(١) الصدع : الشق .

(٢) اللدنة : اللينة .

(٣) العلكة : الشديدة .

(٤) النشط : الاختلاس .

٧٦

ما تضئ عينه من الحيوان

وزعم محمدُ بن الجَهْم أنّ العيونَ التى تضئ بالليل كأنّها مصابيحُ : عُيونُ الأُسد ، والنُّمورِ ، والسنانير ، والأفاعى .

فبيْنا نحن عندُه إذ دخلَ عليه بَعضُ من يَجلب الأفاعىَ من سِجِستان ، ويَعمَل التِّرياقات (١) ، ويبيعها أحياءً ومقتولة ، فقال له : حدِّثهمْ بالذى حدَّثتَنى به من عين الأفعى . قال : نَعمْ .

كنتُ فى منزلى نائماً فى ظُلْمة ، وقد كنت جمعتُ رءوسَ أفاعٍ كُنّ عندى لأَرمىَ بها ، وأغفَلْتُ تحتَ السرير رأساً واحدا ، ففتحتُ عينى تجاه السّرير فى الظُّلمة فرأيتُ ضياءً إلاّ أنه ضئيل ضعيف رقيق ، فقلت : عَيْنُ غولٍ أو بعضِ أولادِ السَّعالِى (٢) ! وذهَبتْ نفسى فى ألوان من المعانى ؛ فقمتُ فقدَحتُ ناراً وأخذتُ المصباحَ معى ، ومضيت نحوَ السرير ، فلم أجدْ تحته إلا رأسَ أفعى ، فأطفأتُ السراج ونمت ، وفتحتُ عينى فإذا ذلك الضوءُ على حاله ؛ فنهضتُ فصنعتُ كصنيعى الأوّل ، حتّى فَعلتُ ذلك مرارا .

قال : فقلتُ آخر مرة : ما أرى شيئاً إلاّ رأسَ أَفعى ، فلو نَحَّيتُه .

---

(١) الترياق : دواء تعالج به السموم .

(٢) السعلاة : الغول .

فنحّيته وأطفأتُ السراج ، ثمّ رجَعت إلى منامى ، ففتحتُ عينى فلم أر الضوءَ . فعلمتُ أنه من عين الأفعى .

ثم سألت عن ذلك فإذا الأمر حقٌّ ، وإذا هو مشهورٌ فى أهل هذه الصِّناعة .

٧٧

موت الحيَّة وصَبرها

ويزعمون أنَّ الحيةَ لا تموت حتف أنفها ، وإنّما تموت بِعَرضٍ يَعرِضُ لها . ومع ذلك فإنّه ليس فى الحيوان شىءٌ هو أصبرُ على جوعٍ من حيّة ؛ لأنّها إن كانت شابةً فدخلَتْ فى حائطِ صخرٍ ، فتتبَّعوا موضعَ مدخلها بوتدٍ أو حجر ، ثم هدموا هذا الحائط ، وجدوها هناك منطويةً وهى حيَّة . فالشَّابَّةُ تُذْكَر بالصبر عند هذه العلّة . فإنْ هرِمتَ صغُرت فى بدنها ، وأقنَعَها النَّسيم ولم تشته الطُّعم . وقد قال الشاعر ، وهو جاهلى :

فابعثْ له من بينِ أعراض اللّمَمْ [١] لُميمَةً من حنَشٍ أعمى أصَمّْ
قد عاشَ حتّى هو لا يَمشى بدمّ فكلَّما أقصَدَ منه الجوعُ شَمّ [٢]

وهذا القول لهذا المعنى . وفى هذا الوجه يقول الشاعر :

داهية قد صغُرت من الكبر صِلُّ صفًا ما ينطوى من القِصرْ [٣]
طويلة الإطراق من غير خَفَرْ [٤] كأنما قد ذهبت بها الفكر
جاء بها الطُّوفان أيّامَ زَخَرْ [٥]

---

(١) اللّمم : بالتحريك : ما يلم بالإنسان من شدة .
(٢) أقصده : أصابه إصابة محققة . شم ، أى شم الهواء ليغتذى به .
(٣) الصّفا : الحجر الصلد الضخم لا ينبت شيئا .
(٤) الإطراق : إرخاء العينين والنظر بهما إلى الأرض .
(٥) زخر : كثر ماؤه وعظمت أمواجه .

٧٨

النمس والثعبان

ثم قد يزعمون بمصر أنّ دويْبَّةً يقال لها « النِّمْس » يتّخذُها الناطورُ (١) إذا اشتدّ خوفُه من الثعابين ؛ لأن هذه الدابّة تنقبض وتنضمُّ ، وتتضاءل وتستدقّ حتى كأنَّها قُدَيدةٌ (٢) أو قطعة حَبْل ، فإذا عضَّها الثعبان وانطوى عليها زفَرَتْ وأخذَتْ بِنَفسِها ، وزخَرَتْ جوفها فانتفخ (٣) ، فتفعل ذلك وقد انطوى عليها ، فتقطعه قِطَعاً من شدّة الزّخرة .

وهذا من أعجب الأحاديث .

---

(١) الناطور : حارس الكرم والنخل .

(٢) القديدة : مصغر القدة ، وهي السير من جلد غير مدبوغ .

(٣) زخرت : ملأت ، أراد ملأته هواء .

٧٩

الحيات المائية

والحيّاتُ المائية إما أن تكون برِّيَّةً أو جبليَّة ، فاكتسحتها السُّيولُ واحتملتْها فى كثيرٍ من أصناف الحشرات والدوابِّ والسِّباع ، فتوالدتْ تلك الحيّات وتلاقحتْ هناك .

وإما أن تكون كانت أمَّهاتُها وآباؤها فى حيات الماء .

وكيف دارت الأمور فإنَّ الحيّات فى أصل الطبع مائية . وهى تعيش فى الندى وفى الماء ، وفى البرّ وفى البحر ، وفى الصَّخر والرمل .

ومن طباعها أن ترقّ وتلطف على شكلين : أحدهما لطول العمر ، والآخر للبعد من الرِّيف . وعلى حسب ذلك تَعظُم فى المياه والغياض .

قال : وكلُّ شيءٍ فى الماء مما يعايش السمكَ ، مما أشبه الحيات ، كالمارماهى (١) والأنكليس (٢) فإنها كلَّها على ضربين : فأحدهما من أولاد الحيّات انقلبت بما عَرَض لها من طباع البلد والماء . والآخر من نسل سمكٍ وحيّات تلاقحت ؛ إذْ كان طباعُ السَّمَك قريباً من طباع تلك الحيات .

---

(١) المارماهى : ضرب من السمك الشبيه بالحيات . ولفظه فارسى .

(٢) الأنكليس : ضرب من حيات الماء ، ولفظه يونانى . وقد جعل الجاحظ هذا النوع مخالفاً لما قبله ، على حين يعدهما الدميرى وداود الأنطاكى نوعاً واحدا .

٨٠

بعض طبائع البلدان

ألاَ ترى أنّهم يزعمون أنّ من دخَل أرض « تُبَّتَ [١] » لم يزلْ ضاحكاً مسرورا من غير عَجَبٍ حتّى يخرجَ منها .

ومَن أقام بالموصل حولاً ثم تفقَّد قوّته وجد فيها فضلاً [٢] .

ومن أقام بالأهواز حولاً فتفقّد عقله ذو فِراسةٍ وجَدَ النُّقصان فيه بيِّنا .

كما يقال فى حُمَّى خَيْبَر ، وطِحال البحرين [٣] ، ودماميل الجزيرة ، وجَرَب الزنج . وقال الشماخ :

كأنَّ نَطاةَ خَيْبَرَ زوّدتْه ... بَكورَ الوِردِ رِيِّثةَ القُلوعِ [٤]

وقال أوس بن حَجَر :

كأنْ به إذ جئتَه خَيبريّةً ... يعودُ عليه وِرْدُها ومُلالُها [٥]

وقال آخر :

* كأنّ حُمَّى خيبرٍ تَمُلُّه *

---

(١) تبت : إقليم من أقاليم الصين .

(٢) أى زيادة .

(٣) يزعمون أن من سكن البحرين عظم طحاله .

(٤) زودته : أعطته زادا . بكور الورد ، يعنى حمى تباكر بوردها جسمه . ريثة القلوع : بطيئة الانكشاف .

(٥) الورد : اسم من أسماء الحمى . والملال بالضم : حرارة الحمى .

وكذلك القول فى وادى جُحْفة (١) وفى مَهْيَعة ، وفى أصول النخل حيث كان .

وقال عبد الله بن همّام السلولى فى دماميل الجزيرة :

أُتِيحَ له مِن شُرطة الحىِّ جَأْنَبٌ غليظ القُصَيْرَى لحمُه متكاوسُ (٢)
تراه إذا يمضى يَحِكُّ كأنما به من دماميل الجزيرة ناخسُ (٣)

فحدَّثنى أبو زُفَر الضِّرارى قال : ماتَ ضِرار بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدَّماميل . قلت : والله إنَّ هذا لعَجَب ! قال : إنَّما احتمَلها من الجزيرة .

وكذلك القول فى طواعين الشام . قال أحد بنى المغيرة (٤) ، فيمن مات منهم بطواعين الشام ، ومن مات منهم بطعن الرِّماح أيّامَ تلك المغازى :

مَن ينزل الشامَ ويعْرَسْ به (٥) فالشَّامُ إن لم يُفنِه كاذبُ
أفنَى بَنِي رَيْطَةَ فُرسانَهُم عشرينَ لم يُقْصَصْ لهم شاربُ
ومن بنى أعمامهم مِثلَهم لمثلِ هذا عجبَ العاجبُ
طعن وطاعونٌ مناياهُم ذلك ما خَطَّ لنا الكاتبُ

* * *

والعامّة تنشد :

من يَسكن البحرَينِ يعظُمَ طِحالُه ويُغبَطْ بما فى بطنه وهو جائعُ

---

(١) الجحفة : بين مكة والمدينة . وقد دعا رسول الله ﷺ أن تنقل حمى المدينة إلى الجحفة .

(٢) الجأنب : القصير . القصيرى : أعلى الأضلاع . المتكاوس : المتراكب المتراكم .

(٣) يحك ، من الحكك ، وهو مشية كمشية المرأة القصيرة إذا تحركت وهزت منكبيها .

(٤) هو المهاجر بن خالد بن الوَليد بن المغيرة ، المخزومى . الإصابة ٨٣٢٩ .

(٥) عرس به ، كفرح : لزمه .

ونظر دُكينٌ الراجز إلى أبى العباس محمد بن ذؤيبٍ الفُقيمىّ الراجز ، وهو غُلَيِّمٌ مصفرٌّ مطحول (١) ، وهو يَمتَح على بَكَرة (٢) ويرتجز ، فقال : من هذا العُمَانىّ ؟ فلزمتْه هذه النسبة .

وحدّثنى يوسفُ الزِّنجى ، أنّه لابدَّ لكلِّ مَن قدِم من شِقِّ العراق إلى بلاد الزِّنج ألاّ يزالَ جرِباً ما أقامَ بها . وإنْ أكثَرَ من شُرب نبيذها ، أو شرابِ النارَجيل (٣) ، طمَسَ الخُمَارُ على عقله ، حتّى لا يكونَ بينه وبين المعتوه إلاّ الشيء اليسير .

وحدَّثنى كم شئتَ (٤) من الغزاة ، أنَّ مَن أطالَ الصَّوم بالمَصِيصة فى أيام الصيف ، هاج به المِرَار . وأنّ كثيراً منهم قد جُنُّوا عن ذلك الاحتراق .

فأمّا قصبةُ الأهواز فإنَّها قلبت كلَّ مَن نزلَها من بنى هاشم إلى كثيرٍ من طباعهم وشمائلهم . ولابدَّ للهاشمىّ ، قبيحَ الوجه كان أو حسناً ، دميماً كان أو بارعاً رائعا ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائعُ يَبِينُ بها من جميع قريشٍ وجميع العرب ، فلقد كادت البلدةُ أن تَنقُلَ ذلك فتُبدِّلَه . ولقد تخيَّفَتْه (٥) وأدخلت الضَّيمَ عليه ، وبيَّنَتْ أثرَها فيه ، فما ظنُّك بصنيعها فى سائر الأجناس .

ولفساد عقولهم ، ولؤم طبع بلادهم ، لا تَراهم مع تلك الأموال الكثيرة والضِّياع الفاشية ، يحبُّون من البنينَ والبناتِ ما يحبُّه أوساطُ أهل

---

(١) غليم : تصغير غلام . المطحول : الذى يشكو طحاله .

(٢) البكرة : خشبة مستديرة فى وسطها محز يجرى عليه حبل الدلو .

(٣) النارجيل : جوز الهند .

(٤) كم شئت ، أى كثير .

(٥) تخيفته وتخوفته : تنقصته .

الأمصار على الثَّروة واليسار ، وإنْ طالَ ذلك . والمال مَنْبَهةٌ كما تعلمون [١] .

وقد يكتسب الرجلُ من غيرهم المُويلَ اليسير ، فلا يرضَى لولده حتَّى يفرِضَ له المؤدِّبين ، ولا يرضَى لنسائه مثلَ الذى كان يرضاه قبل ذلك .

وليس فى الأرض صناعة مذكورة ولا أدب شريف ، ولا أدب محمود ، لهم فى شيءٍ منه نصيبٌ وإن خَسَّ . ولم أرَ بها وجنةً حمراء لصبىٍّ ولا صبيَّة ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك . وهى قتَّالةٌ للغرباء .

وعلى أنّ حُمَّاها خاصَّةً ليست للغريب بأسرعَ منها إلى القريب . ووباؤها وحُمَّاها ، فى وقت انكشاف الوباءِ ونُزوع الحمى عن جميع البُلدان .

وكلُّ محمومٍ فى الأرضِ فإن حُمَّاه لا تنزِع عنه ولا تفارقه وفى بدنه منها بقية ، فإذا نزعَتْ عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءةَ ، إلى أن يعود إلى الخلط ، وأن يجمع فى جوفه الفساد . وليست كذلك الأهواز ؛ لأنها تعاود مَن نَزعَتْ عنه من غير حَدَثٍ ، كما تعاود أصحابَ الحدث ؛ لأنهم ليسوا يؤتَونَ من قِبَل النَّهمَ ، ومن قِبَل الخلط والإكثار ، وإنّما يُؤتَونَ من عَين البلدة .

وكذلك جمعتْ سُوق الأهواز الأفاعىَ فى جبلها الطَّاعِنِ فى منازلها ، المطلِّ عليها ، والجرَّاراتِ [٢] فى بيوتها ومقابرها ومنابرها . ولو كان فى العالَم شيءٌ هو شرٌّ من الأفعى والجرَّارة ، لما قصَّرت قَصَبةُ الأهواز عن توليده وتلقيحه .

---

(١) منبهة : يورث النباهة فى الذكر ، وهى ضد الخمول .

(٢) الجرارات : عقارب صفر صغيرة ، سميت جرارة لجرها ذنبها . وهى من أخبث العقارب وأقتلها لمن تلدغه .

وبَلِيَّتُها : أنَّها من ورائها سِباخٌ [١] ومَناقعُ مياه غليظة ، وفيها أنهارٌ تشقُّها مَسايلُ كُنُفهم ، ومياه أمطارهم ومُتوضَّآتهم ، فإذا طلعت الشمسُ فطال مُقامها ، وطالت مقابلتُها لذلك الجبَل ، قَبِل بالصَّخريّة التى فيه تلك الحَرَاراتِ،فإذا امتلات يبُساً وحرارة وعادت جمرةً واحدةً ، قَذَفت ما قبلت من ذلك عليهم .

وقد تُحدِث تلك السِّباخ وتلك الأنهارُ بخاراً فاسداً ، فإذا التقى عليهم ما تُحدث السباخ وما قذَفه ذلك الجبل ، فسَدَ الهواء ، وبفساد الهواء يفسُد كلُّ شيءٍ يشتملُ عليه ذلك الهواء .

وحدَّثنى إبراهيم بن عباس بن محمد بن منصور ، عن مَشْيخةٍ [٢] من أهل الأهواز ، عن القوابل [٣] أنَّهُنَّ ربَّما قَبِلنَ المولود ، فيجِدنَهُ فى تلك الساعة محموماً ، يَعرِفْن ذلك ويتحدَّثن به .

---

(١) السباخ : جمع سبخة ، بالتحريك ، وهى الأرض تعلوها ملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر .

(٢) المشيخة : الشيوخ .

(٣) جمع قابلة ، وهى التى تتلقى الولد عند خروجه .

٨١

تِنِّين أنطاكية

ومما عظَّمها وزادَ فى فزع النّاسِ منها (١) الذى يرويه أهلُ الشام ، وأهل البحرَينِ ، وأهل أنطاكِية .

وذلك أنّى رأيت الثلثَ الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظَهر جدَّةً من الثُّلثين الأسفلين ، فقلت لهم : ما بال هذا الثُّلثِ الأعلَى أجدَّ وأطرى (٢) ؟ قالوا : لأنّ تِنّيناً تَرفَّع (٣) من بحرِنا هذا ، فكان لا يمرُّ بشئ إلاّ أهلكَه ، فمرَّ على المدينة فى الهواء ، محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هى عليه ، فضربَه بذنبه ضربةً حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار . فأعادوه بعد ذلك ، ولذلك اختلفَتْ فى المنظر .

ولم يزلْ أهلُ البقاع (٤) يتدافعون أمر التّنّين . ومن العجب أنّك تكون فى مجلسٍ وفيه عشرون رجلا ، فيجرى ذكر التّنّين فينكرهُ بعضهم ، وأصحاب التثبيت يدَّعون العِيان ، والموضعُ قريب ، ومَن يعاينُه كثير . وهذا اختلاف شديد .

---

(١) أى من الحية .

(٢) من الطراوة ، وهى الغضاضة والحداثة .

(٣) أى ارتفع .

(٤) البقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق .

٨٢

الحية ذات الرأسين

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّه قد ظهرت حيّةٌ لها رأسان . فسألت أعرابيًّا عن ذلك ، فزعم أنّ ذلك حقّ . فقلت له : فمن أىِّ جهةِ الرأسينِ تسعى ، ومن أيِّهما تأكل وتعَضّ ؟ فقال : فأما السَّعى فلا تَسعَى ، ولكنَّها تسعى إلى حاجتها بالتقلُّب ، كما يتقلَّب الصِّبيان على الرمل . وأما الأكل فإنّها تتعشّى بفمٍ وتتغدّى بفم . وأمَّا العضّ فإنَّها تعَضُّ برأسيها معا !!

فإذا به أكذبُ البريّة !

وهذه الأحاديث كلُّها ممّا يزيد فى الرُّعب منها وفى تهويل أمرها .

ومثل شأن التنِّين مثل أمرِ فُرانق الأسد (١) ؛ فإنَّ ذِكره يجرى فى المجلس فيقول بعضهم : أنا رأيته وسمعته !

وربَّما زاد فى الرُّعب منها والاستهالةِ لمنظرها ، قولُ جميع المحدِّثين : إنّ من أعظم ما خلق الله الحَيَّةَ والسَّرطانَ والسَّمك .

---

(١) هو دابة شبيهة بابن آوى ، يزعمون أنها تمشى قدام الأسد لتنذر الناس به .

٨٣

روعة جلد الحية

ولا ثوبَ ، ولا جَناحَ ، ولا سِتْرَ عنكبوتٍ ، إلاَّ وقشرُ الحيّة أحسَنُ منه وأرقُّ ، وأخفُّ وأنعم ، وأعجبُ صنعةً وتركيبا . ولذلك وصَف كُثيِّرٌ قميصَ مَلِكٍ ، فشبَّهه بسَلخ الحية حيث يقول :

إذا ما أفاد المالَ أودَى بفضلِه ... حقوقٌ فكُرْهُ العاذلات يوافقُه
يجرِّر سِربالاً عليه كأنّه ... سَبىءٌ لَهَزْلَى لم تُقطَّع شرانقُه (١)

والسَّبىء : السَّلخ والجلد . قال الشاعر :

* وقد نَصَل الأظفارُ وانسبأ الجِلدُ (٢) *

---

(١) الهزلى : الحيات . والشرانق : سلخ الحية إذا ألقته .
(٢) نصلت أظفاره : خرجت .

٨٤

الرُّقْية والعزيمة

والرُّقية تكون على ضروب : فمنها الذى يدَّعيه الحوَّاءُ والرَّقّاء ، وذلك يُشَبَّهُ بالذى يدَّعى ناسٌ من العزائم على الشيطان والجنّ ؛ وذلك أنّهم يزعمون أنّ فى تلك الرُّقية عزيمةً لا يمتنع منها الشيطان فكيف العامر (١) ؟! وأنَّ العامر إذا سُئل بها أجاب ، فيكونُ هو الذى يتولّى إخراج الحياتِ من الصَّخر .

فإن كان الأمر على ما قالوا فما ينبغى أن يكون بين خروج الأفاعى الصُّمِّ وغيرها فَرق ، إذا كانت العزائم والرُّقَى ليس شيئاً يعمل فى نَفْس الحية ، وإنما هو شئٌ يعمل فى الذى يُخرج الحيَّة . وإذا كان ذلك كذلك فالسَّميع والأصمُّ فيه سواء .

وكذلك يقولون فى التَّحبيب والتَّبغيض ، وفى النُّشْرة (٢) وحلِّ العُقدة ، وفى التعقيد والتَّحليل .

ويزعمون أنَّ الجنَّ لا تجيبَ صاحبَ العزيمة حتّى يتوحَّش ويأتىَ الخراباتِ والبرارىَّ ولا يأنسَ بالناس ، ويتشبَّه بالجنّ ، ويغتسلَ بالماء

---

(١) العامر : ما يسكن بيوت الناس ويعمرها من الجن ، فيما يزعمون .

(٢) النشرة : رقية يعالج بها المجنون والمريض .

القَرَاح (١) ، ويتبخَّرَ باللُّبان الذكر ، ويراعىَ المشترِىَ (٢) . فإذا دقَّ ولطف ، وتوحَّشَ وعزَم ، أجابته الجنُّ . وذلك بعد أن يكون بدنُه يصلُح هيكلاً لها ، وحتّى يَلَذَّ دخولَه وادىَ منازلها ، وألاّ يكرَه ملابستَه والكونَ فيه . فإنْ هو ألحَّ عليها بالعزائم ، ولم يأخذ لذلك أهبتَه ، خَبلَتْه ، وربّما قتلتْه ؛ لأنها تظنُّ أنّه متى توحَّش لها واحتمى وتنظَّف ، فقد فرغ . وهى لا تجيب بذلك فقَطْ (٣) حتّى يكونَ المعزِّم مشاكلاً لها فى الطِّباع .

فيزعمون أنَّ الحياتِ إنَّما تُخرج إخراجاً ، وأن الذى يُخرجها هو الذى يُخرج سمومَها من أجسادِ الناس إذا عزَم عليها .

والرُّقية الأخرى بما يُعرَف من التعويذ . قال أبو عبيدة : سمعت أعرابيًّا يقول : قد جاء أحدكم يستَرْقيكم فارقُوه . قال : فعوَّذه ببعض العوائذ .

والوجه الآخر مشتقٌّ من هذا ومحمولٌ عليه ، كالرجل يقول : ما زال فلانٌ يَرقِى فلاناً حتَّى لانَ وأجابَ .

---

(١) القراح ، كسحاب : الخالص لا يشوبه شئ .

(٢) المشترى : كوكب تنسب إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة .

(٣) أى لا تجيب بالعزيمة فقط ، بل لابد لها مع ذلك من أن يشاركها المعزم فى طباعها .

٨٥

تأثير الأصوات

وأمر الصَّوت عجيب ، وتصرُّفه فى الوجوه عَجَب .

فمن ذلك أنَّ منه ما يقتل كصوت الصَّاعقة ، ومنه ما يسرُّ النفوس حتّى يُفرِطَ عليها السرورُ فتقلَقَ حتّى ترقُص ، وحتَّى ربّما رمَى الرجلُ بنفسه من حالِق (١) ، وذلك مثل هذه الأغانى المطْرِبة . ومن ذلك ما يُكمِد (٢) ، ومن ذلك ما يُزيلُ العقلَ حتَّى يُغْشَى على صاحبه ، كنحو هذه الأصوات الشجيّة والقراءات الملحَّنة . وليس يعتريهم ذلك من قِبَلِ المعانى ؛ لأنَّهم فى كثيرٍ من ذلك لا يفهمون معانىَ كلامهم .

وقد بكى ما سَرْجَوَيهِ (٣) من قراءة أبى الخَوخ ، فقيل له : كيف بكيتَ من كتاب الله ولا تصدِّق به ؟ قال : إنّما أبكانى الشَّجَا (٤) !

---

(١) من حالق : من مكان شاهق مرتفع .

(٢) يكمد : يحزن . والكمد : الحزن الشديد .

(٣) ماسرجويه : طبيب يهودى ، وكان أحد المترجمين من السريانية إلى العربية .

(٤) الشجا : الطرب .

أثر الأصوات فى الحيوان

والدوابُّ تصرُّ آذانها (١) إذا غنَّى المُكارِى . والإبل تصرُّ آذانَها إذا حدا فى آثارها الحادى ، وتزداد نشاطا ، وتزيد فى مشيها . ويجمع بها الصيّادونَ السمك فى حظائرهم التى يتّخذونها له . وذلك أنّهم يضربون بعصّى معهم ويُعَطْعِطون (٢) ، فتُقبِل أجناسُ السمك شاخصةَ الأبصار ، مُصغيةً إلى تلك الأصوات ، حتّى تدخُلَ فى الحظيرة . ويُضْرَب بالطِّسَاس (٣) للطَّير وتُصاد بها . ويُضْرَب بالطِّساس للأُسْد وقد أقبلَتْ ، فترُوعها تلك الأصوات .

وقال صاحب المنطق : الأيائل تُصاد بالصَّفير والغِناء . وهى لا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذقِ الصَّوت ، فيَشْغَلونها بذلك ويأتُون مِن خَلْفها ، فإذا رأوها مسترخيَةَ الآذانِ وثَبوا عليها ، وإن كانت قائمة الأُذنين فليس إليها سبيل .

والصَّفير تُسقَى به الدوابُّ الماء ، وتنفَّر به الطَّير عن البذور .

وزعمَ صاحبُ المنطق أنَّ الرعدَ الشديدَ إذا وافق سباحةَ السمك فى

---

(١) تصر آذانها : تنصبها للسماع .

(٢) العطعطة : تتابع الأصوات واختلاطها .

(٣) الطساس : جمع طَسّ ، وهو الطَّست .

أعلى الماء رَمت ببيضها قبل انتهاء الأجل . وربما تمَّ الأجل فتسمع الرعدَ الشديد ، فيتعضَّل (١) عليها أيّاما بعدَ الوقت .

* * *

وقال جعفر بن سعيد : سأل كسرى عن الكمأة فقيل له : لا تكون بالمطر دون الرَّعد ، ولا بالرَّعد دون المطر . قال : فقال كسرى : رشُّوا بالماء واضربوا بالطُّبول !

وكان من جعفر على التمليح (٢) . وقد علم جعفرٌ أن كسرى لا يجهل هذا المقدار .

فالحية واحدةٌ من جميع أجناس الحيوان الذى للصَّوت فى طبعه عمل . فإذا دنا الحوّاء وصفَّق بيديه ، وتكلَّمَ رافعاً صوتَه حتى يزيِّد ، خرجَ إليه كلُّ شىءٍ كان فى الجُحر ، فلا يشكُّ من لا عِلَم له أنَّ الحيَّة خرجَتْ من جهة الطاعةِ وخوفِ المعصية ، وأنَّ العامر أخرجَها تعظيماً للعزيمة ، ولأنَّ المعتزِم مُطاعٌ فى العُمّار .

والعامّة أسرع شىءٍ إلى التصديق .

---

(١) أى يعسر خروجه .

(٢) التمليح : أن يأتى بشىء مليح .

٨٧

تعليق الحلى والخلاخيل على اللديغ

وكانوا يرون أنَّ تعليقَ الحَلى ، وخَشْخَشةَ الخلاخيل على السليم (١) مما لا يُفِيق ولا يَبْرَأُ إلا به .

وقال زيد الخَيْل :

أَيْمٌ يكون النَّعْل منه ضجيعَه كما عُلِّقَتْ فوق السَّليمِ الخلاخلُ (٢)

وقال الذُّبيانىّ :

فبتُّ كأنى ساوَرَتْنِى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُّم ناقع (٣)
يُسهَّد من لَيل التِّمام (٤) سليمُها لَحلْيِ النِّساء فى يَديهِ قعاقعُ

---

(١) السليم : اللديغ ، سمى بذلك تفاؤلا .

(٢) الأيم : الحية .

(٣) ساورته : واثبته . الرقش : جمع أرقش ورقشاء من الحيات ، وهو المنقَّط بسواد وبياض .

(٤) ليل التمام : أطول ليلة فى السنة ، أو كل ليلة مؤرِّقة .

٨٨

قصة امرأة لدغتها حية

جُوَيبر بن إسماعيل عن عمه قال :

حَججتُ فإنّا لفى وقْعةٍ [١] مع قومٍ نزلوا منزلَنا ، ومَعَنا امرأة ، فنامت فانتبهَتْ وحيَّةٌ منطوية عليها ، قد جمَعتْ رأسَها مع ذَنَبها بين ثديَيْها ، فهالها ذلك وأزعَجَنا ، فلم تزل منطويةً عليها لا تضرُّها بشئ ، حتّى دخلنا أنصابَ الحَرَم [٢] فانسابت فدخلت مكّة ، فقضينا نُسكَنا وانصرفْنا ، حتى إذا كُنّا بالمكان الذى انطوت عليها فيه الحية – وهو المنزل الذى نزلناه – نزلَتْ فنامت ، واستيقَظتْ فإذا الحيّةُ منطوية عليها ، ثم صفَرت الحيّةُ فإذا الوادى يَسيل حيّاتٍ عليها ، فنهشتْها حتّى نَقَتْ عظامَها [٣] ، فقلت لجارية كانت لها : ويحكِ أخبرينا عن هذه المرأة . قالت : بغَتْ ثلاثَ مرّات ، كلَّ مرّةٍ تأتى بولد ، فإذا وضعته سجَرت التنُّورَ ، ثمَّ ألقَتْه فيه !

---

(١) الوقعة : النومة فى آخر الليل .
(٢) أنصاب الحرم : حدوده .
(٣) نقى العظم نَقْيا : استخرج نِقْيه . والنقى ، بالكسر : مخ العظام .

٨٩

جملة القول فى الظليم

فمما فيه من الأعاجيب أنه يغتذى الصَّخرَ ويبتلعُ الحجارة ، ويَعمِدُ إلى المَرْو ، والمروُ من الحجارة التى تُوصَف بالمَلاَسة ، ويبتلع الحصى ، والحصى أصْلَب من الصخر ، ثم يُمِيعه [١] ويُذيبه فى قَانِصتَه حتّى يجعلَه كالماء الجارى ، ويَقصِد إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهَضْمِه ، وأنه له غِذاء وقِوَام .

وفى ذلك أعجوبتان : إحداهما التغذّى بما لا يُتغَذَّى به ، والأخرى : استمراؤه وهَضْمُه للشىء الذى لو ألقِىَ فى شىء ثم طبخ أبداً ما انحلَّ ولا لانَ . والحجارةُ هو المثل المضروب فى الشدة . قال الشاعر :

* حتّى يلينَ لِضِرْسِ الماضغ الحجرُ *

وقال آخر :

ما أطيبَ العيشَ لو أنَّ الفتى حجرٌ   تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ [٢]

ووصف الله قلوبَ قومٍ بالشدة والقسوة فقال : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ . وقال فى التشديد : ﴿ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ، لأنه حين حَذَّرَ النَّاسَ أعلمهم أنه يُلقى العُصاةَ فى نارٍ تأكل الحجارة .

---

(١) الإماعة : الإسالة والإذابة .

(٢) الملموم : المجتمع الشديد .

ومن الحجارة ما يتَّخذه الصَّفَّارونَ عَلاَةً [١] ، دونَ الحديد ، لأنّه أصبرُ على دقٍّ عِظام المطارق والفِطِّيسات [٢] .

فجوفُ النَّعامة يذيب هذا الجوهرَ الذى هذه صفتُه .

---

(١) الصَّفَّار : من يعمل الصُّفر ، وهو النحاس الأصفر . والعلاة : السندان الذى يطرق عليه الحديد .

(٢) الفِطِّيس : المِطرقة العظيمة .

٩٠

القول فى النيران وأقسامها

ونحن ذاكرون جُملاً من القول فى النيران وأجناسها ومواضعها ، وأىّ شيء منها يضاف إلى العَجَم ، وأىّ شيء منها يضاف إلى العرب . ونُخبرُ عن نيران الديانات وغير الديانات ؛ وعمَّن عظَّمها وعمَّن استهان بها ، وعمَّن أفرَط فى تعظيمها حتَّى عبدَها ، ونخبِرُ عن المواضع التى عُظِّم فيها من شأن النار .

فمن مواضعها التى عُظِّمتْ بها أن الله عزّ وجلّ جعلَها لبَني إسرائيل فى موضع امتحانٍ إخلاصهم ، وتعرُّف صِدق نيَّاتهم ، فكانوا يتقرَّبون بالقُرْبَان ؛ فَمن كان منهم مخلصاً نزلت نارٌ من قِبَل السماء حتّى تُحيطَ به فتأكله ، فإذا فعلَتْ ذلك كان صاحبُ القربان مخلِصاً فى تقرُّبه . ومتى لم يَرَوها وبقىَ القُربان على حاله قضَوْا بأنْ كان مَدْخُولَ القلب [1] فاسدَ النية . ولذلك قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيْنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ .

والدليل على أنَّ ذلك قد كان معلوماً قولُ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ ﴾ .

ثم إن الله سترَ على عباده ، وجعل بيانَ ذلك فى الآخرة ، وكان ذلك

---

(١) المدخول : الذى به دَخَل ، أى فساد فى عقله .

التدبيرُ مصلحةَ ذلك الزّمانِ ، ووَفْقَ طبائعهم وعِلَلهم . وقد كان القوم من المعانَدة والغباوة على مقدارٍ لم يكن لينجَع فيهم ويكمُلَ لمصلحتهم إلاَّ ما كان فى هذا الوزن .

فهذا بابٌ من عِظَم شأن النّار فى صدور النّاس .

ومما زاد فى تعظيم شأن النّار فى صدور الناس قولُ الله عزّ وجل : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسٰى ۞ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكثُوا إِنّى آنَسْتُ (١) نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۞ فَلمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسٰى ۞ إنى أَنَا رَبُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِى الْمُقَدَّسِ طُوًى (٢) ﴾ .

وقال عزّ وجل : ﴿ إذْ قَالَ مُوسٰى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ (٢) نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وكان ذلك مما زاد فى قَدْرِ النار فى صدور الناس .

ومن ذلك نار إبراهيم ﷺ . وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

فلما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ كان ذلك مما زاد فى نباهة النار وقَدْرِها فى صُدور الناس .

---

(١) آنسْتُ : أبصرْت .

(٢) طُوى : موضع بالشام عند الطور .

٩١

نار الاستمطار

ونارٌ أخرى ، وهى النار التى كانوا يستمطرون بها فى الجاهلية الأولى ؛ فإنَّهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزَمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتدَّ الجدب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا وجَمَعوا ما قدَروا عليه من البقر ، ثم عقدوا فى أذنابها وبين عراقيبها السَّلَع والعُشَر [١] ثم صَعِدوا بها فى جبل وَعْرٍ ، وأشعلوا فيها النِّيرانَ ، وضجُّوا بالدعاء والتَّضرُّع . فكانوا يرون أنَّ ذلك من أسباب السُّقيا . ولذلك قال أُميّة [٢] :

سَنَةٌ أزمــةٌ تخيَّــلُ بالنــا ... س تَرى للعضاهِ فيها صريرا [٣]
إذ يسَفُّون بالدَّقيق وكانوا ... قبلُ لا يأكلون شيئا فطيرا [٤]
ويَسُوقون باقراً يطرد السَّهـ ... ـلَ مَهازيلَ خشيةَ أن يَبُورا [٥]
عاقدين النِّيرانَ فى شُكُرِ الأذْ ... نابِ عَمداً كيما تَهيجَ البحورا [٦]

(١) السلع ، بالتحريك ، والعشر بضم ففتح : ضربان من الشجر كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذى ذكره الجاحظ .

(٢) أمية بن أبى الصلت ، أحد الشعراء المخضرمين ، أدرك الإسلام ولم يسلم .

(٣) العضاه : ضرب من عظام الشجر .

(٤) الفطير : الذى عجل خبزه ولم يترك حتى يختمر .

(٥) الباقر : جماعة البقر . مهازيل : نحاف قد هزلتها الأزْمة . يبور : يهلك .

(٦) الشكر : جمع الشكير ، وهو شعر بين الطويل والقصير .

فاشْتَوَتْ كلُّها فهاجَ عليهم ثمَّ هاجت إلى صَبيرٍ صبيرا (١)
فرآها الإلٰه تُرْشِمُ بالقَطْرِ وأمسى جَنابُهم ممطورا (٢)
سَلَعٌ ما ، ومثله عُشَرٌ ما ، عائلٌ ما وعالت البَنقْورا (٣)

هكذا كان الأصمعيّ ينشد هذه الكلمة ، فقال له علماء بغداد : صحَّفتَ ، إنما هو « البيقور » ، مأخوذة من البقرة .

وأنشد القحذميُّ للوَرَل الطائى :

لا درَّ درُّ رجالٍ خابَ سعيهمُ يَستمطرون لَدَى الأزْمات بالعُشَر
أجاعلٌ أنت بيقوراً مُسَلَّعةً وسيلةً لك بين الله والمطرِ (٤)

---

(١) كلها ، أى كل الأذناب . الصَّبير : السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح ، كأنه يُصَبر ، أى يحبس .

(٢) أرشمت الأرض : بدا نبتها . القَطْر : المطر .

(٣) عال الشئ فلانا : ثقل عليه .

(٤) مسلعة : وضع فى أذنابها وبين عراقيبها السَّلَع ، وقد مضى تفسيره .

٩٢

عبادة النار وتعظيمها

وما زال الناسُ كافّةً ، والأممُ قاطبةً – حتّى جاء الله بالحق – مولَعين بتعظيم النار ، حتّى ظَنَّ كثيرٌ من الناس لإفراطهم فيها أنّهم يعبدونها .

فأمّا النار العُلْوية كالشّمس والكواكب فقد عُبِدت البتّة . قال الله تعالى : ﴿ وجدتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشّمسِ مِن دونِ الله ﴾ .

وقد يجيء فى الأثر وفى سنة بعض الأنبياء ، تعظيمُها على جهة التعبُّد والمِحنة ، وعلى إيجاب الشُّكر على النِّعمة بها وفيها . فيَغْلَط لذلك كثيرٌ من الناس فيجُوزون الحدَّ .

ويزعُم أهل الكتاب أنَّ الله تعالى أوصاهم بها وقال : « لا تُطفئوا النِّيران من بيوتى » . فلذلك لا تجد الكنائس والبِيَع (١) ، وبيوت العبادات ، إلاَّ وهى لا تخلو من نارٍ أبداً ، ليلاً ولا نهارا ، حتّى اتَّخذَتْ للنِّيرانِ البيوتَ والسَّدَنة (٢) ، ووقفوا عليها الغَلاّت الكبيرة .

ورُوى أنّ أعرابيًّا اشتدَّ عليه البردُ ، فأصاب نارا ، فدنا منها ليصطلىَ بها وهو يقول : اللهُمَّ لا تَحرِمْنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة !!

---

(١) جمع بيعة ، بالكسر ، وهو كنيسة النصارى .

(٢) السادن : خادم بيت الصنم .

٩٣

المجاز والتشبيه فى الأكل

وقد يقولون ذلك (١) أيضاً على المثل ، وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه .

فإن قلتم : فقد قال الله عزَّ وجلَّ فى الكتاب : ﴿ الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا أنْ لا نُؤمنَ لرسولٍ حَتّى يأتيَنا بقُربانٍ تأكلُه النّار ﴾ . فقد علِمْنا أن الله ، عزَّ وجل ، إنما كلَّمهم بلغتهم .

وقد قال أوس بن حجر :

فأشرطَ فيها نفْسَه وهو مُعْصِمٌ وألقَى بأسبابٍ له وتوكّلا (٢)
وقد أكلَتْ أظفارَه الصَّخْرُ كلَّما تعايا عليه طولُ مَرقًى توصَّلا (٣)

فجعل النحتَ والتنقُّص أكلاً .

وقال خُفاف بن نَدْبة :

أبا خُراشَةَ أمَّا كنتَ ذا نفرٍ فإنَّ قومىَ لم تأكلهم الضَّبُعُ (٤)

والضبع : السَّنَة . فجعل تنقُّصَ الجدبِ والأزمةِ أكلاً .

---

(١) أى الأكل .

(٢) أشرط نفسه : جعلها علامة ، أى هيأها لهذه النبعة التى يريد الحصول عليها ليصنع منها القوس . معصم : معتصم بالحبل الذى دلاه فى صدع الجبل ليصل إلى النبعة . الأسباب : الحبال .

(٣) الصخر مجازى التأنيث ، لذلك أنث له الفعل . تعايا عليه : أعجزه .

(٤) النفر : القوم والرهط . أراد قوماً كثيرى العدد .

وقال مِرداسُ بن أُدَيّة :

وأدَّت الأرضُ منِّى مثل ما أكلَتْ　　　وقرَّبوا لحساب القِسْط أعمالى (١)

وأكْلُ الأرضِ لما صار فى بطنها : إحالتها له إلى جَوهَرِها .

(١) القسط ، بالكسر : العدل .

٩٤

باب آخر فى المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إنّ الذينَ يأكُلُونَ أموالَ اليتامَى ظُلْماً ﴾ ، وقوله تعالى ، عزّ اسمُه : ﴿ أكّالونَ للسُّحْت [١] ﴾ . وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموالِ الأنبِذة ، ولبسوا الحُلَل ، وركبوا الدَّوابَّ ، ولم يُنْفِقُوا منها درهماً واحداً فى سبيل الأكل .

وقد قال الله عزّ وجل : ﴿ إنَّما يأكُلون فى بُطونِهِمْ ناراً ﴾ . وهذا مجازٌ آخر .

وقد قال الشاعر [٢] فى أخْذِ السِّنينَ من أجزاء الخمر :

أكَلَ الدَّهْرُ ما تَجسَّم منها ... وتبقَّى مُصاصَها المكنونا [٣]

وقال الشاعر :

مرَّت بنا تختال فى أربعٍ ... يأكل منها بعضُها بعضا [٤]

وإذا قالوا : أكله الأسدُ ، فإنّما يذهبون إلى الأكل المعروف . وإذا

---

(١) السحت ، بالضم : ما خبث من المكاسب . قالوا : سمى بذلك لأنه يسحت البركة ، أى يذهبها .

(٢) هو أبو نواس ، من خمرية رائعة له فى ديوانه ٣٣٨ مطلعها :

أدر الكأس حان أن تسقينا ... وانقر الدُّفَّ إنه يُلهينا

(٣) تجسم ، أى صار جسما . يريد أنه لم يبق من الخمر إلا روحها ، وذلك لفرط رقتها . وتبقى ، أى أبقى وترك . المصاص ، بالضم : خالص كل شئ .

(٤) أربع ، أى من صواحبها . أراد أنها فى تثنيها وتأودها وتعطفها كأنما يأكل بعضها بعضا .

قالوا : أكله الأسوَد (١) ، فإنما يعنون النَّهش واللَّدغ والعضّ فقط .

وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ أيحبُّ أحَدُكم أن يأكلَ لَحمَ أخيهِ مَيْتاً ﴾ .

وقال قائل لإسماعيل بن حمّاد : أيُّ اللُّحمانِ أطيب ؟ قال : لحوم الناس ! هى والله أطيَبُ من الدَّجاج ، ومن الفراخ ، والعُنوز الحُمْر (٢) .

ويقولون فى باب آخر : فلانٌ يأكل الناس : وإن لم يأكل من طعامهم شيئا .

وأما قول أوس بن حَجَر :

وذو شُطباتٍ قدّه ابنُ مجدّعٍ له رونقٌ ذَرِّيُّه يتأكّلُ (٣)

فهذا على خلاف الأوّل . وكذلك قول دُهْمان النَّهرىّ :

سألَتْنِى عن أُناسٍ أُكِلُوا شرِبَ الدَّهرُ عليهم وأكَلْ

فهذا كلُّه مختلف ، وهو كلُّه مجاز .

---

(١) الأسود : ضرب خبيث من الأفاعى .

(٢) العنوز : جمع عنز .

(٣) الشطبات : الخطوط التى فى السيف . ابن مجدّع : أحد صُنّاع السيوف . ذرى السيف : ماؤه وفرنده . التأكل : شدة البريق .

٩٥

ألوان النيران والأضواء

وزَعموا أن النارَ حمراء ، وذهبوا إلى ما ترى العينُ ، والنار فى الحقيقة بيضاء .

وكلُّ نورٍ وضياءٍ هو أبيض ، وإنما يحمرُّ فى العين بالعَرَض الذى يَعرِضُ للعين ، فإذا سَلِمَتْ من ذلك ، وأفضت إليه العينُ رأته أبيضَ . وكذلك نارُ العود تنفصل من العود ، وكذلك انفصال النار من الدُّهن ومعها الدُّخان مُلابساً لأجزائها ، فإذا وقعت الحاسّة على سوادٍ أو بياضٍ فى مكانٍ واحد ، كان نِتاجهما فى العين مَنْظرةَ الحُمرة .

ولو أنَّ دُخَاناً عرضَ بينك وبين قُرص الشمس أو القمر ، لرأيتَه أحمر . وكذلك قرص الشمس فى المشرق أحمر وأصفر ، للبُخار والغبار المعترضِ بينك وبينه . والبخار والدُّخَانُ أَخَوانِ .

ومتَى تحلَّق القُرصُ فى كَبِد السماء (١) فصار على قمّة رأسك ، ولم يكن بين عينيك وبينه إلاّ بمقدارِ ما تمكَّنَ البخارُ من الارتفاع فى الهواء صُعُداً – وذلك يسيرٌ قليل – فلا تراه حينئذٍ إلاّ فى غاية البياض .

وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شئٍ بين عينيك وبين قرصها من

---

(١) أى وسطها .

الهواء ، ملابساً للغبار والدُّخَانِ والبُخار ، وضُروبِ الضَّباب والأنداء ، فتراها إمّا صفراءَ ، وإما حمراء .

ومَن زعَم أن النار حمراءُ فلم يكذِبْ إنْ ذهبَ إلى ما ترى العين ، ومَن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم فى الجوهريَّة ، فزعم أنها حمراء ، ثم قاس على ذلك ، جَهِلَ وأخطأ .

وقد نجد النارَ تختلف على قدْر اختلاف النِّفط الأزرق والأسود والأبيض ، وذلك كلَّه يدور فى العين مع كثرة الدخان وقلَّته .

ونجد النار تتغيَّر فى ألوانها فى العين على قدر جُفوف الحطب ورطوبته ، وعلى قَدْرِ أجناس العيدان والأدهان ، فنجدها شقراءَ ، ونجدها خضراء إذا كان حطبُها مثلَ الكِبريت الأصفر .

٩٦

تعظيم زرادشت لشأن النار

وزَرَادُشْت هو الذى عظَّم النار وأمَرَ بإحيائها ، ونهى عن إطفائها ، ونَهى الْحُيَّضَ عن مَسِّها والدنوِّ منها . وزعم أنَّ العِقاب فى الآخرة إنما هو بالبرد والزَّمهرير والدَّمَق (١) .

وزعَمَ أصحابُ الكلام أن زَرادُشت – وهو صاحب المجوس – جاء من بَلْخ (٢) وادَّعى أنّ الوحىَ نزلَ عليه على جبال سِيلان (٣) ، وأنه حين دعا سُكَّانَ تلك الناحية الباردة ، الذين لا يعرفون إلاّ الأذى بالبرد ، ولا يضربونَ المثل إلاّ به ، حتّى يقول الرجلُ لعبده : لئن عدتَ إلى هذا لأنزِعنَّ ثيابك ، ولأقيمنَّك فى الريح ، ولأُوقفنَّك فى الثلج !! فلمّا رأى موقع البرد منهم هذا الموقعَ ، جَعَلَ الوعيدَ بتضاعُفه ، وظنَّ أنّ ذلك أزجَرُ لهم عمَّا يكره .

وزرادشت فى توعُّده تلك الأُمَّةَ بالثلج دونَ النّار ، مُقِرٌّ بأنه لم يُبْعَثْ إلاّ إلى أهل تلكِ الجبال . وكأنّه إذا قيل له : أنت رسولٌ إلى منْ ؟ قال : لأهل البلاد الباردة ، الذين لابدَّ لهم من وعيد ، ولا وعيدَ لهم إلاّ بالثلج ؟ وهذا جهلٌ منه . ومَن استجابَ له أجهلُ منه .

* * *

---

(١) الدمق ، بالتحريك : الثلج مع الريح يغشى الإنسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه .

(٢) بلخ : مدينة كبيرة بخراسان .

(٣) جبل بقرب مدينة أردبيل بأذربيجان .

وقد عارضَنى بعض المجوس وقال : فلعلّ أيضاً صاحبكم إنّما توعّد أصحابه بالنار لأنّ بلادهم ليست ببلاد ثلجٍ ولا دَمَق [١] ، وإنّما هى ناحية الحَرور ، والوهَج والسَّموم ؛ لأنّ ذلك المكروه أزجرُ لهم . فرأى هذا المجوسىُّ أنه قد عارضنى .

فقلت له : إنّ أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحرِّ فى الصَّيف ، وشدّة البرد فى الشِّتاء ؛ لأنها بلادُ صخورٍ وجبال . والصَّخر يقبل الحرَّ والبرد ، ولذلك سمَّت الفرس بالفارسية ، العربَ والأعراب : « كَهْيان » والكَهْ بالفارسية هو الجَبلَ . فمتى أحببت أن تعرفَ مقدار برد بلادهم فى الشِّتاء وحرِّها فى الصَّيف ، فانظر فى أشعارهم ، وكيف قسَّموا ذلك ، وكيف وضَعوه ؛ لتعرف أنَّ الحالتين سواء عندهم فى الشدَّة .

والبلاد ليس يشتدُّ بردُها على كثرة الثلج وقلَّته ، فقدْ تكون بلدةٌ أبردَ وثلجُها أقلّ . والماء ليس يجمُد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدةً ثلجُها أكثر ، حكَمنا أنَّ نصيبَها من البَرد أوفر .

وقد تكون الليلة باردةً جدًّا ، وتكون صِنَّبرةً [٢] فلا يجمد الماء ، ويجمُد فيما هو أقلُّ بردا . وقد يختلف جمود الماء فى اللَّيلة ذاتِ الريح ، على خلاف ما يقدِّرون ويظنُّون .

وقد خبَّرنى مَنْ لا أرتاب بخبَره ، أنّهم كانوا فى موضع من الجبل ، يستَغْشُون به بلبس المبطَّنات [٣] ، ومتى صبُّوا ماءٍ فى إناء زجاجٍ ، ووضعوه تحت السَّماء ، جَمَد من ساعته .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٦٣ .

(٢) الصنبة : الشديدة البرد .

(٣) يستغشون : يتغطون . المبطنات ، يريد بها الثياب المبطنة بالفراء ونحوها .

فليس جمود الماء بالبرد فقط ، ولابدَّ من شروط ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد فى بعض الأدهان وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله فى الماء المُغْلَى ، وفى الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله فى الماء والنبيذ ، وكما يعترى البولَ من الخثورة والجمود ، على قدر طبائع الطعام ، والقلّة (١)

والزَّيت خاصَّةً يصيبه المقدارُ القليل من النار ، فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحَرُّ .

وحجّةٌ أخرى على المجوس : وذلك أنَّ محمداً ﷺ لو كان قال : لم أُبْعَثْ إلاّ أهل مكّة – لكان له مُتَعلَّقٌ من جهة هذه المعارضة .

فأمّا وأصلُ نبوَّته والذى عليه مخرجُ أمره وابتداءُ مَبعَثه إلى ساعة وفاتِه ، أنّه المبعوث إلى الأحمر والأسود (٢) ، وإلى الناس كافّةً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قل يأيُّها الناسُ إنِّى رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ نَذِيراً للبَشَرِ ﴾ – فلم يبقَ أن يكون مع ذلك قولُهم معارضةً ، وأن يُعَدَّ فى باب الموازنة .

---

(١) أى والكثرة .

(٢) أى إلى العجم والعرب ؛ لأن الغالب على ألوان العجم البياض والحمرة ، والغالب على ألوان العرب السمرة والأدمة .

اختلاف أنواع الغرق

وإذا غرقت المرأةُ رسَبَتْ ، فإذا انتفخت وصارت فى بطنها ريحٌ ، وصارت فى معنى الزِّق ، طفا بدنُها وارتفَع ، إلاّ أنّها تكون منْكبَّةً ، ويكونُ الرجلُ مستلقياً .

وإذا ضُرِبت عنقُ الرجلِ وأُلقىَ فى الماء لم يرسُب ، وقام فى جوف الماء وانتصب ولم يغرَق ، ولم يلزم القَعر ، ولم يَظهر . كذلك يكون إذا كان مضروبَ العُنق ، كان الماء جارياً أو كان ساكناً ، حتّى إذا خفَّ وصار فيه الهواء ، وصار كالزقّ المنفوخ ، انقلبَ وظهر بدنُه كلُّه ، وصار مستلقياً ، كان الماء جارياً أو كان قائماً .

فوقوفه وهو مضروبُ العُنق ، شبيهٌ بالذى عليه طباعُ العقرب التى فيها الحياة : إذا ألقيتَها فى ماءٍ غَمْرٍ (١) ، لم تطْفُ ولم تَرسُب ، وبقيت فى وسطُ عُمق الماء ، لا يتحرَّك منها شىء .

---

(١) الغمر ، بالفتح : الكثير .

٩٨

خبر وشعر فى الماء

قالوا : مدَّ الشعبى (١) يدَه وهو على مائدة قُتَيْبة بن مُسلم (٢) يلتمس الشراب ، فلم يَدرِ صاحبُ الشراب : اللبنَ ، أم العسل ، أم بعض الأشربة ؟ فقال له : أىَّ الأشربةِ أحبُّ إليك ؟ قال : أعزُّها مفقودا ، وأهوَنُها موجودا ! قال قتيبة : اسقه ماء .

وكان أبو العَتَاهية فى جماعة من الشعراء عند بعض الملوك ، إذْ شرب رجلٌ منهم ماءً ثم قال : بَرَد وطابَ ! فقال أبو العَتاهية : اجعلْه شعرا . ثم قال : مَن يُجِيز هذا البيت ؟ فأطرق القومُ مُفْكِرِين ، فقال أبو العَتاهيَة : سبحان الله وما هذا الإطراق ؟ ثم قال :

بَرَد الماءُ وطابا   حبّذا الماءُ شرابا

وقال الله عز وجلّ : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (٣) ﴾ ثم لم يذكرْه بأكثرَ من السلامة من التغيُّر ، إذ كان الماءُ متى كان خالصاً سالماً لم يُحتجْ إلى أن يُشْرَبَ بشىءٍ غيرِ ما فى خِلْقته من الصَّفاء والعُذوبة ، والبَرد والطِّيب ، والحُسْن ، والسَّلَس فى الحَلْق .

---

(١) هو عامر بن عبد الله بن شراحيل ، كان من كبار حفاظ الحديث . توفى بالكوفة سنة ١٠٣ .

(٢) قتيبة بن مسلم ، كان من عمال الحجاج على الرى ثم خراسان .

(٣) آسن : متغير .

وقد قال عدىُّ بنُ زيد :

لو بِغَيْرِ المَـاء حَلِقـى شرِقٌ   كنتُ كالغَصَّان بالماء اعتصارِى (١)

وأوصت امرأةٌ ابنتَها بوصايا ، فكان منها : « وليكن أطيبَ طيبك الماءُ ! » .

ومن الأمثال :

فأصبحتُ مِمَّا كان بينى وبينها   سِوى ذكرِها كالقابض الماءَ باليدِ

وأخذ المسيحُ عليه السلام فى يده اليمنى ماءً وفى يده اليسرى خبزاً فقال : « هذا أبى ، وهذا أمِّى » . فجعل الماء أبًا .

وما ظنُّكم بشرابٍ إذا خُبث ومَلُح فصار مِلحاً زُعاقاً ، وبحراً أُجَاجا ، وَلَّد العنبر الوَرد (٢) ، وأنْسلَ الدُّرَّ النَّفيس (٣) ، فهل سمعتَ بنجلٍ أكرَمَ ممن نَجَلَه ، ومن نتاجٍ أشرَف ممَّن نَسَلَه .

وقال الله عزّ وجلّ : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ (٤) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (٥) وَكَشَفَتْ عن سَاقَيْهَا ﴾ ؛ لأنَّ الزُّجاجَ أكثرُ ما يُمدَح به أن يقال : كأنَّه الماءُ فى الفيافى (٦) .

---

(١) الاعتصار : أن يغص بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشرب قليلا قليلا .

(٢) الورد : الأحمر .

(٣) أنسل : ولد . والدرة : اللؤلؤة العظيمة .

(٤) الصرح : القصر . وكان سليمان قد بنى لبلقيس قصرا من الزجاج ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره .

(٥) اللجة : الماء العظيم .

(٦) الفيافى : جمع فيفاء وفيفاة ، وهى الصحراء .

وقال الله عزّ وجل : ﴿ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُه (١) ﴾ .

وقال القُطاميّ :

وهن يَنْبِذْنَ مِن قولٍ يُصِبْنَ به مواقِعَ الماء مِن ذِى الغُلَّة الصادى (٢)

وقال الله عزّ وجل : ﴿ واللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ . فيقال : إنه ليس شىءٌ إلا وفيه ماء ، أو قد أصابه ماء ، أو خُلِق من ماءٍ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ (٣) ﴾ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً مُبَارَكاً ﴾ .

وحين اجتهدوا فى تسمية امرأة بالجمال والبركة ، والحُسْن والصفاء والبياض ، قالوا : « ماء السماء (٤) » ، وقالوا : المنذِر بنُ ماء السماء .

ويقال : صِبْغٌ له ماء ، ولونٌ له ماء ، وفلان ليس فى وجهه ماء ، وردَّنى فلانٌ ووجهى بمائه . قال الشاعر :

* ماء الحياء يَجُول فى وجَنَاتِه *

وقالت أُمّ فَروة فى صفة الماء :

وما ماءُ مُزْنٍ أىُّ ماءٍ تقوله تحدَّر من غُرٍّ طوالِ الذوائب (٥)

---

(١) الفرات : العذب جدا .

(٢) الغلة : حرارة الجوف من العطش . الصادى : الظمآن .

(٣) أى قبل خلق السموات والأرض .

(٤) به لقبت أم المنذر بن امرىء القيس اللخمى ، وقيل لولدها بنو ماء السماء وهم ملوك العراق . وبه لقب عامر بن حارثة الأزدى ، قيل لولده بنو ماء السماء ، وهم ملوك الغساسنة .

(٥) تحدر : سقط . الغر : البيض ، عنى بها السحب .

بمنعَرَجٍ أو بطنِ وادٍ تحدَّبت ... عليه رياح المُزْن من كلِّ جانب (١)
نَفَى نَسَمُ الرِّيحِ القَذَى عن مُتونه ... فَما إنْ به عَيبٌ تراه لشاربِ (٢)
بأطيبَ ممن يَقْصُرُ الطَّرْفَ دونَه ... تُقى اللهِ واستحياءُ بعض العواقب (٣)

والأبيضان : الماء واللبن . والأسودان : الماء والتمر .

وسواد العراق : ماؤه الكثير .

والماءُ إن كان له عُمقٌ اشتدَّ سوادُه فى العين .

وهو بَعْدُ طَهُورُ الأبدان ، وغَسُول الأدران (٤) .

وقالوا : هو كالماء الذى يطَهِّر كلَّ شىء ولا ينجِّسُه شىء .

وقال النبى ﷺ فى بئر رُومة (٥) : « الماء لا ينجِّسه شىء » .

ومنه ما يكون الملح والبرَد والثَّلج ، فيجتمع الحسن فى العين والكرمُ فى الصَّفاء والبياض ، وحُسن الموقع فى النَّفْس .

وبالماء يكون القَسَم ، كقول الشاعر :

غَضْبَى ولا واللهِ يا أهَلها ... لا أشربُ البـاردَ أو تَرضَى

ويقولون : لو عَلم فلانٌ أنَّ شُربَ الباردِ يَضَع من مروءته لَمَا ذاقه !

---

(١) تحدبت : تعطفت . المزن : السحب .
(٢) القذى : ما يقع فى الماء من تراب أو تبن ونحوه . المتون : صفحات الماء .
(٣) يقصره : يحبسه ويكفه . الطرف : العين .
(٤) الأدران : الأوساخ .
(٥) بئر رومة : بعقيق المدينة ، اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها .

٩٩

بين خَلْق الحيوان وخُلُقه

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صَنْعة البدَن ، ثم لا يُذكَر بَعْدَ حُسن الخَلْق بخلق كريم ، ولا حسٍّ ثاقب (١) ، ولا معرفةٍ عجيبة ، ولا صنعة لطيفة .

ومنه ما يكونُ كالببغاء والنحلة ، والحمامة والثعلب ، ولا تكون الأعجوبة فى تصويره وتركيب أعضائه وتنضيد ألوان ريشه فى وَزْن تلك الأشياء التى ذكرناها ، أو يكونُ العَجَب فيما أُعطِىَ فى حَنْجَرته من الأغانى العجيبة ، والأصوات الشجيّة المطربة ، والمخارج الحسنة – مِثْلَ العجبَ فيما أعطِىَ من الأخلاق الكريمة ، أو فى صنعة الكَفِّ اللطيفة ، والهِداية الغريبة ، أو المِرفق النافع (٢) ، أو المضرة التى تدعُو إلى شدَّة الاحتراس ودِقَّة الاحتيال ، فيقدم فى الذِّكر لذلك .

وأىُّ شىءٍ أعجبُ من العَقعَق (٣) وصِدْقِ حِسِّه ، وشدَّةِ حذَره ، وحُسن معرفته ؟ ثمَّ ليس فى الأرض طائرٌ أشدَّ تضييعاً لبيضه وفَرخِه منه .

والحُبَارَى مع أنَّها أحمقُ الطَّير تحوطُ بيضَها أو فِراخَها أشدَّ

---

(١) الثاقب : الصادق ، وأصله النافذ .

(٢) المرفق : كل ما استعين به .

(٣) العقعق : طائر على قدر الحمامة وفى شكل الغراب طويل الذنب . يقال فى المثل « ألص من عقعق » ، وذلك لكثرة سرقته .

الحياطة ، وبأغمض معرفة ، حتى قال عثمان بن عفَّان : « كلُّ شيءٍ يحبُّ ولَده حتى الحُبارَى ! » يَضربُ بها المثَل فى المُوق (١) .

ثم العَقعق مع حِذْقِه بالاستلاب وبسرعة الخَطْفِ لا يَستعمل ذلك إلاَّ فيما لا ينتفِع به . فكم من عِقدٍ ثمينٍ خطير ، ومن قُرْطٍ شريف نفيس ، قد اخْتَطَفَ من بين أيدى قوم ، فإمَّا رمَى به بعد تحلُّقه فى الهواء ، وإمَّا أحرزَه ولم يلتفتْ إليه أبدا .

وزعم الأصمعيُّ أنَّ عَقعقاً مرة استلَبَ سِخابا (٢) كريماً لقوم ، فأخَذَ أهلُ السِّخاب أعرابيَّةً كانَتْ عندهم ، فبينما هى تُضرَبُ وتُسحبُ وتُسَبّ ، إذْ مَرَّ العَقعَقُ والسِّخاب فى منقارِه ، فصاحوا به فرمى به ، فقالت الأعرابية وتذكَّرت السَّلامة بعد أنْ كانت قد ابتُلِيَتْ ببلية أخرى ، فقالت :

ويومُ السِّخاب مِن تعاجيبِ ربِّنا ... كما أنّه مِن بلدة السَّوءِ نجَّانى

تعنى الذين كانت نزلتْ بهم من أهل الحاضرة .

---

(١) المُوق : الحمق .

(٢) السخاب ، ككتاب : القلادة لا جوهر فيها .

١٠٠

مما قالوا فى السر

قال ابن ميّادة :

أتُظهِر ما فى الصَّدر أم أنت كاتمُه وكِتمانُـه داءٌ لمن هو كاتمُـه
وإضمارُه فى الصَّدر داءٌ وعِلّةٌ وإظهارُه شُنْعٌ لمن هو عالمه (١)

وتقول العرب : مَن ارتادَ لسرِّه فقد أشاعه (٢) !

وأرى الأوّل (٣) قد أذِن فى واحدٍ ، وهو قوله :

وسِرُّك ما كانَ عند امرئٍ وسِرُّ الثلاثـةِ غيـرُ الخَفِـى

وقال الآخر فيما يوافق فيه المَثل الأوَّل :

فلا تُفش سِرَّكَ إلاّ إلـيكَ فإنَّ لكلِّ نصيحٍ نصيحا (٤)
فإنّـى رأيت غُواةَ الرِّجـا لِ لا يترُكون أديما صحيحا (٥)

وقال مسكينٌ الدارمىّ :

إذا ما خليلى خاننى وائتمنتُـه فذاك وَدَاعِيـهِ وذاك وَداعُهـا (٦)

---

(١) الشنع : القبح والفظاعة .

(٢) ارتاد : بحث لسره عمن يُودِعه لديه .

(٣) أى الشاعر القديم .

(٤) النصيح : المخلص . عنى أن السر يتنقل فى الإخوان وإخوان الإخوان ، وهكذا .

(٥) الغواة : جمع غاو ، وهو الضال الفاسد . الأديم : الجلد .

(٦) وداعيه ، أى وداع الخليل . وداعها ، أى وداع الزوجة .

رددتُ عليــه وُدَّه وتــركتُها   مُطلَّقةً لا يُستطاعُ رِجاعُها
وإنِّى امرؤٌ منِّى الحياءُ الذى ترى   أعيشُ بأخلاقٍ قليلٍ خداعُها
أُوَاخِى رجالا لستُ مُطلِعَ بعضهم   على سِرِّ بعضٍ غير أنِّى جِماعُها (١)
يظلُّون شتَّى فى البلاد وسِرُّهم   إلى صَخْرةٍ أعيا الرِّجالَ انصداعُها (٢)

وقال أبو مِحجَنٍ الثَّقفى :

وقد أجودُ وما مالِي بذى فَنَعٍ   وأَكْتُم السرَّ فيه ضَرْبةُ العُنُقِ (٣)

وقال عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه : « من كَتَم سِرَّه كان الخِيارُ فى يدِه » .

وقال بعضُ الحكماء : « لا تطْلع وَاحداً من سِرِّك إلاَّ بقدر ما لا تجدُ فيه بُدًّا من معاونتك » .

وقال آخر : إنَّ سِرَّك من دَمِك ، فانظرْ أيْن تُرِيقُه !

وقال الآخر :

فإذا استودعْتَ سِرًّا أحدًا   فقد استَودعتَ بالسِّرِّ دمَك

وقال قيسُ بنُ الخطيم :

وإنْ ضَيَّع الإخْوانُ سِرًّا فإنَّنى   كَتومٌ لِأسرارِ العَشيرِ أَمِينُ
يكون له عِندى إذا ما ائتمنتُه   مكانٌ بسَوداء الفؤاد مَكينُ (٤)

---

(١) الجماع : اسم لما يجمع به الشئ .
(٢) شتى : متفرقين . الانصداع : الانشقاق .
(٣) الفنع : كثرة المال .
(٤) سوداء الفؤاد : باطنه،مكين : من التمكن .

وقيل لمزبِّد [١] : يا مزبّد ، ما هذا الذى تحتَ حِضْنك ؟ فقال : يا أحمق ، فلِمَ خَبّأْتُه ؟!

وقال أبو الشِّيص :

ضَع السرَّ فى صَمَّاء ليست بصخرةٍ صَلودٍ كما عايَنْتَ من سائر الصَّخرِ [٢]
ولكنَّها قلبُ امرئ ذى حفيظةٍ يرى ضَيعةَ الأسرار هتْراً من الهتْرِ [٣]
يموت وما ماتتْ كرائمُ فِعلِهِ ويَبْلىِ وما يَبْلى نَثَاه على الدَّهر [٤]

وقال سُحَيْمٌ الفقعسىُّ فى نشر ما يُودَع من السرِّ :

ولا أكتُم الأسرارَ لكنْ أُذِيعُها ولا أدَعُ الأسرارَ تَغلِى على قلبى
وإنَّ قليلَ العقلِ من بات ليلةً تقلِّبُه الأسرارُ جنباً إلى جنب !!

وكان أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ سيَّارٍ النَّظَّامُ أضْيَقَ الناسِ صَدراً بحمْلِ سرّ ، وكان شرَّ ما يكونُ إذا يؤكِّدُ عليه صاحبُ السِّرِّ ، وكان إذا لم يؤكِّد عليه ربَّما نسِى القصَّةَ فيسلمُ صاحبُ السرِّ .

وقال له مرّةً قاسمٌ التمّار : سبحانَ الله ، ما فى الأرض أعجبُ منك ! أودعتُكَ سِرًّا فلم تصبْر عن نشره يوماً واحداً ، واللهِ لأشكونَّكَ للناسِ !! فقال : يا هؤلاء ، سَلوه ، نممتُ عليه مرَّةً واحدة أو مرَّتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، فلمَن الذنبُ الآن ؟

(١) مزبد المدينى : من مشهورى أصحاب النوادر والفكاهة .

(٢) صلود : صلبة .

(٣) الهتر ، بالفتح : مزق العرض ، وبالكسر : الباطل والخطأ فى الكلام ، وبالضم ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حزن .

(٤) النثا ، بتقديم النون : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ .

فلم يرضَ بأن يشاركَه فى الذَّنب حتَّى صيَّر الذَّنْب كلَّه لصاحب السِّرّ .

وقال رجلٌ من بنى سعد :

إذا ما ضاق صدرُكَ عن حديثٍ   فأفْشَتْه الرجالُ فمن تَلوم
إذا عاتبتُ مَنْ أفشَى حديثى   وسرِّى عِندَه فأنَا الظلُّومُ
وإنِّى حين أَسْأَم حَمْلَ سرِّى   وقد ضَمنَّتُه صدرى سَئُومٌ
ولست محدِّثاً سرِّى خليلاً   ولا عِرسى إذا خطَرَتْ همومُ
وأطوِى السِّرَّ دون الناسِ إنِّى   لِما استُودِعْتُ من سرٍّ كتومُ

١٠١

حب العصافير فراخها

وليس فى الأرض طائرٌ ولا سَبُعٌ ولا بهيمةٌ أحْنَى على ولدٍ ولا أشدَّ به شغفاً [١] وعليه إشفاقاً ، من العصافير . فإذا أُصيبَتْ بأولادها أو خافَتْ عليها العطَبَ [٢] . فليس بين شئ من الأجناس من المساعدة مثلُ الذى مع العصافير ؛ لأنَّ العصفورَ يرى الحيَّةَ قد أقبلت نحو جُحْره وعُشِّه ووكره ، لتأكلَ بيضَهُ أو فِراخه ، فيَصيحُ ويرنِّق [٣] ، فلا يَسمع صوتَه عصفورٌ إلاَّ أقبلَ إليه وصنعَ مثلَ صنيعه بتحرُّق ولَوعة وقلق ، واستغاثةٍ وصُراخ ، وربّما أفلتَ الفرخُ وسقط إلى الأرض ، وقد ذهَبت الحية ، فيجتمعْنَ عليه إذا كان قد نبت رِيشُه أدنَى نبات ، فلا يَزلْن يهيِّجنه ويَطرن حوله ، لعلمها أنَّ ذلك يُحدِث للفرخ قُوّةً على النهوض ، فإذا نهضَ طِرن حواليه ودُونه ، حتَّى يَحتثِثْنَه بذلك العمل .

ولو أنَّ إنساناً أخذ فَرخَيْ عصفورٍ من وكره ، ووضعهما بحيث يراهما أبواهما فى منزله ، لوجَدَ العصفور يتقحَّم فى ذلك المنزل [٤] حَتَّى يدخُلَ فى ذلك القفص ، فلا يزال فى تعهُّدِه بما يُعيشُه ، حتَّى يستغنِيَ عنه . ثمَّ يحتملان فى ذلك غايةَ التغرير والخِطار [٥] . وذلك من فرْط الرِّقّة على أوْلادهما .

---

(١) الشغف : الحب الشديد .

(٢) العطب : الهلاك .

(٣) رنق الطائر ترنيقا : خفق بجناحه فى الهواء وثبت فلم يطر .

(٤) التقحم : الدخول بلا روية ولا تفكير .

(٥) الخطار : المخاطرة .

١٠٢

بعض خصال العصفور

والعصفور لا يستقرُّ ما كان خارجاً من وَكره ، حتّى كأنه فى دوام الحركة صبىّ . وله صوتٌ حديدٌ مؤذٍ .

وزعموا أنّ البلبلَ لا يستقرُّ أبداً . وهذا غلط ؛ لأن البلبل إنّما يقلَق لأنه محصورٌ فى قفص . والذين عاينُوا البلابلَ والعصافير فى أوكارها ، وغيرَ محصورة فى الأقفاص – يعلمون فضلَ العصفور على البلبل فى الحركة .

فأمّا صِدق الحِسّ ، وشدّة الحذر ، والإزكان [1] الذى ليس عند خبيث الطَّير ، ولا عند الغراب – فإنَّ عند العصفور منه ما ليس عند جميع ما ذكَرنا لو اجتمعتْ قواهم ، ورُكّبوا فى نصابٍ واحد .

من ذلك أنه يَغُمُّ بحدّة صوته بَعْضَ من يقرُبُ منه ، فيصيح به ويُهوِى بيديه إلى الأرض ، كأنه يريد أن يَرميَه بحجرٍ ، فلا يراه يَحفِل بذلك . فإن وقَعتْ يدُه على حصاةٍ طارَ من قبل أن يتمكَّن من أخْذِها .

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ بين الحمار وعصفور الشَّوك عداوةً . وقال : لأنّ الحمار يَدخُل الشَّجرَ والشَّوك ، فربّما زاحَمَ الموضعَ الذى فيه وكرُه فيبدِّدُ عُشّه ، وربّما نهق الحمارُ فسقط فرخ العصفور أو بيضُه من جوف وكره .

---

(١) الإزكان : الفطنة والحس الصادق .

قال : ولذلك إذا رآه العصفورُ رنَّقَ (١) فوق رأسه ، وعلى عينيه ، وآذاه بطيرانه وصياحه .

وربّما كان العصفور أبلقَ . ويصاب فيه الأصْبَغُ (٢) ، والجراديّ (٣) ، والأسود ، والفقيع (٤) ، والأغْبَس (٥) . فإن أصابوه كذلك باعُوه بالثمن الكثير .

---

(١) رنق ترنيقا : خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر .
(٢) الأصبغ من الطير : المبيض الذنب .
(٣) الجرادى : ما لونه لون الجراد .
(٤) الفقيع : الأبيض ، بوزن أمير ، وسكيت .
(٥) الأغبس : ما لونه الغبسة ، وهى لون الرماد .

١٠٣

مثل الشيخ والعصفور

وفى المثل : أنَّ شيخاً نصبَ للعصافير فَخًّا ، فارتَبْنَ به وبالفخّ [١] ، وضربَه البردُ ، فكلما مَشى إلى الفخِّ وقد انضمَّ على عصفورٍ فقبض عليه ودقَّ جَناحه [٢] وألقاه فى وعائه – دَمعتْ عينُه مما كان يصكُّ وجهَه من برد الشَّمال [٣]

فتوامرت العصافيرُ بأمره [٤] ، وقلن : لا بأس عليكنَّ ، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيم ، رقيقُ الدمعة ! فقال عصفورٌ منها :

« لا تنظروا إلى دُموع عَيْنَيه ، ولكن انظروا إلى عمل يَدَيْه ! » .

---

(١) ارتبن : من الريبة ، وهى الشك .

(٢) دق جناحه : كسره .

(٣) يصك : يضرب . والشمال : الريح الشمالية .

(٤) توامرت : تآمرت ، أى تشاورت .

١٠٤

القول فى العقارب والفأر والسنانير

نقول فى العقارب والفأر والجُرْذان (١) بما أمكن من القول . وإنما ذكرنا العقاربَ مع ذِكرنا للفأر ، للعداوة التى بين الفأر والعقارب . كما رأينا أن نذكر السنانير فى باب ذكر الفأر ، للعداوة التى بينهما .

فإن قلت : قد عرَفنا عداوةَ الفأر للعقرب ، فكيف تُعادِى الفأرة السنّور ، والفأرة لا تُقاوم السِّنَّور .

قيل : لعمرى إنّ جُرذان أُنطاكية لتُساجل السَّنانير فى الحرب التى بينهما ، وما يَقُوم لها ولا يقوى عليها إلاّ الواحدُ بعد الواحد . وهى بخُراسانَ قويّةٌ جدًّا ، وربَّما قطعَتْ أذن النائم .

وفى الفأر ما إذا عضَّ قتلَ . أخبرنى أبو يونس الشَّريطىّ أنه عايَنَ ذلك .

وأنا رأيت سنّوراً عندنا ساوَرَ جُرذاً فى بيت الحطب ، فأفلتَ الجرذُ منه وقد فقأ عينَ السنّور .

والقتال يكون بين الدِّيَكة ، وبين الكباش ، والكلاب ، والسُّمانَى ، والقَبَج ، وضروبٍ مما يَقبل التحريش .

---

(١) بضم الجيم وكسرها كما فى اللسان . وضبط فى القاموس بالضم ، وفى الأساس بالكسر . والوجهان صحيحان .

ويزعمُون أنَّهم لم يَرَوا قتالاً قطُّ بين بهيمتين ولا سبُعين ، أشدَّ من قتالٍ يكون بين جُرَذَين ، فإذا رُبط أحدُهما بطرفِ خيطٍ وشُدَّ رِجل الآخَر بالطَّرف الآخَر من الخيط ، فلهما عند ذلك من الخَلْب والخمش [١] ، والعضِّ ، والتَّنييب [٢] ، والعِفَاس [٣] ، ما لا يوجَد بين شيئين من ذوات العِقَار [٤] والهِراش . إلاّ أنَّ ذلك ما داما في الرِّباط ، فإذا انحلَّ أو انقطعَ ولَّى كلُّ واحدٍ منهما عن صاحبه ، وهرب في الأرض ، وأخَذَ في خلاف جهته الآخَرُ .

وإنْ جُعِلا في إناءٍ من قوارير – أعني الجرذَ والعقرب – وإنّما ذكرتُ القوارير لأنَّها لا تَستُر عَنْ عيونِ الناس صنيعَهما ، ولا يستطيعان الخروجَ لملاسة الحيطان – فالفأرة عند ذلك تَختلِ العقرب [٥] . فإن قبضت على إبرتها قرضَتها . وإن ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدَتْ سمَّها ، كان ذلك من أسباب حتفها .

---

(١) هما بمعنى الخدش والجرح .
(٢) التنييب : إنشاب الأنياب .
(٣) العفاس : الصراع .
(٤) العقار : مصدر ، كالمعاقرة .
(٥) الختل : الخداع .

١٠٥

تدبير الجُرَذ

وللجرذ تدبيرٌ فى الشيء يأكله أو يحسوه ؛ فإنّه لَيأتى القارورة الضيِّقةَ الرأس ، فيحتال حتّى يدخل طرَفَ ذنَبه فى عنقها ، فكلَّما ابتلَّ بالدُّهنِ أخرجَه فلطعَه (١) ، ثم أعاده ، حتّى لا يدعَ فى القارورة شيئاً .

ورأيتُ من الجُرذان أعجوبة : وذلك أنّ الصيّادة (٢) لمَّا سقطت على جرذٍ منها ضخمٍ اجتمعن لإخراجه وسلِّ عُنقِه من الصيَّادة ، فلمَّا أعجزهنّ ذلك قَرَضْنَ ذلك الموضع المنضمَّ عليه من جميع الجوانب ؛ ليتَّسع الخَرقُ فيجذبنَه . فهجمتُ على نُحاتةٍ (٣) لو اعتمدتُ بسكّينٍ على ذلك الموضع لظننتُ أنّه لا يمكننى إلاّ شبيهٌ بذلك .

وزعَمَ بعضُ الأطبّاء أن السنّورَ إنما يدفِن خُرأه ، ثم يعودُ إلى موضعه فيشتَمُّه ، فإن كان يجدُ من ريحِهِ بعدُ شيئاً زاد عليه من التُّراب ؛ لأنَّ الفأرة لطيفةُ الحِسِّ ، جيّدةُ الشمّ ، فإذا وجدَتْ تلكَ الرائحةَ عرفَتْها ، فأمعنَتْ فى الهرب ، فلذلك يصنع السنّورُ ما يصنع .

---

(١) اللطع : اللَّحس .

(٢) يعنى بالصيادة المصيدة .

(٣) النحاتة : البراية .

١٠٦

لعب السِّنَّور بالفأر

وبلغ من تحرُّزه واحتياطه ، أنّه يسكُن السُّقوف ، فربّما فاجأه السِّنَّورُ وهو يريد أن يعبُر إلى بيته ، والسِّنَّورُ فى الأرضِ والفأرةُ فى السَّقف ، ولو شاءت أن تدخلُ بيتَها لم يكن للسنّور عليها سبيل ، فتتحيَّر ، فيقول السنّورُ بيده كالمشيرِ بيساره : ارجعْ ! فإذا رجَعتْ أشار بيمينه : أنْ عُدْ ! فيعود . وإنّما يطلب أن تعيا ، أو تَزْلَق ، أو يُدارَ بها [١] . ولا يفعل ذلك ثلاثَ مرّاتٍ حَتَّى تسقطَ إلى الأرض ، فيثبَ عليها . فإذا وثبَ عليها لعبَ بها ساعةً ، ثمَّ أكلَها . وربّما خلّى سبيلَها وأظهر التغافُلَ عنها فتُمعِنُ فى الهرب ، فإذا ظنّت أنّها نجت وثب عليها وثبةً فأخَذها . فلا يزال كذلك كالذى يحبُّ أن يَسخَر من صاحبه ، وأن يخدعَه ، وأن يأخذَه أقوى ما يكون طمعاً فى السلامة ، وأن يُورِثَه الحسرةَ والأسفَ ، وأن يَلذَّ بتنغيصه وتعذيبه .

وقد يفعل مثلَ ذلك العقابُ بالأرنب ، ويفعل مثل ذلك السِّنورُ بالعقرب .

---

(١) يدار بها : يصيبها الدوار ، وهو شبه الدوران يأخذ فى الرأس .

١٠٧

فزع الناقة من الهِرّ

وإذا وصفوا الناقةَ بأنّها رُوَاعٌ (١) شديدةُ التفزُّع ، لِفَرْط نشاطها ومرحها ، وصَفوها بأنّ هرًّا قد نَيَّبَ فى دَفِّها (٢) . وأكثر ما يذكرون فى ذلك الهرَّ ؛ لأنّه يجمع العضّ بالناب ، والخَمْشَ بالمخالب ؛ وليس كلُّ سبعٍ كذلك .

وقال ضابئ بن الحارث :

بأدماءَ حُرجُوجٍ ترى تحت غَرزِها ... تَهَاويلَ هرّ أو تهاويلَ أخْيَلاَ (٣)

وقال أوس بن حجر :

كأن هرًّا جَنيباً عند مَغْرِضها ... والتفَّ ديكٌ برِجلَيها وخِنزيرُ (٤)

وقال عنترة :

وكأنَّما ينأى بجانب دَفِّها الـ ... ـوحشىِّ من هَزِج العشىِّ مؤوَّمِ (٥)

هرٌّ جنيبٌ كلَّما عَطَفَتْ له ... غَضْبَى اتَّقاها باليدين وبالفمِ

---

(١) من الروع ، وهو الفزع .

(٢) التنييب : العض بالناب . والدف : الجنب .

(٣) الحُرجوج : الجسيمة الطويلة على وجه الأرض . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس . التهاويل : الصور والنقوش ، وهى أيضا ما يهول به ويفزع ، مفرده تهويل . والأخيل : طائر صغير فى أجنحته سواد ، ينقر ظهر البعير فيخزله .

(٤) جنيبا : مجنوبا ، أى مقودا إلى جنبها . والمَغرِض كالمَحزِم للفرس .

(٥) الوحشى : الجانب الأيمن . وهَزِج العشىّ هو الهرّ ؛ لأن السنانير أكثر صياحها بالعشيات . المؤوم : العظيم الرأس .

١٠٨

ضروب الفأر

قال : والفأر ضروب . فمنها الجُرذانُ والفأر المعروفان ، وهما كالجواميس والبقر ، وكالبُخْت والعِراب . ومنها الزَّباب ، ومنها الخُلْد .

واليرابيع شكلٌ من الفأر . واسم ولد اليربوع دِرص مثل ولد الفأر .

ومن الفأرة فأرة المِسْك ، وهى دويبَّةٌ تكون فى ناحية تُبَّت ، تصاد لنوافجها وسُرَرِها (١) ، فإذا اصطادها صائدٌ عَصَبَ سُرَّتها بعِصابٍ شديد ، وسُرَّتُها مُدلاَّة ، فإذا أحكَمَ ذلك ذَبَحها – وما أُكثَرَ من يأكلها – فإذا ماتت قوَّر السُّرَّةَ التى كان عصبَها له والفأرةُ حيّة ، ثم دفَنها فى الشّعير حتَّى يستحيلَ ذلك الدم المحتقِنُ هناك الجامدُ ، بعد موتها ، مسكا ذكيًّا ، بعد أن كان ذلك الدمُ لا يُرام نَتْناً .

قال : وفى البيوت أيضاً قد يوجَد فأرٌ ممّا يُقال له فأر المِسْك ، وهى جِرذانٌ سُود ، ليس عندها إلا تلك الرائحةُ اللازمة له .

قال : وفى الجُرْذان جنسٌ لها عبثٌ بالعقود والشُّنوف (٢) ، والدَّراهِم والدَّنانير ، على شبيهٍ بالذى عليه خُلُق العَقعَق (٣) إلاّ أنّ هذه الجُرذانَ تفرح

---

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهى وعاء المسك ، أى الجلدة التى يجتمع فيها . والسُّرر : جمع سرة .

(٢) جمع شنف ، بالفتح ، وهو القرط ، أو القرط الذى يلبس فى أعلى الأذن .

(٣) العقعق : طائر له ولوع بالسرقة .

بالدنانير والدراهم ، وبخَشْخاش الحَلْى (١) . وذلك أنها تُخرِجها من جحرها فى بعض الزّمان ، فتلعب عليها وحوالَيها ، ثم تنقُلها واحداً واحداً ، حتى تعيدَها عن آخرها إلى موضعها .

فزعَمَ الشَّرْقىُّ بن القُطامىّ : أنَّ رجلاً من أهل الشام اطَّلَع على جُرَذٍ يُخرِج من جُحره ديناراً ديناراً ، فلما رآه قد أخرجَ مالاً صالحاً استخفَّه الحِرصُ ، فهمَّ أن يأخذَه ، ثم أدركه الحزمُ وفتحَ له الرِّزق المقسومُ باباً من الفطنة ، فقال : الرأىُ أن أُمسِكَ عن أخذه ما دام يُخرِج ، فإذا رأيتُه يُدخِلُ فعند أوَّلِ دينارٍ يغيِّبه ويعيده إلى مكانه أثِبُ عليه فأجترفُ المالَ .

قال : ففعلتُ وعُدت إلى موضعى الذى كنتُ أراهُ منه . فبينا هو يُخرج إذْ تركَ الإخراج ، ثم جعل يرقُص ويثب إلى الهواء ، ويذهب يَمنةً ويَسرةً ساعة ، ثم أخذَ ديناراً فولَّى به فأدخلَه الجُحر ، فلما رأيت ذلك قمتُ إلى الدَّنانير فأخذتُها ، فلما عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجد الدنانير ، أقبلَ يثبُ فى الهواء ، ثم يضرب بنفسِه الأرضَ حتَّى مات .

وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء .

---

(١) الخشخاش من الحلى : ما له خشخشة وصوت .

١٠٩

مساوى السنانير

قال صاحب الكلب : والسِّنَّورُ لصٌّ لئيم ، وشرِهٌ خَئُون . فمن ذلك أنَّ صاحب المنزل يَرمِى إليه ببعض الطُّعم [١] فيحتمله احتمال المُريب ، حتى يُولِجَ به [٢] خلَفَ حُبٍّ أو راقود [٣] ، أو عِدْلٍ [٤] أو حطَب ، ثم لا يأكلُه إلاّ وهو يتلفّت يميناً وشِمالاً ، كالذى يخاف أن يُسلَبَ ما أُعْطِىَ ، أو يُعثَرَ على سرقته فيُعاقَب .

ثم ليس فى الأرض خِبْثةٌ [٥] إلاّ وهو يأكلها ، مثل الخنافس والجِعلان [٦] وبنات وَردانَ ، والأوزاغ [٧] ، والحيّات ، والعقارب ، والفأر .

وهذه الأنعامُ تدخل الغياضَ فتجتنب مواضعَ السموم بطبائعها ، وتتخطّاها ولا تلتفت لِفْتَها [٨] . ورُبَّما أشكل الشىءُ على البعير فيمتحنه

---

(١) الطعم ، بضم الطاء : الطعام .

(٢) أى يدخل به .

(٣) الحب : الجرة الضخمة . والراقود : إناء من الخزف مستطيل مطلى بالقار ، أى الزفت .

(٤) العدل : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .

(٥) الخبثة : الخبيثة غير الطيبة .

(٦) جمع جعل ، وهو ضرب من الحشرات شبيه بالخنفساء .

(٧) جمع وزغ ، وهو سام أبرص .

(٨) أى لا تنظر إليها .

بالشَّمَّة الواحدة ، فلا تَغلَط الإبل إلاّ فى البِيش وحده ، ولا تغلَط الخيلُ إلا فى الدِّفْلَى وحده (٢) .

والسَّنانير تموت عن أكلِ الأوزاغ والحيَّاتِ والعقارب ، وما لا يُحصى عددُه من الحشرات . فهذا يدلُّ على جهلٍ بمصلحة المعاش ، وعلى حسٍّ غليظ ، وشرَهٍ شديد .

---

(١) البيش والدفلى : ضربان من النبت سامان .

أكل الهرة أولادها

قالوا : والهرةُ تأكل أولادها . فكفاك بهذه الخَصلة لؤماً وشَرَها ، وعُقوقاً وغِلَظَ قَلْب !

وقال السيِّد الحِميرىّ – وذكَر مسير عائشة رضى الله عنها إلى البَصْرة مع طَلْحَة والزُّبير ، حين شهدتْ ما لم يشهدا ، وأقدمت على ما نكَصَا عنه [1] :

جاءت مع الأشقَينَ فى هودجٍ تُزجِى إلى البَصرة أجنادَها [2]
كأنَّهـــا فى فِعلِهـــا هِرَّةٌ تريــد أن تأكل أولادَهـــا

ولبئس ما قال فى أمّ المؤمنين وبنتِ الصِّدِّيق ! وقد كان قادراً على أن يوفِّر على علىٍّ رضى الله عنه فضلَه ، من غير أن يشتم الحواريِّين [3] وأمَّهات المؤمنين . ولو أراد الحقَّ لسارَ فيها وفى ذكرها سيرةَ علىّ بن أبى طالب ، فلا هو جَعَل عليًّا قُدوة ، ولا هو رعَى للنبى ﷺ حُرمة .

وذكورةُ سنانيرِ الجيران تأكل أولاد الهِرَّة ، ما دُمنَ صغاراً أو فوقَ الصِّغار شيئاً ، وتقتُلها وتطلُبها أشدّ الطلب ، والأمَّهات تحرسُها منها . وتقاتل دونَها مع عَجْزها عن الذكورة .

---

(١) نكص عن الشئ : رجع .
(٢) تزجى : تسوق . الأجناد : الجند .
(٣) الحواريون : أنصار الأنبياء .

١١١

التجارة فى السنانير

قالوا : وللسنّور تُجّار وباعةٌ ودَلاّلون ، وناسٌ يُعرَفون بذلك ، ولها راضَةٌ (١) .

وقال السِّنْدى بن شاهَكَ : ما أعيانى أحدٌ من أهل الأسواق من التُّجَّار ، ومن الباعة والصُّنَّاع ، كما أعيانى أصحابُ السنانير . يأخذون السِّنّورَ الذى يأكل الفِراخ والحمام ، ويُواثب أقفاص الفواخِتِ (٢) والوَرَاشين والدَّباسىّ والشَّفانين (٣) ، ويُدخلونه فى دنٍّ ويشدُّون رأسَه (٤) ، ثم يُدحرجونه على الأرض حتّى يشغَلَه الدُّوَار ، ثم يُدخلونه فى قفصٍ فيه الفراخُ والحمام ، فإذا رآهُ المشترِى رأى شيئاً عَجَبا ، وظن أنّه قد ظفِرَ بحاجته ، فإذا مضى به إلى البيت مَضَى بشيطان ، فيجمع عليه بليَّتَين : إحداهما : أكل طيوره وطيور الجيران ، والثانية : أنَّه إذا ضَرِىَ عليها لم يأْكلْ سواها .

ومررتُ يوماً وأنا أريدُ منزلَ المكّىِّ بالأساورة (٥) ، وإذا امرأةٌ قد تَعَلَّقَتْ برجِلِى وهى تقول : بينى وبينك صاحب المَسْلَحَة (٦) ، فإنَّكَ

---

(١) راضة : جمع رائض ، كباعة وبائع ، وهو الذى يروض الدواب ويسوسها .

(٢) الفواخت : جمع فاختة ، وهو ضرب من الحمام المطوق .

(٣) كلها ضروب من الحمام .

(٤) أى رأس الدن .

(٥) موضع بالبصرة .

(٦) المسلحة : القوم ذوو السلاح . عنى رئيس الشرطة .

دلَلتَنِى على سنّور وزعمتَ أنّه لا يقرب الفراخ ، ولا يكشِف القدور ، ولا يدنو من الحيوان ، وزعمتَ أنك أبصرُ الناسَ بسنّور ، فأعطيتك على بصرك ودلالتك دانَقا [(١)] ، فلمَّا مضَيتُ به إلى البيت مضيتُ بشيطانٍ قد واللهِ أهلكَ الجيرانَ بعد أن فرغَ مِنّا . ونحن منذُ خمسةِ أيام نحتال فى أخْذه ، وها هو ذا قد جئتُك به ، فرُدَّ علىَّ دانقِى وخُذْ ثمَنه من الذى باعَنى [(٢)] ! ولا واللهِ إنْ تُبصرُ من السَّنانير قليلاً ولا كثيراً !

قال الدلاّل : انظروا بأىِّ شئٍ تستقيلُنى [(٣)] ؟! ولا واللهِ إنْ فى ناحيتنا فتًى هو أبْصرُ بسِنّوْرٍ منى ، وذلك مِنْ مَنٍّ سيِّدى ومولاى [(٤)] !

فقلت للدلاَّل : ولا والله إنْ فى هذه الناحية فتًى هو أشكَرُ للهِ منك !

---

(١) الدانق بفتح النون وكسرها : سدس الدرهم .

(٢) أى باعنى إياه .

(٣) استقاله : طلب إليه أن يقيله ، أى يفسخ ما بينه وبينه .

(٤) أراد : من نعمة الله وفضله .

١١٢

أعاجيب العقرب

والعقرب تُجعَل فى جوف فَخّار مشدودِ الرأس ، مطيَّنِ الجوانب ، ثم يوضَع الفخّار فى تنُّور ، فإذا صارت العقربُ رَماداً سُقِىَ مِنْ ذلك الرَّمادِ مَن به الحصاةُ مقدارَ دانق [١] .

وقال حُنَين : وقد يُسقَى منه الدانِقَ وأكثر ، فيفَتِّت الحصاةَ من غير أنْ يضرَّ بشئ من الأعضاء والأخلاط . وخير الدواء ما قَصَد إلى العضو السقيم ، وسلمتْ عليه الأعضاءُ الصحيحة .

وقال يحيى [٢] : وقد تَلسع أصحابَ ضروبٍ من الحمَّيَات العقاربُ فيُفيقون ، وتلسع الأفاعىَ فتموت . ومنها ما يلسع بعضُها بعضاً فيموتُ الملسوع ، فهى من هذا الوجه تكفى الناس مؤونةً عظيمة . وتُلقَى العقربُ فى الدُّهن وتُتْرَكُ فيه ، حتّى يأخذَ الدُّهنُ منها ويمتصَّ ويجتذبَ قواها كلَّها بعد الموت ، فيكون ذلك الدهنُ يفرِّق الأورام الغِلاظ . وقد عَرَف ذلك حُنَين .

ومن أعاجيبها أنَّها لا تسبح ولا تتحرّك إذا ألقيت فى الماء كيف كان الماء ، ساكناً أو جارياً .

---

(١) الدانق : سبق تفسيره فى ص ١٩٢ .

(٢) يحيى بن خالد البرمكى .

والعقرب تطلُب الإنسانَ وتقصِد نحوه ، فإذا قصَد نحوها فرّت وهربت . وتقصِد أيضاً نحو الإنسان ، فإذا ضربتْه هربَتْ هربَ من قد أساء ، وتعلم أنها مطلوبة .

* * *

وريحُ العقارب إذا شُوِيتْ مثلُ ريح الجراد .

وما زلتُ أظنُّ أن الطَّعمَ أبداً يتْبع الرائحة ، حتَّى حقّقَ ذلك عندى بعضُ من يأكلها مشويّةً ونِيَّةً (١) ، أنّه ليس بينها وبين الجراد الأعرابىِّ السَّمينِ فرق .

وزعم لى بَخْتَيَشُوعُ بن جبريل : أنه قد عايَنَ الخَرْق الذى فى إبرة العقرب . وإن كان صادقاً كما قال فما فى الأرض أحدٌ بصراً منه . وإنّه لبعيد ، وما هو بمستنكَر .

وفى العقارب أعجوبة أخرى ؛ لأنه يقال إنّها مائية الطباع ، وإنّها من ذوات الذَّرء (٢) والإنسالِ وكثرة الولد ، كما يعترى ذلك السَّمكَ والضبَّ والخنزيرة ، فى كثرة الخنانيص (٣) .

قال : ومع ذلك إن حَتْفَها (٤) فى أولادها ، وإنَّ أولادَها إذا بلَغْنَ وحان وقتُ الولادة ، أكلنَ جلدَ بطنها من داخل ، حتى إذا خرقْنَه خرجْنَ منه وماتت الأمّ .

* * *

---

(١) بكسر النون ، أى غير ناضجة .
(٢) الذرء : النسل .
(٣) جمع خنوص ، كسِنَّور ، وهو ولد الخنزير .
(٤) الحتف : الهلاك .

وقد يطأ الإنسان على العقرب وهى ميّتة ، فتغترزُ إبرتُها فى رجله فيلقى الجهدَ الجاهد ، وربَّما أمرضَتْ ، وربَّما قتلَتْ .

والعقارب القاتلة تكون فى موضعين : بشَهْرَزُور وقرى الأهواز ، إلاَّ أنَّ القواتلَ التى بالأهواز جرّارات (١) . ولم نذكر عقارب نَصِيبِينَ (٢) لأنَّ أصلها – فيما لا يشكُّونَ فيه – من شَهْرَزُور ، حين حُوصِرَ أهلُها ورُموا بالمجانيق (٣) ، وبكيزانٍ محشوَّة من عقارب شهرزور ، حتّى توالدَت هناك ، فأعطَى القومُ بأيديهم .

* * *

قال : والعقارب تُستخرج من بيوتها بالجراد ، تُشَدُّ الجرادة فى طرف عود ثم تُدخَل الجحر ، فإذا عاينَتْها تعلَّقَتْ بها ، فإذا أخرجَ العُودُ خرجت العقربُ وهى متعلِّقة بالجرادة .

فأما إبراهيم بن هانىء فأخبرنى أنّه كان يُدخِل فى جُحرها خُوطَ كُرّاث (٤) فلا يبقى منها عقربٌ إلا تَبِعتْه .

* * *

ومن العقارب طيّارات ، وجرّارات ، ومعقَّفاتٌ ، وخضرٌ ، وحُمر .

* * *

وللعقرب ثمانى أرجل . وهى حريصةٌ على أكل الجراد . وكذلك الحيَّات ، وما أكثَرَ ما تلدغ وتَنهش صاحبَ الجراد .

---

(١) الجرارات : عقارب صغار تجر أذنابها إذا مشت .

(٢) نَصيبِين : مدينة من بلاد الجزيرة .

(٣) جمع مَنْجَنيق ، وهى آلة من آلات الرمى بالحجارة والنفط ونحوها ، فى الحرب .

(٤) الخوط ، بالضم : القضيب من النبات .

١١٣

العنكبوت

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا مِن دُون اللهِ أولياءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتَّخَذتْ بيتاً وإنَّ أوْهَنْ البيوتِ لَبيتُ العَنكَبوتِ لو كانوا يَعلَمون ﴾ .

ثم قال على إثر ذلك : ﴿ وتِلكَ الأمثالُ نَضرِبُها لِلنّاسِ وما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمُون ﴾ ، يريد ذكرَه بالوَهَن . وكذلك هو . ولم يُرِدْ إحكام الصَّنعة فى الرِّقّة والصَّفاقة (١) ، واستواء الرُّقعة ، وطول البقاء ، إذا كان لا يعمل فيه تعاوُر الأيام ، وسَلِم من جِنايات الأيدى .

* * *

قال : ومن أجناس العنكبوت جنسٌ ردىء التدبير ؛ لأنه ينسج سِتره على وجه الأرض والصُّخور ، ويجعله على ظهر الأرض خارجاً ، وتكون الأطراف داخلة ، فإذا وقَعَ عليه شيءٌ ممّا يغتذيه مِنْ شكل الذِّبّان وما أشبَهَ ذلك ، أخَذَه .

وأما الدَّقيق الصَّنعةِ فإنّه يصعِّد بيتهَ ويمدُّ الشعرةَ ناحيةَ القرون والأوْتاد ، ثم يسدِّى من الوسط (٢) ، ثم يهيِّىء اللُّحمة (٣) ويهيِّىء مِصيدتَه

---

(١) الصفاقة : الكثافة .

(٢) أى يصنع السداة ، وهى الخطوط الأساسية .

(٣) اللحمة : ما يداخل به بين خيوط السداة .

فى الوسط ، فإذا وقَعَ عليها ذبابٌ وتحرَّكَ ما هناك ، ارتَبط ونشِبَتْ به ، فيتركُه على حاله ، حتّى إذا وثِق بوهْنه وضعفه ، غلَّهُ [١] وأدخله إلى خِزانته . وإن كان جائعاً مصَّ من رطوبته ورمى به ؛ فإذا فرغ رمَّ ما تشعَّثَ مِن نَسْجه .

وأكثر ما يقع على تلك المِصيدة من الصَّيد عند غيبوبة الشَّمس .

وإنَّما تنسِج الأنثى . فأمّا الذكر فإنّه ينقضُ ويفسِد .

وولدُ العنكبوت أعجب من الفَرُّوج ، الذى يظهر إلى الدُّنيا كاسباً [٢] محتالاً مكتفيا .

قال : وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعةَ يُولد !

قال : والذى ينسج به لا يخرُج من جوفه ، بل من خارج جَسَده .

وقال الحُدَّانىّ :

كأنَّ قفا هارونَ إذْ قام مدبراً ... قفا عنكبوتٍ سُلّ مِنْ دُبْرها غَزْلُ

فالنحل ، والعنكبوت ، ودودُ القزّ ، تختلف في جهات ما يقال إنّه يخرجُ منها .

ومن العناكب جنسٌ يصيد الذُّبابَ صيدَ الفهود ، وهى الذى يسمَّى « اللَّيث » . وله ستُّ عيون . وإذا رأى الذبابَ لَطِئ بالأرض [٣] ،

---

(١) غله : أوثقه وقيده .

(٢) أى يكسب قوته بنفسه .

(٣) لطئ بالأرض : لصق بها .

وسكَّن أطرافَه ، وإذا وثب لم يخطىء . وهو من آفات الذِّبّان ، ولا يَصيد إلاّ ذِبّانَ الناس .

* * *

والعناكب ضروب ، فمنها هذا الذى يقال له اللَّيث .

ومنها أجناسٌ طِوالُ الأرجل ، والواحدة منها إذا مشَتْ على جلد الإنسان تبثَّر (١) . ويقال إنّ العنكبوتَ الطويلَة الأرجُل إنّما اتّخذت بيتاً وأعدَّت فيه المصايد والحبائل ، والخيوطَ التى تلتفُّ على ما يدخل بيتَها من أصناف الذِّبّان وصغار الزّنابير ؛ لأنَّها حين علمتْ أنها لابدّ لها من قُوت ، وعَرَفتْ ضعفَ قوائمها ، وأنها تَعْجِزُ عما يقوى عليه الليثُ ، احتالت بتلك الحيَل .

ومنها جنسٌ ردىء ، مشنوءُ الصورة (٢) ، غليظُ الأرجل ، كثيراً ما يكون فى المكان التَّرِب من الصَّناديق والقماطر والأسفاط .

---

(١) تبثر : ظهرت فيه بثور .

(٢) المشنوء : البغيض المكروه .

١١٤

النحـل

والنَّحل تجتمع فتقسم الأعمالَ بينها ، فبعضُها يعمل الشَّمَع ، وبعضُها يعمل العسَل ، وبعضُها يبنى البيوت ، وبعضُها يستقى الماءَ ويصبُّه فى الثُّقْب (١) ، ويلطِّخه بالعسل .

ومنه ما يبكِّر إلى العمل . ومن النحل ما يكفُّه (٢) ، حتَّى إذا نهضَتْ واحدةٌ منها طارت كلُّها . يقال : « بَكَرَ بُكورَ اليعسوب » ، يريد أميرَ النحل ؛ لأنَّها تتبعه غُدوةً إلى عملها .

ومنها ما ينقُل العسلَ من أطراف الشجر ، ومنها ما ينقل الشَّمعَ الذى تَبنِى به . فلا تزال فى عملها حتّى إذا كان الليلُ آبت إلى مآبِها .

---

(١) الثقب ، بالضم : جمع ثقبة ، وتجمع أيضا على ثقب ، بفتح فضم .

(٢) يكفُّه : يجمعه .

العسل

وإذا أُلقِىَ فى العسلِ اللَّحمُ الغريضُ (١) فاحتاج صاحبُه إليه بعد شهر أخرجَه طريًّا لم يتغيَّرْ .

وإذا قطَرَت منه قطرةٌ على وجه الأرض ، فإن استدارَ كما يستدير الزئبقُ ولم يتفَشَّ (٢) ولم يختلط بالأرض والتُّراب ، فهو الصحيح . وأجودُه الذَّهَبى .

ويزعُم أصحابُ الشَّرابِ أنهم لم يَرَوا شراباً قطُّ ألذَّ ولا أحسنَ ولا أجمَع لما يريدون ، مِن شراب العسل الذى يُنْتَبذُ بمصر ، وليس فى الأرض تُجّار شَرابٍ ولا غيرِ ذلك أيْسَر منهم .

وفيه أعجوبةٌ : وذلك أنّهم لا يعملونه إلاّ بماء النيل أكدرَ ما يكون . وكلَّما كان أكدر كان أصفَى ، وإن عملوه بالصافى فَسَد .

وقد يلقى العسلُ على الزبيب ، وعلى عصير الكرْم فيجوِّدُهما .

وهو المثل فى الأمور المرتفعة ، فيقولون : ماءٌ كأنه العسل . ويَصِفون كلَّ شئ حُلوٍ فيقولون : كأنّه العَسل ، ويقال هو معسول اللسان . وقال الشاعر :

لسانك معسولٌ ونفسُك شَحّةٌ ودون الثريّا من صديقِك مالُكَا (٣)

---

(١) الغريض : الطرى .

(٢) التفشى : تمشى السائل وانتشاره .

(٣) شَحّة : شحيحة بخيلة .

١١٦

الحُبَارَى

وللحُبارَى خِزانةٌ بين دُبُره وأمعائه ، له فيها أبداً سَلْحٌ رقيقٌ لزِج ، فمتى ألحّ عليها الصَّقرُ ، وقد علمَتْ أنّ سُلاحَها (١) من أجود سِلاحِها ، وأنَّها إذا ذرقَتْه بَقِىَ كالمكتوف ، أو المدبَّق المقيَّد (٢) . فعند ذلك تجتمع الحُبارَياتُ على الصَّقْر ، فينتِفن رِيشَه كلَّه طاقةً طاقة . وفى ذلك هلاكُ الصَّقْر .

وإنَّما الحبارى فى سُلاحها كالظَّرابىِّ (٣) فى فُسائها ، وكالثعلب فى سُلاحه،وكالعقرب فى إبرتها ، والزُّنبور فى شَعْرته ، والثَّورِ فى قرنه ، والدِّيكِ فى صيصيَتِه ، والأفعى فى نابها ، والعقابِ فى كفِّها ، والتِّمساحِ فى ذنبه .

وكلُّ شئٍ معه سِلاحٌ فهو أعلَمُ بمكانه ، وإذا علم السِّلاحَ كان أبصرَ بوجوه الهرب ، كالأرنب فى إيثارها للصَّعْداء (٤) لقصر يدَيْها ، وكاستعمال الأرانب للتَّوبير (٥) والوطءِ على الزَّمَعات ، واتخاذ اليرابيع القاصعاءَ ، والنَّافِقاء ، والدَّامّاءَ ، والرَّاهِطَاء (٦) .

---

(١) السلاح ، بالضم : النجو والذرق .

(٢) المدبق : الذى ألزق بالدبق ، وهو حمل شجرة فى جوفه كالغراء يلزق بجناح الطائرة فيصاد به .

(٣) الظرابى : جمع ظربان ، وهى دابة منتنة .

(٤) الصعداء : الأرض يشتد صعودها على الراقى .

(٥) التوبير : الوطء على مآخير كفيها .

(٦) كلها أسماء لجحَرة اليربوع .

وقال الشاعر :

وهم تركوكَ أسلحَ من حُبارَى　　رأت صقراً وأشردَ من نعامِ

يريد : نعامة . وقال قيس بن زهير :

مَتَى تتحزَّمْ بالمناطــق ظالماً　　لتجرى إلى شأوٍ بعيدٍ وتسبحِ (١)
تكن كالحبارَى إن أُصيبتْ فمثلُها　　أصيبَ وإنْ تُفْلِتْ من الصَّقْرِ تسلحِ

وقال ابن أبى فَنَنٍ يصف ناساً من الكُتّابِ فى قصيدةٍ له ذكر فيها خيانتهم :

رأَوْا مالَ الإمــام لهم حلالاً　　وقالوا : الدينُ دينُ بَنِي صُهارَى
ولـو كانـوا يُحاسبُهـم أمينٌ　　لقد سَلَحوا كما سَلَح الحُبارَى

والخَرَب : ذكر الحبارى . والنَّهار : فرخ الحبارى . وفرخُها حارضٌ (٢) ساقطٌ لا خيرَ فيه .

---

(١) المناطق : جمع مِنطقة ، هى ما يشد به الوسط . والشأو : الغاية والأمد .

(٢) الحارض : الضعيف البِنْية .

١١٧

الضفادع

وأنا ذاكرٌ من شأن الضِّفدِع من القول ما يحضُر مثلى ، وهو قليلٌ فى جَنْب ما عند علمائنا ، والذى عند علمائنا لا يُحَسُّ فى جَنْبِ ما عند غيرهم من العلماء ، والذى عند العلماء قليل فى جنب ما عند الأنبياء ، والذى عند الأنبياء قليل فى جنب ما عند الله تبارَكَ وتعالى .

من ذلك : الضِّفدع لا يصيحُ ولا يمكنُه الصِّياحُ حتى يُدخِلَ حنكَه الأسفلَ فى الماء ، فإذا صار فى فمه بعضُ الماء صاح ، ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقاً إذا كُنَّ خارجاتٍ من الماء .

والضفادع من الحيوان الذى يعيش فى الماء ، ويبيض فى الشَّطِّ . مثل الرَّق [١] والسُّلَحفاة ، وأشباه ذلك .

والضفادع تنِقُّ ، فإذا أبصرت النارَ أمسكَت .

وفيها أعجوبة أخرى ، وذلك أنّا نجد من كبارها وصغارها الذى لا يحْصَى فى غِبِّ المطر [٢] إذا كان المطر دِيمةً [٣] ، ثم نجدها فى المواضع التى ليس بقُربها بحرٌ ولا نهر ، ولا حَوض ولا غدير ، ولا وادٍ ولا بير ؛ ونجدها فى

---

(١) الرق ، بفتح الراء : العظيم من السلاحف المائية .

(٢) غِبّ المطر ، أى بعده .

(٣) الدِّيمة : المطر الدائم لا ينقطع .

الصَّحاصِح الأَمَاليس (١) وفوقَ ظهور مساجِدِ الجماعة ، حتّى زعَمَ كثِيرٌ من المتكلّفين ومن أهل الجسارة ممَّن لا يَحتْفِل بسوء الحال عند العلماء ، ولا يكترثُ للشَّكّ ، أنّها كانت فى السَّحاب .

والضّفادع من الخلق الذى لا عِظَام له .

وتزعم الأعرابُ أنَّ الضفدِع كان ذا ذنَب ، وأن الضَّبَّ سلبَه إيَّاه . وذلك فى خرافةٍ من خُرافات الأعراب .

ويقول آخرون : إنّ الضِّفْدِع إذا كان صغيرا كان ذا ذنَب ، فإذا خرجت له يدان أو رجلان سقط .

والأُسْدُ تنتابها فى الشرائع (٢) ، وفى مَناقع المياهِ والآجام والغِيَاض (٣) ، فتأكلُها أكلاً شديدا ، وهى من الخَلْق المائىّ الذى يصبِر عن الماء أياماً صالحة .

والضفادع تعظُم ولا تَسْمَن ، كالدُّرّاج والأرانب . فإنَّ سِمَنَهُما أن يحتملا اللحم .

وفى سواحِلِ فارسَ ناسٌ يأْكلونها .

---

(١) الصحصح : جمع صحصاح ، وهو الأرض الجرداء المستوية . والأماليس : جمع إمليس ، هى التى ليس بها شجر ولا كلأ ولا نبات ولا وحش .

(٢) جمع شريعة ، وهى مورد الماء .

(٣) الأجمة : الشجر الكثير الملتفّ . والغَيضة : مُجتمع الشجرِ فى الماء القليل .

١١٨

صيد طير الماء

وسألتُ بعضَ من اصطاد فى يوم واحدٍ مائة طائر من طير الماء فقلت له : كيف تصنعون ؟ قال : إنَّ هذا الذى تراه ليس من صَيْد يومٍ واحد ، وإنَّ كلَّه صِيدَ فى ساعة واحدة . قلت له : وكيف ذاك ؟ قال : وذلك أنّا نأتى مَناقعَ الماء ومواضعَ الطير ، فنأخذُ قَرْعةً يابسةً صحيحةً ، فنرمى بها فى ذلك الماء ، فإذا أبصرها الطَّيرُ تدنو منه بِدَفْع الرِّيح لها فى جهته مرّةً أو مرّتين فزِع ، فإذا كثُر ذلك عليه أنِسَ ، وإنّما ذلك الطير طيرُ الماء والسَّمكِ [١] فهى أبداً على وجه الماء . فلا تزال الرِّيحُ تقرِّبها وتباعدها ، وتزداد هى بها أُنْساً ، حتَّى ربّما سقط الطائرُ عليها ، والقرعةُ فى ذلك إمّا واقفةٌ فى مكان ، وإما ذاهبةٌ وجائية ، فإذا لم نَرَها تَنفِر منها أخذْنا قرعةً أُخرى ، أو أخذناها بعَينها وقطعنا موضعَ الإبريق منها [٢] وخرقنا فيها موضع عينين ، ثُمّ أخذَها أحدُنا فأدخلَ رأسَه فيها ثم دخل الماءَ ، ومَشَى فيه إليها مشياً رُوَيداً فكلَّما دنا من طائرٍ قبضَ على رجليه ثم غمسه فى الماء ودقَّ جناحَه وخلاَّه ؛ فبَقىَ طافياً فوق الماءِ يَسْبَح برجليه ولا يُطيق الطَّيَران ، وسائرُ الطير لا يُنكِر انغماسَه .

ولا يزال كذلك حتَّى يأْتىَ على آخر الطَّير ، فإذا لم يَبقَ منها شىءٌ رمَى بالقَرعة عن رأسه ، ثم نلقُطها ونجمعُها ونحملها .

---

(١) أى طير السمك ، الذى يغتذى بالسمك .

(٢) أراد به طرفها الدقيق .

أقوال فيما يضر من الأشياء

وروى الأصمعيّ وأبو الحسن ، عن بعض المشايخ قال : ثلاثة أشياءَ ربَّما صرَعت أهلَ البيتِ عن آخرهم : أكل الجراد ، ولحوم الإبل ، والفُطر من الكمأة (١)

وقال غيرهما : شربُ الماءَ فى الليل يورث الخَبل ، والنَّظَر إلى المحتضَر يورث ضعفَ القلب ، والاطِّلاع فى الآبار العاديّة ينقض التركيب (٢) ، ويسوِّل مصارعَ السُّوء .

فأمّا الفُطْر الذى يُخلَق فى ظلّ شجر الزيتون فإنَّما هو حَتْف قاضٍ ، وسمٌّ ناقع .

وكلُّ شيءٍ يُخلق تحتَ ظلال الشجَر يكونُ رديئا ، وأردؤه شجر الزيتون ، وربَّما قَتَل ، وإن كان مما اجتنَوه من أوساط الصحارى .

قالوا : وممَّا يقتلُ : الحَمَّامُ على المِلْأة (٣) ، والجِماع على البِطْنة ، والإكثار من القديد اليابس (٤)

---

(١) الفطر : جنس من الكمأة أبيض عظام .

(٢) العادية : القديمة ، كأنها منسوبة إلى عاد . ينقُض : يُفسِد .

(٣) الملأة : الامتلاء .

(٤) القديد : ما قطع من اللحم وشُرِّر ، أى بسط فى الشمس ، واللحم المملوح المجفف فى الشمس .

وقال الآخر : شُرب الماء البارد على الظمأ الشديد إذا عجّل الكَرْع ، وعظّم الجرعَ ، ولم يقطع النَّفس ، يَقتُل .

قالوا : وثلاثٌ تورث الهُزال : شرب الماء على الرِّيق ، والنوم على غير وِطاء [١] ، وكثرة الكلام برفع الصَّوت .

وقالوا : وأربعة أشياء تُسرع إلى العقل بالإفساد : الإكثار من البصَلِ ، والباقلَّى [٢] ، والجماعِ ، والخُمَار [٣] .

وقال أبو إسحاق : ثلاثة أشياء تُخلِق العقلَ وتُفسِد الذِّهن : طول النَّظَر فى المرآة ، والاستغرابُ فى الضَّحك ، ودوام النظَر إلى البَحْر .

وقال مُعَمَّر [٤] : قُطِعت [٥] فى ثلاثة مجالسَ ، لم أجد لذلك عِلةً إلاّ أنّى أكثرت فى أحد تلك الأيّام من أكل الباذِنجان ، وفى اليوم الآخَر من أكل الزَّيتون ، وفى اليوم الثالث من الباقلَّى .

---

(١) الوطاء ، بالكسر . خلاف الغطاء .

(٢) الباقلى : الفول .

(٣) الخُمار ، بالضم ، أصله صداع الخمر وأذاها .

(٤) معمر بن عَبّاد السلمى ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة .

(٥) يقال قطعه قطعا : بكته بالحجة فانقطعت حجته .

القول فى القطا

تقول العرب : « أصدَقُ مِن قطاة » و « أهدَى من قَطاة » !

وفى القطا أعجوبةٌ ، وذلك لأنَّها لا تضع بيضُها أبداً إلاّ أفراداً ، ولا يكون بيضها أزواجاً أبداً . وقال أبو وَجْزَة :

وهُنَّ يَنْسِبْنَ وَهْناً كلَّ صادقةٍ باتت تُباشِرُ عُرماً غيرَ أزواجِ (١)

والعُرْم التى عَنَى : بيضُ القطا ؛ لأنَّها منقَّطة . وقال الأخطل :

شفَى النفسَ قتلَى من سُليمٍ وعامرٍ ولم يَشْفِها قتلَى غَنيٍّ ولا جَسْرِ (٢)

ولا جُشَمٍ شرٌّ القبائل إنّهم كبيض القطا ، ليسوا بسُودٍ ولا حُمْرِ

وقال مَعْقِلِ بن خُوَيلد :

أبا مَعْقِلٍ لا تُوطِئَنْكُمْ بَغَاضتِى رءوسَ الأفاعى فى مَراصِدِها العُرمِ (٣)

يريد : الأفاعى العُرِم فى مراصدها . وهى منقَّطة الظهور .

وما أكثر ما تبيض العُقابُ ثلاثَ بيضات ، إلا أنّها لا تُلحِم ثلاثةً (٤) بل تُخرج منهنَّ واحدة .

---

(١) ينسبن : أى يصحن بأسمائهن ، وهو صوتهن : قطا قطا .

(٢) غنى وجسر ، بفتح الجيم : قبيلتان .

(٣) البَغَاضة : البغض .

(٤) ألحمه : أطعَمه اللحم . ثلاثة ، أى من فراخها .

وربّما باضت الحمامة ثلاث بَيْضات ، إلاّ أنّ واحدةً تَفْسُد لا محالة .

ويشبَّه مشيُ المرأة إذا كانت سمينةً غير خرَّاجةٍ طوّافة ، بمشى القطاة فى القَرمَطة والدَّلّ (١) . وقال ابن مَيَّادة :

إذا الطِّوالُ سَدَونَ المشْىَ فى خَطَلٍ　　قامت تُريك قَوَاماً غيرَ ذى أوَدِ (٢)
تَمشِى ككدريّةٍ فى الجوِّ فاردةٍ　　تَهدِى سُروبَ قطاً يَشْرَبْنَ بالثَّمَدِ (٣)

وقال جِرانُ العَود :

فلمّا رأينَ الصُّبحَ بادرنَ ضوءَه　　رسيمَ قَطا البَطْحاءِ أو هُنَّ أقطَفُ (٤)

وقال الكميت :

يمشين مَشْىَ قَطَا البُطَاحِ تأوُّداً　　قُبَّ البُطونِ رواجحَ الأكفالِ (٥)

وقال الآخر فى غير هذا المعنى :

كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغْدَى　　بلـــيلى العامريّـــةِ أو يُرَاحُ
قَطـاةٌ غرَّهـا شَرَكٌ فبـــاتت　　تُجاذبُه وقد عَلِق الجَنـاحُ (٦)

---

(١) القرمطة : تقارُب الخطو . والدل : السكينة والوقار وحسن السيرة .

(٢) السدو : التذرُّع فى المشى واتساع الخطو . والخَطَل : التلوى والتبختر . والأود : العوج .

(٣) الكُدرىّ : ضرب من القطا ، قصار الأذناب ، غبْر الألوان ، رُقْش الظهور . فاردة : منقطعة عن أخواتها ، وذلك لسرعتها . سُروب : جمع سِرب . والثمد : الماء القليل . يشربن به ، أى منه ، وفى الكتاب : « عينا يشرب بها عباد الله » .

(٤) ضمير بادرن للنسوة . والرسيم : ضرب من السير سريع مؤثر فى الأرض . أقطف ، أى أكثر قطفا . والقَطَف : تقارب الخطو .

(٥) البطاح ، بالضم : موضع . قب : جمع قباء ، وهى الضامرة الدقيقة الخصر .

(٦) ويروى : « عزها شرك » ، أى غلبها .

وقال آخر (١) :

وكنَّا كزوجٍ من قطاً بمفـازةٍ   لدى خَفْضِ عيشٍ مُونِقٍ مُورِقٍ رغْدِ
فخانَهما ريبُ الزَّمـانِ فأُفـرِدا   ولم تَرَ عينى قَطُّ أقبَحَ من فرْدِ

وفى صدق القطاة يقول الشاعر :

وصادقةٍ ما خَبَّرتْ قد بعثتُها   طُروقاً وباقى اللَّيل فى الأرض مُسْدِفُ (٢)
ولو تُرِكَتْ نامت ، ولكن أعَشَّها   أذًى من قِلاصٍ (٣) كالحَنِىِّ المُعطَّفِ

وتقول العرب : « لو تُرِكَ القطا ليلاً لنامَ » .

ويقال : أعششْتُ القومَ إعشاشاً ، إذا نزلتَ بهم وهم كارهونَ لك فتحوَّلوا عن منزلهم .

وقال الكميت :

لا تكذِبُ القولُ إن قالت قَطَا صدقَتْ
إذ كلُّ ذى نسبةٍ لابدَّ يَنتحِلُ

وقال مُزاحمٌ العُقَيلىّ فى تجاوب القطاة وفرخها :

فنادت وناداها وما اعوجَّ صدرُها   بمثل الذى قالت له لم يُبدِّلِ

---

(١) هو أبو دلامة الشاعر العباسى .

(٢) طروقا : ليلا . مسدف : مظلم .

(٣) قلاص : جمع قلوص ، وهى الفتية من الابل . الحنى : جمع حنية ، وهى القوس .

١٢١

الوحشيُّ والأهليُّ من الحيوان

وسنقول فى الأجناس التى يكون فى الجنس منها الوحشيُّ والأهلى ، كالفيَلَة والخنازير ، والبقر ، والحمير ، والسَّنانير .

والظِّباء قد تَدجُن وتُوَلَّد ، على صعوبةٍ فيها . وليس فى أجناس الإبل جنسٌ وحشيٌّ إلاّ فى قول الأعراب .

ومما يكون أهليًّا ولا يكون وحشيًّا ، وهو سَبُع : الكلاب . وليس يتوحَّش منها إلاّ الكلب الكَلِب . فأمّا الضِّباع والذئاب ، والأُسْد ، والنُّمور ، والبُبور ، والثعالب ، وبناتُ آوَى ، فوحشيّةٌ كلها .

وقد يقلَّم الأسد (١) وتُنزَع أنيابُه ، ويطول ثَواؤه (٢) مع الناس حتّى يَهرَمَ فى ذلك ، ويُحِسَّ بعجزه عن الصَّيد ، ثم فى ذلك لا يُؤتَمن عُرامه (٣) ولا شُروره ، إذا انفردَ عن سُوّاسِه ، وأبصر غيضةً قُدّامَها صحراء .

* * *

وليس يَصِير السبعُ من هذه الأجناس ، أو الوحشيُّ من البهائم ، أهليًّا بالمُقامِ فيهم ، وهو لا يقدر على الصَّحارى ، وإنما يصير أهليًّا إذا تَركَ منازلَ

---

(١) أى تقطع أظافره .

(٢) الثواء : الإقامة .

(٣) عرامه : شدته وحدته .

الوحش وهى له مُعْرِضة .

وقد تتسافَد وتتوالد فى الدُّور وهى بعدُ وحشية ، وليس ذلك فيها بعامّ .

ومن الوحش ما إذا صار إلى الناس وفى دُورِهم ترك السِّفاد ، ومنها ما لا يَطعَم البتّةَ بوجهٍ من الوجوه ، ومنها ما يُكرَهُ على الطُّعْم (١) ويُدخل فى حَلْقهِ كالحيَّة ، ومنها ما لا يَسفَد ولا يدجُن ، ولا يَطعم ولا يشرب ، ولا يصيح حتّى يموت . وهذا المعنى فى وحشىِّ الطيرِ أكثرُ .

والذى يُحكى عن السُّورانى القَنَّاص الجبلىّ ، ليس بناقضٍ لما قُلنا ، لأنَّ الشيءَ الغريب ، والنادرَ الخارجىّ ، لا يُقاس عليه . وقد زعموا أنه بَلغ من حِذقه بتدريب الجوارح وتضريَتها أنّه ضرَّى ذئباً حتَّى اصطاد به الظباءَ وما دونها ، صيداً ذريعاً ، وأنّه ألَّفه حتى رجَع إليه من ثلاثين فرسخا ، وقد كان بعضُ العمال سَرَقه منه . وقد ذكروا أنّ هذا الذئبَ قد صار إلى العسكر . وأن هذا السُّورانىَّ ضرَّى أسداً حتّى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً . وأنّه ضرَّى الزنابير فاصطاد بها الذِّبّان .

وكلُّ هذا عَجَب ، وهو غريبٌ نادر ، بديعٌ خارجىّ .

---

(١) الطعم ، بالضم : الطعام .

١٢٢

الضب

ومن كَيْس الضبّ أنّه لا يتّخذ جُحره إلاّ فى كُدْية – وهو الموضع الصُّلب – أو فى ارتفاعٍ عن المسِيل والبسيط ، ولذلك توجد براثنُه ناقصةً كليلة ، لأنّه يَحفر فى الصَّلابة ، ويعمِّق الحَفْر . ولذلك قال خالد بنُ الطَّيفان :

ومولًى كمولى الزِّبرقانِ دَمَلتُه ... كما دُمِلتْ ساقٌ تُهاضُ بها كسرُ (١)
إذا ما أحالتْ والجبائرُ فوقَها ... مَضَى الحولُ لا بُرءٌ مُبينٌ ولا جَبْرُ (٢)
تراه كأنَّ اللهَ يجدع أنفَــــه ... وأُذْنيه إنْ مولاه ثابَ له وَفْرُ (٣)
ترى الشرّ قد أفنى دوابرَ وجهه ... كضبّ الكُدَى أفنَى براثنَه الحفرُ (٤)

* * *

ولمَّا علم أنه نسَّاءٌ سَيِّئ الهداية ، لم يَحفِر وِجارَه إلاّ عند أكمةٍ أو صخرةٍ أو شجرة ؛ ليكون متى تباعَدَ مِن جُحره لطلب الطُّعم ، أو لبعض الخوف ، فالتفتَ ورآهُ ، أحسَن الهداية إلى جُحْره . ولأنّه إذا لم يُقِم عَلماً فلعلّه أن يلِجَ على ظَرِبان أو وَرَل ، فلا يكون دون أكلِهِ له شئ .

---

(١) دمَله : أصلحه . تهاض : تكسر بعد الجبور .

(٢) أحالت : مضى عليها الحول .

(٣) ثاب : عاد ورجع . والوفر : المال والمتاع الكثير الوافر .

(٤) الدوابر : الأصول . ويروى : « دوائر » .

فقالت العرب : « خَبٌّ ضبٌّ » ، و : « أخبُّ من ضبّ » ، و : « أخدَعُ من ضبّ » ، و : « كلُّ ضبٍّ عند مِرْداته (١) » .

وإذا خدَعَ فى زوايا حَفِيرته فقد توثّق لنفسه .

* * *

وقال : ثلاثة أشياء لا يتمُّ لها التدبير إذا دخلت الأسراب والأنفاق ، والمكامن والتوالج (٢) ، حتّى يغصَّ بها الخرق (٣) .

فمن ذلك أنَّ الظَّرِبان إذا أراد أن يأكل حِسَلَة الضبّ (٤) ، أو الضبَّ نفسَه ، اقتحم جُحرَ الضبّ مستَدْبِراً ، ثم التمسَ أضيقَ موضعٍ فيه ، فإذا وجده قد غَصّ به ، وأيقَنَ أنّه قد حال بينه وبين النَّسيم ، فَسَا عليه ، فليس يجاوز ثلاثَ فَسَواتٍ حتّى يُغْشَى على الضبّ ، فيأكله كيف شاء .

والآخر : الرجلُ إذا دخلَ وِجارَ الضبُع ومعَه حبل ، فإنْ لم يَسُدَّ ببدنه وثَوبِه جميع المَخارق والمنافذ ، ثمّ وصلَ إلى الضبع من الضِّياء بمقدار سَمِّ الإبْرة ، وثبتْ عليه فقطَّعتْه ، ولو كان أشد من الأسد .

والثالث : أن الضبّ إذا أراد أن يأكل حُسُولَه وقفَ لها من جُحرها فى أضيقِ موضعٍ من منفَذِه إلى خارج ، فإذا أحكم ذلك بدأ فأكَلَ منها ، فإذا امتلأ جوفُه انحطَّ عن ذلك المكان شيئاً قليلا ، فلا يُفلتُ منه شىءٌ من ولدِهِ إلاّ بعدَ أن يَشْبَعَ ويزولَ عن موضعه فيجد منفذاً .

---

(١) المرداة : الصخرة يرمى بها ، والعلم الذى ينصبه عند جحره .

(٢) التوالج : جمع تَولج ، وهو كِناس الظبى أو الوحش ، الذى يلج فيه .

(٣) يغص بها : يضيق .

(٤) الحسلة : جمع حسل ، ولد الضب .

١٢٣

جملة القول فى نصيب الضّباب من الأعاجيب والغرائب

أوّلُ ذلك طُول الذَّمَاء ، وهو بقيّة النَّفْس ، وشدَّة انعقاد الحياة والرُّوحِ بعد الذَّبح وهَشْمِ الرأس ، والطعنِ الجائف النافذ [١] ، حتّى يكون فى ذلك أعجبَ من الخنزير ، ومن الكلب ، ومن الخنفساء . وهذه الأشياءِ التى تفردتْ بطول الذَّماء .

ثمَّ شارك الضبُّ الوزغةَ والحيّة ؛ فإن الحيّةَ تُقطَع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمَتْ من الذَّرّ [٢] .

فجمَعَ الضبُّ الخصلتين جميعا . إلاَّ ما رأيتُ فى دَخّال الأذُن [٣] من هذه الخَصلة الواحدة ؛ فإنّى كنت أقطعُه بنصفين ، فيمضى أحدُ نصفيه يَمنةً ، والآخر يَسْرةً ، إلاَّ أنّى لا أعرف مقدار بقائهما بعد أن فاتا بَصَرِى .

ومن أعاجيبه طولُ العمر . وذلك مشهورٌ فى الأشعار والأخبار ، ومضروبٌ به المثل .

---

(١) الجائف : الذى بلغ الجوف .

(٢) الذر : صغار النمل .

(٣) دخال الأذن : دويبة ذات قوائم كثيرة ، يسميها العامة فى مصر « أم أربعة وأربعين » . انظر الحيوان ٤ : ١٥٣ .

ما يوصفُ بالكبْر من الحيوان

والضبُّ يوصف بشدة الكِبْر ، ولا سيما إذا أخصَبَ وأمِن . فإذا أمِن وخلا له جوُّه وأخصبَ نفخَ وكشَّ نحوَ كلِّ شيءٍ يريده .

ومما يوصف بالكِبْر الثَّورُ فى حال تشرُّقه ، وفى حال مِشيته الخُيَلاءَ فى الرِّياض ، عند غِبِّ ديمةٍ (١) . ولذلك قال الكميت :

كشَبُوبِ ذى كبرياءَ من الوَحْـ ـدةِ لا يبتغى عليها ظهيرا (٢)

وهذا كثير ، وسيقع فى موقعه فى القول فى البقر .

وممَّا يوصف بالكبر الجملُ الفحل ، إذا أطافَتْ به نُوق الهَجْمة (٣) ، ومرَّ نحوَ ماءٍ أو كلأ فتبِعْنَه . وقال الراجز :

فإن تَشرَّدْن حوالَيْهِ وقَفْ قالِبَ حِمْلاقَيْهِ فى مثل الجُرُف (٤)

لو رُضَّ لحدُ عينِه لما طَرَفْ (٥) كِبراً وإعجاباً وعِزًّا وتَرَفْ

والناقة يشتدَّ كبرُها إذا لَقِحَت ، وتزمُّ بأنفها ، وتنفرد عن صَحَاباتها (٦) .

* * *

(١) الديمة ، بالكسر : مطر أيام لا يُقلِع .

(٢) الشبوب : الشاب من الثيران ، أو المسن .

(٣) الهجمة ، بالفتح : القطعة الضخمة من الإبل بين الثلاثين والمائة .

(٤) الحملاق : بياض العين . والجرف : ما تجرَّفته السيول وأكلته من الأرض .

(٥) الرض : الكسر والدق .

(٦) الصحابات : جمع صحابة . والصحابة : الأصحاب .

والمذكورون من الناس بالكبر ثم من قريشٍ : بنو مخزومٍ ، وبنو أمية . ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زُرارة بن عُدُس خاصّة .

فأمّا الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدُّون الناسَ إلاّ عبيداً ، وأنفسَهم إلاّ أربابا .

ولسنا نُخْبر إلاّ عَنْ دهماء الناس وجمهورهم كيف كانوا ، من ملوك وسُوقَة .

والكِبْر فى الأجناس الذليلة من الناس أرسَخُ وأعمّ ، ولكنَّ القلَّةَ والذّلّة مانعتانِ من ظهور كِبْرهم ، فصار لا يَعرِف ذلك إلاّ أهلُ المعرفة ، كعبيدنا من السِّند ، وذِمَّتنا من اليهود .

والجملةُ أنَّ كلَّ مَنْ قَدَر من السِّفْلة والوضَعاء والمحقَّرين أدنى قدرة ، ظَهَر مِنْ كِبرِه على مَن تحت قدرته ، على مراتب القدرة ، ما لا خفاء به . فإن كان ذِمِّيًا [١] وحَسُن بمالَهُ فى صدور الناس ، تَزيَّد فى ذلك ، واستظهرَتْ طبيعته بما يظنُّ أنَّ فيه رَقْعَ ذلك الخَرْق ، وحِياصَ [٢] ذلك الفَتْق ، وسدَّ تلك الثُّلْمة .

فتفقَّدْ ما أقول لك فإنّك ستجده فاشيا .

وعلى هذا الحساب من هذه الجهة ، صار المملوك أسوأ مِلْكَةً [٣] من الحُرّ .

---

(١) الذمى : الرجل المعاهَد يؤدى الجزية ، من الكتابيين أو غيرهم .

(٢) الحياص ، المعروف فيه الحياصة ، وهى الخياطة .

(٣) الملكة ، بالكسر ، وبالتحريك : المِلْك . وفى الحديث : « لا يدخل الجنة سيئ الملكة » ، أى الذى يُسيء صحبة المماليك .

وشىءٌ قد قتلتُه علما ، وهو أنِّى لم أرَ ذا كبْرٍ قطُّ على مَن دُونه إلاّ وهو يذلُّ لمن فوقَه بمقدار ذلك ووزْنِه !

فأما بنو مخزومٍ وبنو أمية ، وبنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدس ، فأبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولو كان فى قُوى عقولهم ودياناتهم فضلٌ [1] على قُوَى دواعى الحميّة فيهم ، لكانوا كبنى هاشمٍ فى تواضعهم ، وفى إنصافهم لمن دونهم .

---

(١) الفضل : الزيادة .

١٢٥

أسماء لعب الأعراب

البُقَّيْرى ، وعُظَيمُ وضّاحٍ ، والخَطْرَةُ ، والدارَةُ ، والشَّحمة ، والحِلَق (١) ، ولُعبة الضَّبِّ .

فالبُقَّيْرَى : أن يجمع يديه على التُّراب فى الأرض إلى أسفله ، ثم يقول لصاحبه : اشتهِ فى نفسك . فيصيب ويخطىء .

وعُظَيم وَضّاحٍ : أن يأخذ بالليل عَظماً أبيض ، ثم يَرمِى به واحدٌ من الفريقين ، فإن وجدَه واحدٌ من الفريقين ركبَ أصحابه الفريقَ الآخرَ من الموضع الذى يجدونه فيه إلى الموضع الذى رَمَوا به منه .

والخَطْرة : أن يعملوا مخراقا (٢) ، ثم يرمىَ به واحدٌ منهم من خلفِه إلى الفريق الآخر ؛ فإنْ عَجَزوا عن أخذِه رمَوا به إليهم ، فإنْ أخذوهُ ركبوهم .

والدارة ، هى التى يقال لها الخَرَاج (٣) .

والشَّحمة : أن يمضى واحدٌ من أحد الفريقين بغلام فيتنحَّوْنَ ناحية ، ثم يُقبلون ويستقبلهم الآخرون ، فإنْ مَنعوا الغلامَ حتَّى يصيروا إلى الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه ، ويُدفَع الغلام إليهم . وإن هم لم يمنعوه ركبوهم .

---

(١) الحلق : جمع حَلْقة ، للجماعة يتحلّقون ويستديرون كالحلقة .

(٢) المخراق : منديل يلف ليضرب به . وهو يسمى فى عامية مصر « الطرة » .

(٣) هو أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ، ويقول لسائرهم : أخرجوا ما فى يدى .

وهذا كلُّه يكون فى ليالى الصَّيف ، غن غِبِّ ربيع مُخْصِب .

ولُعبة الضب : أن يصوِّروا الضَّبَّ فى الأرض ، ثم يحوِّل واحدٌ من الفريقين وجهَه ، ثم يضع بعضُهم يدَه على شئ من الضب ، فيقول الذى يحوِّل وجهه : أنف الضب ، أو عين الضب ، أو ذَنب الضب ، أو كذا وكذا من الضب ، على الوِلاء (١) حتّى يَفرُغ . فإنْ أخطأ ما وضع عليه يَدَه رُكِب ورُكب أصحابه . وإن أصابَ حوَّلَ وجههَ الذى كان وضع يدَه على الضب ، ثم يصير هو السائل .

---

(١) الولاء ، بالكسر : المتابعة .

١٢٦

ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهل تَدمُر (١) يزعمون أنَّ ذلك البناءَ قَبْلَ زمنِ سليمان عليه السلام بأكثَرَ ممَّا بيننا اليوم وبين سليمان بن داود عليهما السلام . قالوا : ولكنَّكم إذا رأيتم بنياناً عجيباً ، وجهلتُم موضعَ الحيلةِ فيه ، أضفتموه إلى الجنّ ، ولم تُعانوه بالفِكَر .

وقال العَرْجيّ :

سَدَّت مَسامِعَها لقَرع مَراجِلٍ ... من نَسْجِ جِنٍّ مثلُه لا يُنسَجُ (٢)

وقال الأصمعيّ : السيوف المأثورة هى التى يقال إنّها من عمل الجنِّ والشياطينِ لسليمانَ بنِ داود عليهما السلام . فأما القوارير والحَمَّامات فذلك ما لا شكَّ فيه . وقال البعيث :

بَنَى زيادٌ لذكرِ اللهِ مَصنعةً ... من الحجارة لم تُعمَل من الطِّين (٣)

كأنّها ، غير أنَّ الإنسَ ترفعُها ، ... ممَّا بنت لسليمانَ الشياطينُ

وقال الأعشى فى المعنى الأوّل ، من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام :

---

(١) تدمر : مدينة بالشام .

(٢) المراجل : جمع مِرجَل ، وهى القِدْر من النحاس . وأراد بالنسج الصنع .

(٣) المصنعة : ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية والقصور .

أرى عادِيَا لم يمنع الموتَ ربُّه ... ووَرْدٌ بتيماء اليهوديِّ أبلـقُ (١)
بناهُ سليمانُ بنُ داودَ حِقْبـةً ... له جَندلٌ صُمٌّ وطىٌّ موثَّقُ (٢)

---

(١) عاديا : جد السموءل بن غريض بن عاديا اليهودى ، وإليه ينسب بناء حصن تيماء . ربه ، أى لم يمنعه الموت ربه . الورد : الأحمر الذى تضرب حمرته إلى صفرة حسنة ، عنى به الحصن . وإنما قيل له الأبلق لأنه كان فى بنائه بياض وحمرة .

(٢) الجندل : الحجارة . الموثق : المحكم .

١٢٧

زواج الأعراب للجن

ومِن قول الأعرابِ أنَّهم يظهرون لهم ، ويكلِّمونهم ويناكحونهم . ولذلك قال شَمِر بن الحارث الضَّبّى :

ونارٍ قد حَضَأْتُ بُعَيدَ هَدْءٍ ... بدارٍ لا أريدُ بها مُقاما (١)
سِوَى تحليلِ راحلةٍ وعَينٍ ... أُكالئُها مخافةَ أن تناما (٢)
أتَوا نارى فقلتُ : مَنُون ؟ قالوا ... سَرَاةُ الجنِّ . قلت : عِمُوا ظلاما (٣)
فقلت : إلى الطعام ، فقال منهم ... زعيمٌ : نَحسُد الإنْسَ الطعاما

وذكر أبو زيد عنهم ، أنّ رجلاً منهم تزوَّجَ السِّعلاةَ ، وأنَّها كانت عنده زمانا ، وولدت منه ، حتَّى رأت ذات ليلةٍ برقاً على بلاد السَّعالى ، فطارت إليهنّ ، فقال :

رأى برقاً فأوضَعَ فوقَ بَكرٍ ... فلا بِكِ ما أسالَ وما أغاما (٤)

فمن هذا النِّتاج المشتَرك ، وهذا الخَلْق المركّب عندهم ، بنو السِّعلاة ، من بنى عمرو بن يَربوع ، وبِلقيس ملكة سبأ .

---

(١) حضأت : أشعلت . الهدء : أن تهدأ الرِّجْلُ والليل .

(٢) أى أقمت بها بقدر تحلة اليمين ، أى تحليلها . أكالئها : أراقبها .

(٣) منون أنتم : من أنتم . عِموا ظلاما ، أى انعِمُوا ظلاما ، وهو تحية المساء .

(٤) أوضَع : سار الإيضاع ، وهو ضرب من السير . والبكر ، بالفتح : الفتى من الإبل . بك ، أى بحقك . ما أسال ، أى لم يسل البرق الماء . وما أغام : لم يحدث غيما ، أى سحابا .

وتأولوا قول الشاعر :

لاهُـمَّ إنَّ جُرهُمـاً عبــادُكا   النـاس طِرفٌ وهُـمُ تلادُكا (١)

فزعموا أنَّ أبا جُرهُم من الملائكة الذين كانوا إذا عَصَوا فى السماء أُنزِلوا إلى الأرض ، كما قيل فى هاروتَ وماروت .

---

(١) الطرف ، بالكسر : أصله المستحدث من المال . عنى أنهم مستحدثون . والتلاد : القديم ، وأصله ما ورثه عن الآباء قديما .

١٢٨

رؤية الجن

قال الأعراب : وربَّما نزلنا بجمْعٍ كثيرٍ ، ورأينا خياماً وقباباً ، وناساً ، ثم فقدناهم من ساعتنا .

والعوامُّ تروى أنّ ابنَ مسعود ، رضى الله عنه ، رأى رجالاً من الزُّطّ [١] فقال : « هؤلاء أشبه من رأيت بالجنِّ ليلةَ الجنِّ » .

قال : وقد رُوِى عنه خلافُ ذلك .

* * *

ومما يدلُّ على ما قلنا قولُ أبى النَّجم ، حيث يقول :

* بحيثُ تَستنُّ مع الجنِّ الغُولْ [٢] *

فأخرجَ الغولَ من الجنِّ ، للذى بانت به من الجنّ . وهكذا عادتهم : أن يخرجوا الشىءَ من الجملة بعد أن دخل ذلك الشىء فى الجملة ، فيُظْهَر لأمرٍ خاصّ .

وفى بعض الرِّواية أنَّهم كانوا يَسمعون فى الجاهلية من أجواف الأوْثان

---

(١) الزط : جيل من الهند .

(٢) استن فى عدوه : مضى على وجهه .

هَمهمة ، وأن خالد بن الوليد حين هدم العُزَّى (١) رمَتْه بالشَّرر ، حتّى احترقَ عامَّةُ فخذِهِ ، حتى عادهُ (٢) النبى ﷺ .

* * *

وكانوا يقولون ، إذا أَلِفَ الجنىُّ إنساناً وتعطّف عليه ، وخبَّره ببعض الأخبار ، ووجد حِسَّه ورأى خياله ، فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلانٍ رئىٌّ من الجنّ (٣) .

وممن يقولون ذلك فيه : عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَة ، والمأمور الحارثىّ ، وعُتيبَةُ بن الحارث بن شهاب ، فى ناسٍ معروفين من ذوى الأقدار ، من بين فارسٍ رئيس ، وسيِّدٍ مطاع .

* * *

وقد كان مُسَيلمةُ يدَّعى أنّ معه رَئِيًّا فى أوّل زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصف مخاريقَه وخُدَعه (٤) :

ببيضةِ قارورٍ ورايـــة شادنٍ   وخُلَّة جِنّي وتوصيلِ طائـرِ (٥)

ألاَ تراه ذكَر خُلّة الجنّىّ ؟!

---

(١) العزى : صنم كان له ببطن نخلة ، هدمه خالد بن الوليد سنة ثمان من الهجرة . وكانت العزى ثلاث سمرات .

(٢) من عيادة المريض فى مرضه .

(٣) الرئى : ما يتراءى للانسان من الجن .

(٤) المخاريق : يعنى بها الأمور الخارقة للعادة .

(٥) كان مسيلمة يدخل البيضة فى قارورة ضيقه الرأس ثم يخرجها بحيلة خاصة . والشادن : الظبى قوى جسمه وترعرع . وكان مسيلمة ينزع ريش الطائر فلا يستطيع الطيران ، ثم يخلو بالطائر ويغرز له ريشاً فى موضع الريش المنزوع فيطير به .

ويقولون : ومن الجنّ جنسٌ صورةُ الواحدِ منهم على نصف صورة الإنسان ، واسمه شِقٌّ ، وإنّه كثيراً ما يَعْرِضُ للرجُل المسافِر إذا كان وحدَه ، فربَّما أهلكَه فزَعاً ، وربّما أهلكه ضرباً وقتلا .

قالوا : فمن ذلك حديث علقمةَ بن صفوان بن أمية بن مُحَرَّثٍ الكنانى ، جدِّ مروان بن الحكم : خرج فى الجاهليّة وهو يريد مالاً له بمكّةَ ، وهو على حمار ، وعليه إزارٌ ورداء ، ومعه مِقرعةٌ ، فى ليلةٍ إضحِيانةٍ (١) ، حتّى انتهى إلى موضعٍ يقال له حائط حزْمان ، فإذا هو بشقٍّ ، له يد ورجل وعين ، ومعه سيفٌ ، وهو يقول :

عَلقَمُ إنِّى مقتولْ وإنَّ لحمى مأكولْ
أضربُهم بالهُذْلولْ (٢) ضربَ غلامٍ شُملولْ (٣)
رَحْبِ الذراع بُهلول (٤)

فقال علقمة :

يا شِقَّها مالى ولك (٥) اغمِدَ عنِّى مُنصُلَكْ (٦)
تقتل من لا يقتلُكْ

فقال شقّ :

عَبَّيْتُ لك عَبَّيْتُ لك كيما أُتِيحَ مَقتَلَكْ

---

(١) إضحيانة : مضيئة لا غيم فيها .
(٢) الهذلول ، عنى به سيفه .
(٣) الشملول : الخفيف السريع .
(٤) البهلول : السيد الجامع لصفات الخير .
(٥) أى ياشقّ هذه الأرض .
(٦) اغمد ، أراد اغمدن بالنون الخفيفة ، فحذفها للشعر . والمنصل : السيف .

فاصبرْ لما قد حُمَّ لك (١)

قال : فضربَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، فخرَّا ميتَين .

فممن قتلت الجنُّ : علقمةُ بن صفوان هذا ، وحربُ بن أميّة . قالوا : وقالت الجنّ :

وقبر حربٍ بمكـــانٍ قَفْــر   وليس قربَ قبرِ حربٍ قَبْر

قالوا : ومن الدليل على ذلك ، وعلى أن هذين البيتين من أشعار الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدهما ثلاث مرّات متّصلة ، لا يتتعتع فيها ، وهو يستطيع أن ينشدَ أثقل شعرٍ فى الأرض وأشقَّه عشرَ مرّاتٍ ولا يتتعتع .

قال : وقتلتْ مِرداس بن أبى عامر ، أبا عباس بن مرداس .

وقتلت الغريضَ (٢) خَنْقًا بعد أن غنَّى بالغناء الذى كانوا نَهوْه عنه . وقتلت الجنُّ سعدَ بن عُبادَة بن دُليم ، وسمعوا الهاتفَ يقول :

قد قتلنا سيِّدَ الخزرَ   ج سعدَ بن عُباده
ورميناه بسَهميـــنِ   فلم نُخْطِ فؤادَه (٣)

واستهوَوْا سنانَ بن أبى حارثة ليستفحِلوه فماتَ فيهم ، واستهوَوا طالب أبى طالبٍ فلم يوجَد له أثر .

---

(١) أى قدر لك .

(٢) الغريض لقب له ، واسمه عبد الملك ، وكان من الموالى وكان خياطاً فأخذ الغناء عن ابن سريج ، وكان بعض موليات ابن سريج تعلمه النياحة فبرز فيها . ويروون أن الجن نهته أن يغنى فى لحنه :

وما أنس مل أشياء لا أنسَ شادنا   بمكة مكحولا أسيلا مدامعه

لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه .

(٣) أى لم يخطئ فؤاده . وفى هذا البيت وسابقه ما يسمى الخزم ، وهو زيادة فى أول البيت .

واستهووا عمرو بن عدىّ اللخمىّ الملك ، الذى يقال فيه : « شبَّ عمرو عن الطَّوق » . ثم ردُّوه على خاله جذيمةَ بنِ الأبرش بَعْدَ سِنِينَ وسنين .

واستهووا عُمارة بن الوليد بن المغيرة ، ونفخوا فى إحليله فصار مع الوحش .

ويروون عن عبد الله بن فائدٍ بإسنادٍ له يرفعه أن النبى ﷺ قال : « خُرافة رجلٌ من عُذْرَةَ استهوتْهُ الشَّياطين » . وأنّه تحدّث يوما بحديثٍ فقالت امرأةٌ من نسائه : هذا من حديث خرافة ! قال : « لا ، وخرافةُ حقٌّ » .

١٢٩

تعليل ما يتخيله الأعراب
من عزيف الجن وتغوّل الغيلان

وكان أبو إسحاق (١) يقول فى الذى تذكر الأعرابُ من عَزِيف الجِنّان وتغوُّل الغِيلان : أصلُ هذا الأمر وابتداؤه ، أنَّ القومَ لمَّا نزلوا بلاد الوَحْش عمِلت فيهم الوَحْشة . ومَن انفردَ وطال مُقامُه فى البلاد والخلاء والبعد من الإنس – استَوْحَش ، ولا سيّما مع قلة الأشغال والمُذاكِرين .

والوحدةُ لا تقطع أيَّامَهم إلاَّ بالمُنَى أو بالتفكير ، والفكر ربَّما كان من أسباب الوسوسة . وقد ابتُلِىَ بذلك غيرُ حاسب ، كأبى يَس ، ومثنًّى ولدِ القُنافر .

وخبّرنى الأعمش أنّه فكَّرَ فى مسألة ، فأنكر أهلُه عقله ، حتّى حَمَوه وداوَوه .

وقد عَرَض ذلك لكثيرٍ من الهند .

وإذا استوحش الإنسانُ تمثَّل له الشئُ الصغير فى صورة الكبير ، وارتابَ ، وتفرَّق ذهنُه ، وانتقضت أخلاطُه ، فرأى ما لا يُرى ، وسمِع ما لا يُسمَع ، وتوَّهم على الشئ اليسير الحقير ، أنّه عظيمٌ جليل .

---

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

ثمَّ جعلوا ما تصورَ لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديثَ توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربِّيَ به الطِّفل ، فصار أحدُهم حِينَ يتوسَّطُ الفيافيَ ، وتشتمل عليه الغِيطانُ فى اللَّيالِي الحَنادس (١) ، فعند أوّل وحشةٍ وفَزْعةٍ ، وعند صياحِ بُومٍ ومُجاوبةِ صدًى (٢) ، وقد رأى كلَّ باطل ، وتوهَّمَ كلَّ زُور ، وربَّما كان فى أصل الخلق والطبيعة كذَّاباً نفّاجاً (٣) ، وصاحبَ تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك من الشعر على حسَبِ هذه الصِّفة ، فعند ذلك يقول : رأيتُ الغيلان ! وكلَّمت السِّعلاة ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوَّجتها !

قال عُبَيدُ بن أيوب :

فللّه درُّ الغُولِ أىُّ رفيقةٍ ... لصاحب قفرٍ خائفٍ متقتِّرِ (٤)

وقال :

أهذا خليلُ الغولِ والذئبِ والذى ... يَهيم بربَّاتِ الحجال الهَراكِلِ (٥)

وقال :

أخو قَفَراتٍ حالفَ الجنَّ وانتفى ... من الإنس حتّى قد تقضَّت وسائلُه

له نسبُ الإنسيِّ يُعرف نجلُه ... وللجنِّ منه خَلقُه وشمائلُه

وممَّا زادهم فى هذا الباب ، وأغراهُم به ، ومَدَّ لهم فيه : أنَّهم ليس يلقَون بهذه الأشعارِ وبهذه الأخبارِ إلاَّ أعرابيًّا مثلَهم ، وإلاَّ عامّيًّا لم يأخذ

---

(١) الحنادس : جمع حندس ، وهى الشديدة الظلمة .

(٣) الصدى : رجع الصوت .

(٣) النفاج : الذى يفخر بما ليس عنده .

(٤) المتقتر : المتنحى عن الناس .

(٥) جمع هركلة ، وهى الحسنة الجسم ، أو العظيمة الوركين .

نفسه قَطُّ بتمييز ما يستوجب التكذيبَ والتَّصديق ، أو الشَّكَ ، ولم يسلكْ سبيلَ التوقُّف والتثبُّت فى هذه الأجناس قطُّ . وإمّا أن يلقَوْا راوِيةَ شعرٍ أو صاحب خبر . فالرَّاوِيةُ كلَّما كان الأعرابىُّ أكذبَ فى شِعره كان أطرفَ عندَه ، وصارت روايتُه أغلبَ ، ومضاحيكُ حديثه أكثر . فلذلك صار بعضُهم يدَّعى رؤية الغُول ، أو قتلَها أو مرافقتَها ، أو تزويجَها ؛ وآخر يزعم أنّه رافق فى مفازةٍ نمراً فكان يطاعمه ويؤاكله . فمن هؤلاء خاصّة القَتّالُ الكِلابىّ ؛ فإنه الذى يقول :

أيُرسِلُ مروانُ الأميرُ رسالــةً ... لِآتيَــهُ إنِّــى إذاً لمضلَّـــلُ
وما بىَ عصيانٌ ولا بُعدُ منزِلٍ ... ولكنّنى من خوفِ مَرْوانَ أوجلُ
وفى باحةِ العَنقاء أو فِى عَمايةٍ ... أو الأُدَمَى من رهبة الموت موئل (١)
ولى صاحبٌ فى الغار هَدَّكَ صاحباً ... أبو الجَونِ إلاَّ أنّـه لا يعلَّـلُ (٢)
إذا ما التقينا كان جُلَّ حديثنا ... صُماتٌ وطَرْفٌ كالمعابل أطحل (٣)
تضمنَّتِ الأرْوَى لنـا بطعامنـا ... كلانا له منها نصيبٌ ومأكلُ (٤)
فأغلِبُه فى صَنعةِ الزاد ، إنّنى ... أُمِيطُ الأذى عنه ولا يتأمّل (٥)
وكانت لنا قَلْتٌ بأرضٍ مَضَلّةٍ ... شريعتنُــا لأيِّنــا جاء أوّلُ (٦)
كلانا عدوٌّ لو يرى فى عدوِّه ... مَحزًا وكلٌّ فى العداوة مُجمِل (٧)

---

(١) الباحة : الساحة . العنقاء وما بعدها : مواضع . الموئل : الملجا .
(٢) هَدَّك صاحباً ، أى كفاك صاحباً . وأبو الجون : كنية النمر .
(٣) الصمات ، بالضم : الصمت . المعابل : جمع مِعبلة ، وهو النصل الطويل العريض . الأطحل : ما لونه الطُّحلة ، وهو لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل .
(٤) الأروى : اسم جمع للأروية ، وهى أنثى الوعول .
(٥) أميط : أزيل .
(٦) القلت : النقرة فى الجبل تمسك الماء . مضلة : يضل فيها ولا يهتدى للطريق .
(٧) المجمل : المتئد المعتدل لا يُفرِط .

١٣٠

أرزاق الحيوان

ومن العجب فى قسمة الأرزاق أنَّ الذئبَ يصيد الثعلبَ فيأكلُه ، ويصيدُ الثعلبُ القُنفُذَ فيأكله ، ويُريغُ القنفذ الأفعى فيأكُلها . وكذلك صنيعُه فى الحيّات ما لم تَعظُم الحيةُ . والحيّةُ تصيد العصفورَ فتأكله ، والعصفور يصيد الجرادَ فيأكله ، والجراد يلتمس فراخَ الزنابير وكلَّ شيءٍ يكون أفحوصُه على المستوِى . والزُّنبور يصيد النحلةَ فيأكلها ، والنَّحلةُ تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضةَ فتأكلها .

---

(١) أراغها : طلبها وأرادها .

١٣١

الأرانب

والأرنب قصير اليدين ، فلذلك يخفُّ عليه الصَّعْداء [١] والتَّوَقُّل فى الجبال .

وعَرَف أنَّ ذلك سهلٌ عليه ، فصَرَف بعضَ حِيَلِه إلى ذلك عند إرهاق الكلابِ إيّاه . ولذلك يُعجَبون بكلِّ كلبٍ قصير اليدين ، لأنَّه إذا كان كذلك كان أجدَرَ أن يَلحقَها .

وفى الأرانب من العجَب أنَّها تَحِيض ، وأنها لا تَسمَن ، وأنَّ قضيبَ الخُزَز [٢] ربَّما كان من عَظْم ، على صورة قضيبِ الثعلب .

* * *

ومن أعاجيبها : أنَّها تنام مفتوحة العين ، فربَّما جاء الأعرابىُّ حتّى يأخذَها من تلقاء وجهها ، ثقةً منه بأنَّها لا تُبْصِر .

وكانت العرب فى الجاهلية تقول : مَن عُلِّق عليه كَعبُ أرنب لم تُصبْه عينٌ ولا نَفْسٌ ولا سِحر ، وكان عليه واقيةٌ ؛ لأنَّ الجنَّ تهرُب منها ، وليست من مطاياها ؛ لمكان الحيض .

---

(١) أراد الأرض ذات الصعداء ، وهى التى يشتد صعودها على الراق .

(٢) الخزز : ذكر الأرانب .

١٣٢

الحرباء

والحِرباء دُوَيبَّةٌ أعظم من العَظاء ، أغبرُ ما كان فرخاً ، ثم يصفرّ . وإنّما حياتُه الحَرّ . فتراهُ أبداً إذا بدت جَوْنةُ – يعنى الشمس – قد لجأ بظهره إلى جُذَيلٍ (١) ، فإن رَمِضَت الأرضُ ارتفعَ .

ثم هو يقلِّب بوجهه أبداً مع الشَّمس حيث دارت حتّى تَغرُب ، إلاّ أن يخافَ شيئاً . ثمّ تراه شابحاً بيديه (٢) ، كما رأيتَ من المصلوب . وكلَّما حميتْ عليه الشمسُ رأيت جلده قد يخضرُّ . وقد ذكره ذو الرُّمَّة بذلك فقال :

يظلُّ بها الحرباءُ للشمسِ ماثلاً على الجِذْل إلاَّ أنّه لا يكبِّرُ
إذا حوّل الظلَّ العشيُّ رأيتَه حنيفاً وفى قَرن الضُّحى يتَنَصَّرُ (٣)
غَداَ أصفرَ الأعلى وراحَ كأنَّه من الضِّحِّ واستقباله الشّمسَ أخضرُ (٤)

وكذا الجَمَلُ يستقبل بهامَتِهِ الشمسَ ، إلا أنّه لا يدُور معهما كيف دارت كما يفعل الحِرباء .

---

(١) مصغر جذل ، وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع .

(٢) شبح بيديه : مدَّهما .

(٣) حنيفاً ، أى مسلماً . أى إنه عند ميل الشمس إلى الغروب يتجه نحوها إلى الغرب حيث قبلة المسلمين لأهل المشرق . وهو فى قرن الضحى أى أوله يتجه إلى المشرق حيث تتجه النصارى فى صلاتها .

(٤) الضح : ضوء الشمس على الأرض .

وشقائق النُّعمان والخِيرِىُّ يصنع ذلك ، ويتفتَّح بالنَّهار وينضمُّ بالليل . والنِّيلُوفَر الذى ينبت فى الماء يغيب الليلَ كلَّه ويظهر بالنَّهار .

والسمكُ الذى يقال له الكَوسج فى جوفه شحمةٌ طيّبة ، وهم يسمُّونها الكَبِد ، فإن اصطادوا هذه السمكةَ ليلاً وجدوا هذه الشحمةَ فيها وافرةً ، وإن اصطادوها نهاراً لم توجَد .

وقد ذكر الحُطَيئةُ دَوَرانَ النباتِ مع الشمس حيث يقول :

بمستأسِدِ القُريـانِ حُوٍّ تلاعُـه فنُوَّارُه مِيلٌ إلى الشَّمس زاهرُه (١)

وقال ذُو الرُّمَّة :

إذا جَعَل الحِرباءُ يغبـرُّ لونُـه ويخضرُّ من لفح الهجير غباغبُه (٢)

ويَشبَح بالكفَّينِ شَبْحا كأنّـه أخو فَجْرةٍ عَالَى به الجذعَ صالبُه (٣)

وقال آخر :

كأنَّ يَدىْ حِربائها متشمِّساً يَدَا مُجرمٍ يستغفر اللّهَ تائبِ

---

(١) استأسد النبت : طال . الحو : جمع أحوى ، وهو الأسود إلى خضرة . والنُّوَّار : جمع نُوَّارة ، وهى الزهرة . ميل : جمع مائل . والزاهر : المشرق الحسن .

(٢) الغباغب : جمع غَبْغب ، وهو اللحم المتدلى تحت الحنك .

(٣) يشبح : يمدّ . يقول : كأنه رجل فجَر فرفعه صالبه فوق الجذع .

١٣٣

الخلد

والخُلد دويْبّة عمياءُ صَمّاء ، لا تعرفُ ما يدنو منها إلاّ بالشمّ ، تخرج من جُحرها ، وهى تعلم أن لا سمعَ ولا بصرَ لها ، وإنما تَشْحَا فاها (١) وتقف على باب جُحرها ، فيجىء الذُّبابُ فيسقُط على شِدقها ، ويمرُّ بينَ لَحييها ، فتسدُّ فمها عليها وتستدخلها بجَذْبة النَّفَس ، وتَعلم أنّ ذلك هو رزقُها وقَسْمُها (٢) ، فهى تَعرِض لها نهاراً دون الليل ، وفى الساعات من النَّهار التى يكون فيها الذُّبابُ أكثرَ ، لا تفرِّط فى الطَّلَبِ ولا تقصِّر فى الطَّلَب ، ولا تخطىء الوقتَ ، ولا تَغْلَط فى المقدار .

وللخُلْد أيضاً ترابٌ حول جُحره ، هو الذى أخرجَه من الجُحر ، يزعمون أنه يصلح لصاحب النِّقرِس (٣) ، إذا بُلَّ بالماء وطُلِىَ به ذلك المكان .

---

(١) شحا فاه يشحوه ويشحاه : فتحه .

(٢) القَسْم : النصيب وما قسم للمرء .

(٣) النقرس : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

١٣٤

بعض العجائب

وفى الناس مَن يحرِّك أذنيه من بين سائر جَسده ، وربَّما حرَّك إحداهما قبل الأخرى . ومنهم من يحرِّك شعرَ رأسه ، كما أنَّ منهم من يبكى إذا شاء ، ويضحك إذا شاء .

وخبَّرنى بعضهم أنه رأى مَنْ يبكى بإحدى عينيه ، وبالتى يقترحها عليه الغَير .

وحكى المكىُّ عن جَوارٍ باليمن ، لهنَّ قرونٌ مضفورة من شعر رءوسهنَّ ، وأنَّ إحداهنَّ تلعب وترقُص على إيقاعٍ موزون ، ثم تُشْخِص قرناً من تلك القرون ، ثم تلعب وترقص ، ثم تُشخِص [١] من تلك الضفائر المرصَّعَة واحدةً بعد أخرى ، حتَّى تنتصبَ كأنها قرونٌ أوابدُ [٢] فى رأسها .

فقلت له : فلعلَّ التضفير والترصيع أن يكون شديدَ الفتل ببعض الغِسْل [٣] والتلبيد ، فإذا أخرجتْه بالحركة التى تثبتها فى أصل تلك الضفيرة شخصَتْ .

فلم أره ذَهَب إلى ذلك ، ورأيته يحقِّقه ويستشهد بأخيه .

---

(١) تشخص : ترفع .

(٢) أوابد : منفردات ، وأصل الأوابد الوحش .

(٣) الغِسل : ما كانوا يغسلون به الرأس من خِطميّ وطين وأُشنان .

١٣٥

نوم الذئب

وتزعم الأعرابُ أنَّ الذِّئبَ ينامُ بإحدى عينيه ، ويزعمون أنّ ذلك من حاقّ الحَذر (١) ، ويُنشَد شعرُ حُمَيد بن ثَورٍ الهلالىّ ؛ وهو قوله :

ينام بإحدى مُقْلَتَيْه ويتَّقى الـ   ـمنايا بأُخْرى فهو يقْظانُ هاجعُ

وأنا أظنُّ هذا الحديث فى معنًى ما مدِح به تأبّط شراً :

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يَزَلْ   له كالىءٌ من قلب شَيحانَ فاتكِ (٢)

ويجعل عينَيه ربيئةَ قلبِهِ   إلى سَلَّة من حَدِّ أخضرَ باتكِ (٣)

---

(١) حاقّ الحذر : شدته .

(٢) الكالىء : الحافظ . الشّيحان : الجاد فى كل أمر .

(٣) الربيئة : الرقيب . السلة : المرة من سل السيف . جعل السيف أخضر لصفائه . الباتك : القاطع .

ما ورد فى كليلة ودمنة
من الأمثال فى شأن الفيل

ومّما قرأه الناسُ من الأمثال فى شأن الفيل ، التى وجدوها فى كتاب كليلة ودمنة .

فمن ذلك قوله : « أفلاَ ترى أنّ الكلبَ يبصبِص بذنبهِ مراراً حتّى تُلقَى له الكِسرة . وإن الفيل المغتلِمَ لَيعرفُ قوّتَه وفضلَه ، فإذا قُدِّم إليه عَلَفُه مكرَّماً لم يأكُلْ حتى يُمسَحَ ويتملَّق » .

قال : « وقيل فى أعمالٍ ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلاّ بمعونةٍ من ارتفاع همّةٍ وعظيمِ خطَر : منها عملُ السلطان ، وتِجَارةُ البحر ، ومناجَزة العدوّ . وقالت العلماء فى الرجل الفاضل إنّه لا ينبغى أن يُرَى إلاّ فى مكانين ولا يليق به غيرُهما : إمّا مع الملوك مكرَّما ، وإمَّا مع النسَّاكِ متبتِّلا [١] ، كالفيل إنّما بهاؤه فى مكانين ، إما فى برّيّةً متوحِّشا ، وإما مَركَباً للملوك » .

قال : « وقد قيل فى أشياءَ ثلاثة فضلُ ما بينها متفاوت : فضل المقاتل على المقاتل ، وفضل الفيل على الفيل ، وفضل العالِم على العالم » .

وقال فى كلامٍ آخر : « فإنْ لم تنجَع الحيلةُ فهو إذاً القدرُ الذى

---

(١) المتبتل : المنقطع إلى الله للعبادة .

لا يُدفع ؛ فإنَّ القدر هو الذى يسلُب الأسدَ قوّته حتَّى يُدخله التابوتَ (١) ، وهو الذى يحمل الرجلَ الضعيفَ على ظهر الفيل المغتلم ، وهو الذى يسلِّط الحوّاء على الحيّة ذات الحُمَة فينزِع حُمَتَها ويلعب بها » .

وقال : « ومن لم يرَض من الدُّنيا بالكفَاف الذى يُغْنيه وطمَحت عيناه إلى ما فوق ذلك ، ولم ينظُر إلى ما يتخوّف أمامه ، كان مثلُه مثل الذباب الذى ليس يرضى بالشجَرِ والرَّياحين حتّى يطلبَ الماءَ الذى يسيل من أذُن الفيل المغتلم (٢) ، فيضربه بأذنه فيَهلِك » .

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) المغتلم : الذى قد غلبته الشهوة فاهتاج لذلك .

١٣٧

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلاَّ خرطومه الذى هو أنفُه وهو يدُه [١] ، وبه يُوصِل الطعامَ والشرابَ إلى جوفه ، وهو شيءٌ بين الغُضروف واللحم والعصب ، وبه يقاتِل ويضرب ، ومنه يصيح . وليس صياحُه فى مقدار جِرم بَدَنِه ، ويضرب به الأرضَ ويرفعه فى السماء ، ويصرِّفه كيف شاء . وهو مقتلٌ من مَقاتله .

والهند تربط فى طرفه سيفا شديد المَتْن [٢] فيقاتِل به ، مع ما فى ذلك من التهويل على مَن عايَنَه .

---

(١) أى لو لم يكن إلا هذا لكفى .
(٢) المتن : الظهر .

١٣٨

الكركدن

قال : والذى يثبت الكَرْكَدَّنَ أن داود النبىَّ ﷺ ذكره فى الزَّبور حينَ سمّاه .

وقد ذكره صاحب المنطق (١) فى كتاب الحيوان ، إلا أنَّه سمّاه بالحمار الهندىّ ، وجَعَل له قرناً واحداً فى وسط جبهته . وكذلك أجمع عليه أهلُ الهند كبيرُهم وصغيرهم . وإنَّما صار الشكُّ يَعرِض فى أمره من قِبَل أنّ الأنثى منها تكون نَزُوراً (٢) . وأيام حملها ليست بأقَلَّ من أيام حمل الفِيلَة (٣) ، فلذلك قَلَّ عددُ هذا الجنس .

وتزعم الهندُ أن الكركدَّنَ إذا كانت ببلادٍ لم يَرْعَ شىءٌ من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد ، حتى يكون بينه وبينها مائةُ فرسخ من جميع جهات الأرض ، هيبةً له وخضوعاً له ، وهرباً منه .

وقد قالوا فى ولدها وهو فى بطنها قولاً لولا أنّه ظاهرٌ على ألسنة الهند ، لكان أكثر الناسِ ، بل كثيرٌ من العلماء ، يُدخلونه فى باب الخرافة .

وذلك أنهم يزعمون أنّ أيامَ حَملها إذا كادت أن تتم ، وإذا نَضِجت

---

(١) هو أرسطو .

(٢) النَّزور : القليلة الولد .

(٣) روى الجاحظ أن مدة حمل الفيلة سبع سنوات .

وشَحَنت ، وجَرى وقتُ الولادة ، فربّما أخرج الولد رأسَه من ظَبْيتها (١) ، فأكلَ من أطراف الشجر ، فإذا شبع أدخل رأسَه ، حتّى إذا تمّت أيّامُه وضاق به مكانُه وأنكرتْه الرّحِم ، وضَعَتْه مُطيقاً قويًّا على الكَسْب والحُضْر (٢) والدَّفع عن نفسه ، بل لا يعَرِض له شئٌ من الحيوان والسِّباع .

وقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ ولد الفيل يَخرُج من بطن أمّه نابتَ الأسنان لطول لُبثه فى بطنها .

وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكَر ، لأنَّ جماعةَ نساءٍ معروفاتِ الآباء والأبناء ، قد وَلدن أولادهنَّ ولهم أسنان ثابتة ، كالذى روَوْا فى شأن مالك بن أنس ، ومحمد بن عَجْلانَ وغيرهما .

وقد زعم ناسٌ من أهل البصرةَ أنَّ خاقان بن عبد الله بن الأهتم ، استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهرا . وقد مُدِح بذلك وهُجىَ .

وليس هذا بالمستنكَر ، وإن كنتُ لم أرَ قَطُّ قابلةً تقرُّ بشئٍ من هذا الباب ، وكذلك الأطبّاء . وقد روَوه كما علمت . ولكنَّ العجبَ كلَّ العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكَرْكَدَّنِ رأسَه واعتلافِه ، ثم إدخالِهِ رأسَه بعد الشِّبَع والبِطنة . ولابدَّ – أكرمَكَ الله – لِمَا أكَلَ من نَجْوٍ ، فإن كان بقىَ ذلك الولدُ يأكل ولا يروث ، فهذا عَجَب ، وإن كان يَرُوث فى جوفها فهذا أعجب !

* * *

---

(١) أى فرجها .

(٢) الحضر ، بالضم : ارتفاع العدو .

والعوامُّ تضرب المثَل فى الشدَّة والقوّة بالكركَدَّن ، وتزعُم أنّه ربَّما نَطحَ الفيلَ فرفَعه بقرنِه الواتد (١) فى وَسْط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ولا يحسُّ به حتَّى ينقطع على الأيام .

وهذا القول بالخرافة أشبه .

* * *

وأما قرن الكركدَّن فخَبَّرنى مَن رآه ممَّن أثقُ بعقله ، وأسكُن إلى خبره ، أنَّ غِلظَ أصلِه وسَعَةَ جسمِه يكون نحواً من شِبرين .

وليس طولُه على قدر ثِخَنه . وهو محدَّد الرأس ، شديد الملاسة ، ملموم الأجزاء مُدمَج (٢) ، ذو لُدونةٍ وعُلوكة (٣) فى صلابة ، لا يمتنع عليه شئ .

---

(١) الوتد : الثابت المنتصب .

(٢) المدمج : المستحكم .

(٣) العلوكة : المتانة فى شئ من اللين .

١٣٩

مبارزة الجاموس للأسد

وأمّا الجاموس والأسد فخبَّرنى محمد بن عبد الملك أنّ أمير المؤمنين المعتصمَ بالله ، أبرز للأسد جاموسين فغَلَباه ، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدُها فغلبَتْه وحَمتْ ولدَها منه وحصَّنته ، ثمّ أبرز له جاموساً وحدَه فواثَبه ثم أدبَرَ عنه .

هذا وفى طبع الأسد الجُرأةُ عليه ، لأنّه يعُدُّ الجاموسَ من طعامه ، والجاموس يعرف نفسَه بذلك ، فمع الأسد من الجرأة عليه بحَسْبِ ذلك [١] ، ومع الجاموس من الخوف على قَدْر ذلك . وفى معرفة الأسد أنّ له فى فمه من السلاح ما ليس لشيءٍ سواه ، وفى معرفة الجاموس بعد ذلك السلاح منه ، فمعه من الجرأة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيُّب له . فيعلم أنه قد أُعطىَ فى كفِّه ومخالبه من السلاح ما ليس لشيءٍ سواه . ويعلم الأسد والجاموس جميعاً أنّه ليس فى فم الجاموس ويده وظِلفه من السلاح قليلٌ ولا كثير ، فمع الأسد من الجرأة عليه ، ومع الجاموس من الخوف منه على حَسْب ذلك .

ويعلم الأسدُ أن بدنه يموجُ فى إهابه [٢] ، وأن له من القوّة على

---

(١) الحَسْب والحَسَب : قَدْر الشيء . يقال : الأجْر بَحسَبِ ما عملتَ وحسْبِه .

(٢) الإهاب : الجلد .

الوثوب والضَّبْر [١] والحُضْر ، والطَّلَب والهرب ، ما ليس فى الجاموس ، بل ليس ذلك عند الفهد فى وُثوبه ، ولا عند السِّمْع [٢] فى سرعة مَرِّه ، ولا عند الأرنب فى صَعْداءَ ولا هَبوط [٣] ، ولا يبلغه نَقَزانُ [٤] الظَّبى إذا جَمع جَراميزه [٥] ، ولا ركضُ الخيلِ العِتاقِ إذا أُجِيدَ إضمارُها .

والجاموسُ يعرِف كلَّ ذلك منه ، ومع الجاموس من النُّكوص عنه بقدر ما مع الأسد من الإقدام عليه ، ويعلم أنّه ليس له إلاّ قَرْنه ، وأنَّ قرنَه ليس فى حِدّة قرونِ بقرِ الوحش ، فضلاً عن حدة أطراف مخالب الأسد وأنيابه ، وأنَّ قرنه مبتذَلٌ لا يُصان عن شىء ، ومخالب الأسد فى أكمامٍ وصِوَان [٦] .

وإذا قوِىَ الجاموسُ مع هذه الأسباب المجبِّنة ، على الأسد مع تلك الأسباب المشجِّعة ، حتّى يقتلَه أو يعرِّد عنه [٧] ، كان قد تقدَّمَه تقدُّماً فاحشاً ، وقد علاهُ علوًّا ظاهراً .

والجاموس أجزعُ خلقِ الله من عضِّ جِرجِسة [٨] وبعوضة ، وأشدُّه

---

(١) الضبر : الوثب مع جمع القوائم .

(٢) السمع ، بالكسر : ولد الذئب من الضبع .

(٣) الصعداء : الأرض المرتفعة . والهبوط : المنحدرة .

(٤) النقزان : الوثب .

(٥) الجراميز : قوائم الوحشى .

(٦) الصوان ، بالضم والكسر : ما يصان به الشىء .

(٧) التعريد : الإحجام والنكول والفرار .

(٨) الجرجس : صغار البعوض .

هرباً منهما إلى الماء . وهو يمشى إلى الأسَد رخىَّ البالِ ، رابطَ الجأش ، ثابتَ الجَنان (١) .

* * *

وليس للجاموس فى أظلافه وفى يديه ورجليه وفى فمه سلاح ، فقد دلَّت الحالُ على أنّ مَدارَ الأمر إنَّما هو فى شجاعة القلب .

وفى هذا القياس أنَّ الصَّقر إنما يواثب الكركىَّ لمكان سلاحِه دونَ شجاعة القلب التى يَقْوَى بها الضعيف ، وبخلافها يَضعفُ القوىّ .

وسأقرّب ذلك عندك ببعضٍ ما تعرفه : لا نشكُّ أنّ الهرَّ أقوى من الهِرّة فى كلِّ الحالات ، حتّى إذا سِفدها فحدثت بينهما بغضاءُ ومطالبة ، حدثت للهرّة شجاعة وللهرّ ضعف ، فصارت الهرَّة فى هذه الحال أقوى منه ، وصار الهرُّ أضعف . ولولا أنّه يُمعن فى الهرب غايةَ الإمعان ثم لحقتْه ، لقطّعته وهو مُستَخْذٍ .

والرجُل الشديد الأسْر (٢) قد يَفْزع فتنحلُّ قواه ، ويسترخى عصبُه ، حتّى يضربَه الصبىّ . والذئب القوىّ من ذئاب الخَمَرِ (٣) يكون معه الذِّئبُ الضعيف من ذئاب البرارى ، فيصيبُ القوىَّ خَدْشٌ يسير ، فحين يَشَمُّ ذلك الذئبُ الضعيفُ رائحةَ الدم وثبَ عليه .

فيعترى ذلك القوىَّ عند ذلك من الضَّعِف بمقدار ما يعترى الضعيفَ من القوّة ، حتّى يأكلَه كيف شاء .

---

(١) الجنان ، كسحاب : القلب .

(٢) الأسر : شدة الخلق والخلق .

(٣) الخمر ، بالتحريك : ما واراك من شجر وغيره .

والأسَدُ الذى يعتريه الضَّعف فى الماء الغَمْر حتّى يركبَ ظهرَه الصبىُّ ثم يقبضَ على أذنيه فيغُطَّه (١) كيف شاء .

وقد يفعل ذلك غِلمان السَّوادِ (٢) وشاطىء الفرات ، إذا احتملت المُدود (٣) الأُسْدَ ، لا تملك من أنفُسها شيئا . وهو مع ذلك يشدُّ على العسكر حتّى يَفرِقَه فرقَ الشَّعر ، ويطويَه طىَّ السجِلّ ، ويهارِش النَّمِرَ عامَّةَ يومِه لا يقتُل أحدهما صاحبه . وإن كان الجمل الهائج باركاً أتاه فضربَ جنبَه ليثنِىَ إليه عنقَه ، كأنّه يريد عضَّه ، فيضرب بيَساره إلى مِشفره فيجذِبه جذبةً يَفصِل بها بين دَأْيات عُنقه (٤) . وإنْ ألفاه قائماً وثبَ وثبةً فإذا هو فى ذِروةِ سَنامه ؛ فعند ذلك يصرِّفه كيف شاء ، ويتلَّعب به كيف أحبّ .

---

(١) يغطّه : يَغمِسه .

(٢) السواد : قرى الكوفة والبصرة بالعراق .

(٣) جمع المد ، وهو مقابل الجزر .

(٤) الدأيات : جمع دأية ، وهى الفِقْرة من الفقار .

١٤٠

أبيات لبعض الشعراء العُمْيان

أنشدنى ابن الأعرابى لرجلٍ من بنى قُريعٍ يَرْثى عينَه ويذكر طبيبا :

لقد طُفْت شرقىَّ البلادِ وغربَها ... فأعيا علىَّ الطبُّ والمتطبِّب
يقولون : إسماعيل نَقّاب أعينٍ ... وما خيرُ عينٍ بعد ثَقب بمثقبِ
يقولون : ماءٌ طيِّب خانَ عينَه ... وما ماءُ عينٍ خان عيناً بطِّيبِ
ولكنّه أيامَ أَنْظُرُ طيِّبٌ ... بعينى قُطاميٍّ عَلا فوقَ مَرقَبِ (١)

وقال الخُرَيمىّ :

كفى حَزَناً أنْ لا أزورَ أحبّتىَ ... من القُرب إلاّ بالتكلُّف والجهدِ
وأنّى إذا حُيِّيتُ ناجيتُ قائدى ... ليعدلَنى قبل الإجابة للردِّ (٢)
إذا ما أفاضوا فى الحديث تقاصرتْ ... بىَ النفسُ حتى ما أُحِيرُ وما أُبدِى (٣)
كأنِّى غريبٌ بينهمْ لستُ منهمُ ... فإن لم يَحُولوا عن وفاءٍ ولا عهدِ
أُقاسِى خطوباً لا يقومُ بمثلها ... من الناس إلاّ كلُّ ذى مِرَّةٍ جَلْدِ (٤)

---

(١) القطامى : الصقر . المرقب : المكان العالى .

(٢) يقول : لا أعرف من أين يصدر صوت التحية ، فأطلب من قائدى أن يوجهنى إلى جهة من حيانى لأرد تحيته .

(٣) ما أحير : ما أرد .

(٤) المرة : القوة . الجلد : الشديد القوى .

١٤١

قدرة الفِيلِ على حمل الأثقال

قال : وليس شيءٌ يحمل من عدد الأرطال ما يحمل الفيل ؛ لأن الذى يَفضُل فيما بين حمل الفيل وحمل البُخْتّى [١] أكثرُ من قَدر ما يفضُل بين جسم الفيل على جسم البُخْتى .

وقد قال الأعرابىُّ الذى أُدخِلَ على كِسرى ليَعجَبَ من جفائه وجَهْله حين قال له : أىُّ شىءٍ أبعدُ صوتا ؟ قال : الجمل . قال : فأىُّ شىءٍ أطيب لحما ؟ قال : الجمل . قال كِسرى : كيف يكون الجمل أبْعدَ صَوتاَ ونحن نسمع صوتَ الكُرْكِىّ [٢] من كذا وكذا ميلا ؟ قال الأعرابىّ : ضَع الكركىَّ فى مكان الجمل ، وضع الجَمل فى مكانِ الكركىّ حتّى يُعرفَ أيُّهما أبعدُ صوتاً .

قال : وكيف يكون لَحْمُ الجملِ أطيبَ من لحم البطّ والدَّجاج والفراخ والدُّرّاج والنَّواهض [٣] والجِدَاء ؟ قال الأعرابى : يطبخ لحمُ الدَّجاج بماءٍ وملح ، ويطبخ لحم الجمل بماءٍ وملح حتى يُعرفَ فَضْلُ ما بين اللَّحمين . قال كسرى : فكيف تزعم أن الجَملَ أحَملُ للثِّقْل من الفيل والفيلُ يحمل كذا وكذا رطلا ؟

---

(١) البختى : واحد البَخَاتى ، وهى الإبل الخراسانية ، نسبة إلى خراسان .

(٢) الكُركىُّ : ضرب من الطير .

(٣) النواهض : فِراخ الطيور ، إذا تهيّأتْ للطيران .

قال الأعرابى : ليبرك الفيل ويبرك الجمل ، وليُحمَل على الفِيلِ حِمل الجمل . فإن نهضَ به فهو أحمَلُ للأثقال .

قال القوم : ليس فى استطاعة الجمال النهوضَ بالأحمال ما يوجبُ لها فضيلةً على حَمْل ما هو أثقل . ولَعمرى إنَّ لِلجمل بِلِين أرساغه وطول عُنقه لفضيلةً فى النُّهوض بعد البروك . فأمَّا نفس الثقل فالذى بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار .

قالوا : وبفارسَ ثيرانٌ تحمل حِمْلَ الجمل باركةً ثم تنهض به .

١٤٢

جسامة الفيل

قال أبو عثمان :

خرجتُ يومَ عيد ، فلمّا صِرْت بِعيسابَاذ (١) إذا أنا بتَلٍّ مجلَّل بقطُوع ومُقَطَّعَات (٢) ، وإذا رجالٌ جلوسٌ عليهم أسلحتُهم ، فسألتُ بعض من يشهد العيد فقلت : ما بال هَذه المَسْلَحة (٣) فى هذا المكان وقد أحاطَ الناسُ بذلك التّل ؟ فقال لى : هذا الفيل . فقصدت نحوَه ومالِي همٌّ إلا النَّظَرْ إلى أُذنيه ، فرجعتُ بعد طُول تأمُّل وأنا أتوهَّم عامّةَ أعضائه ، بل جميعَ أعضائه إلاّ أذنيه ، وما كان لى فى ذلك عِلَّةٌ إلاّ شُغْل قلبى بكلِّ شيءٍ هجمتُ عليه منه ، وكلُّه كان شاغلاً لى عن أذنه التى إليها كان قَصْدى .

فذاكرتُ فى ذلك سهلَ بن هارون ، فذكر لى أنَّه ابتُلِيَ بمثلها ، وأنشدنى فى ذلك بيتين من شعره ، وهما قوله :

أتيت الفيلَ محتسِباً بقَصدِى ... لِأُبْصِرَ أذنَه ويطُولَ فِكرى
فلم أر أُذنَه ورأيتُ خَلْقًا ... يقرِّب بين نسيانى وذِكرى (٤)

---

(١) موضع كان بشرق بغداد ، منسوب إلى عيسى بن المهدى .

(٢) مجلَّل : مغطى . القُطوع : نوع من الثياب المزينة . والمقطعات : ثياب عليها وشى .

(٣) المَسْلَحة : الجند فى سلاحهم .

(٤) أى يذهلنى .

١٤٣

أعجب الأشياء

قال : وقال رجل مَرَّةً : أخزى الله الفيل فما أقبَحَه ! فقال بكر بن عبد الله المُزَنّى : لا تشتُمْ شيئاً جعله اللهُ آيةً فى الجاهلية ، وإرهاصاً للنبوّة !

وقال سَعدانُ الأعمى النحوىّ : قلت للأصمعىّ : أىُّ شىءٍ رأيتَ أعجب ؟ قال : الفيل .

وقيل لابن الجَهْم : أىُّ أمور الدُّنيا أعجبُ ؟ قال : الشَّمّ .

وقيل لإبراهيم النظام : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : الرُّوح .

وقيل لأبى شَمِر : أىُّ أمور الدُّنيا أعجب ؟ قال : النِّسيان والذِّكر .

وقيل لَسْلمٍ الخَلاَّل : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : النَّار .

وقيل لبَطْلَيْمُوس : أىُّ أمور الدنيا أعجب ؟ قال : بدَنُ الفلَكِ . وقال مَرّةً أخرى : الضِّياء .

وقيل لأبى عمرو بن فائدٍ الأُسوارىّ : أىُّ شىءٍ مما رأيتَ أعجب ؟ قال : الآجال والأرزاق .

وكان إبراهيم بن سيّارٍ النظامُ شديدَ التعجُّب من الفيل .

وكان مَعبد بن عُمَر يقول : إنَّ السرطانَ والنعامة أكثرُ عجائبَ من الفيل .

١٤٤

الدُّب

والدبُّ الأُنْثَى تقيم أولادَها تحت شجرة الجوز ، ثم تَصعَد الشجرةَ فتجمع الجوزَ فى كفِّها ، ثمّ تضرب باليُمنَى على اليُسرى فتَحطِم ذلك الجوز فترمى به إلى أولادها ، فلا تزال كذلك حتَّى إذا شبِعنَ نزلَتْ .

وربَّما قطعَ الدبُّ من الشجرة الغُصنَ العَبْلَ الضَّخم ، الذى لا يقطعه صاحبُ الفأس إلاَّ بالجهد الشديد ، ثم يشدُّ به (١) على الفارس ، قابضاً عليه فى موضع قبض العصا ، فلا يصيب شيئاً إلاّ هَتَكَه (٢)

---

(١) الشد : العدو .

(٢) الهتك : الشق والقطع .

١٤٥

تكليم الأنبياء للحيوان

وقد روى الناسُ عن النبيّ ﷺ فى كلامِ السباع والإبلِ ضروباً ، ولم يذهبوا إلى أنّها نطقَتْ بحروفٍ مقطَّعة ، ولكن النبىَّ ﷺ إمّا أن يكون الله أوحَى إليه بحاجاتها ؛ وإما أن تكون فِراستُه وحِسُّه وتثبُّته فى الأمور ، مع ما يُحضره الله من التوفيق ، بيَّنَ له معانيَهَا وجلاَّها له ، واستدلَّ بظاهرٍ على باطنٍ ، وبهيئةٍ وحركةٍ على موضع الحاجة ؛ وإمَّا أن يكون الله ألهَمه ذلك إلهاماً .

وأمَّا جهةُ سليمان بن داود – صلى الله على نبيِّنا وعليه – فى المعرفة بمنطق الطير ومنطقِ كلِّ شىء ، فلا ينبغى أن يكون ذلك إلاّ أن يقومَ فى الفهم عنها مقامَ بعضِها من بعض ، إذْ كان الله قد خصَّه بهذا الاسم ، وأبانَه بهذه الدَّلالة . وأعلامُ الرسل لا يكثر عددُها ولا تعظُم أقدارُها على أقدار فضائل الأنبياء ؛ لأنّ أكثرَ الأنبياء فوق سليمان بن داود ، وأدنى ذلك أنَّ داودَ فوقَه ، لأنَّ الحُكْم فى الوارث والمورِّث ، والخليفةِ والذى استخلفه ، أن يكون المورِّث أعلى ، والمُستخْلِفُ أرفع . كذلك ظاهرُ هذا الحكم حتّى يخصَّ ذلك بُرهانٌ حادث . وإنَّما تكثر العلامات وتعظُم على قدر طبائع أهل الزَّمان ، وعلى قدر الأسباب التى تتَّفق وتتهيّأ لقومٍ دون قوم ، وهو أن يكونوا جبابرةً عُتاةً ، أو أغبياءَ منقوصين ، أو علماءَ معانِدين ، أو فلاسفةً محتالين ، أو قوماً قد شَمِلهم من العادات السَّيئة ، وتراكَمَ على قلوبهم من

الإلف للأمور المُرِدية ، مع طول لُبْثِ ذلك فى قلوبهم ، أو تكون نِحلتهم ومِلَّتُهم ودعوتُهم تحتمل من الأسباب والاحتمالات أكثَرَ ممّا يحتملُ غيرُها من ذلك ؛ فإنّ من الكفرِ ما يكون عند المسألة والجواب أكثرَ انتشاراً ، وأكثر انتقاضا ، ومنه ما يكون أمتنَ شيئاً ، وإن كان مصير الجميع إلى الانتقاض والفساد . ومنه شيء يحتاج من المعالجة إلى أكثرَ وأطول .

وإنما يتفاضل العلماءُ عند هذه الحال ، وقد يكون أن ينقدح فى قلوب الناس عداواتٌ وأضغان سببُها التحاسُد الذى يقع بين الجِيران والمتَّفقِين فى الصناعة ، وربَّما كانت العداوة من قِبَلِ العصبيَّة .

١٤٦

حقد الفيل

قال : وأخبرنى رجلٌ من البَحْرِيِّين لم أرَ فيهم أقصَدَ ولا أسَدَّ (١) ولا أقلَّ تكلُّفاً منه ، قال :

لم أجدْهم يَشُكُّون أن فَيّالاً ضربَ فيلاً فأوجعَه وألحَّ عليه ، وأنَّهم عند ذلك نَهَوه وخوَّفوه وقالوا : لا تَنَمْ حيثُ ينالُك فإنَّه من الحيوان الذى يَحقِد ويُطالب . ولما أراد ذلك السائسُ القائلةَ (٢) شدَّهُ إلى أصل شجرة وأحكَم وَثاقَه (٣) ، ثم تَنحَّى عنه بمقدارٍ ذراعٍ ونام ، ولذلك السائس جُمّة (٤) .

قال : فتناوَل الفيلُ بخرطومه غُصناً كان مطروحاً فوطىء على طرفه حتى تشعَّث (٥) ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرفَ على جُمّة الهندىّ ، ثم لواها بخُرطومه ، فلما ظَنَّ أنَّها قد تشبَّكتْ به وانعقدتْ ، جذبَ العودَ جَذْبةً فإذا الهندىُّ تحت قوائمه ، فخبطه خبطةً كانت نَفْسُه فيها .

---

(١) من السداد ، وهو الصواب والاستقامة .

(٢) القائلة : النوم فى نصف النهار .

(٣) الوثاق : الرباط .

(٤) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٥) تشعث : تفرق .

١٤٧

الزرافة

والزرافة تكون فى أرض النُّوبة فقط . وهى تسمَّى بالفارسية :« أُشْتُرْ كاوْ بَلَنْك » ، كأنه قال : بعير ، بقرة ، نمر . لأنَّ كاو هو البقرة ، وأشتر هو الجمل ، وبَلَنْك هو النمر .

* * *

وللزرافة خَطم الجمل ، والجلدُ للنَّمر ، والأظلاف والقرن للأيِّل ، والذَّنَب للظّبى ، والأسنان للبقر .

والزرافة طويلة الرِّجلين ، منحنيةٌ إلى مآخيرها . وليس لرجليها رُكبتان ، وإنَّما الرُّكبتان ليديها . وكذا البهائم كلُّها .

ذوات القرون

والفيل من ذوات القرون . وفى الحيّات والأفاعى ما لها قرونٌ ، وإنما ذلك الذى تسمع أنَّه قرن إنما هو شئٌ يقولونه على التشبيه ؛ لأنّه من جنس الجلد والغُضروف . ولو كان من جنس القُرون لكانت الحية صُلبةَ الرأس .

والحيةُ أضعفُ خَلْقِ الله رأساً ، ورأسهُ هو مقتله ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ له قرنٌ فرأسهُ أصلب ، وسِلاحهُ أتّم .

والقرنُ سلاح عَتِيدٌ (١) غير مجتلَبٍ ولا مصنوع ، وهو لذات القرون فى الرءوس .

وللكركَدَّنِ قرنٌ فى جبهته .

والجاموس أوثق بقَرنه من الأسد بمِخلبه ونابه .

والأجناس التى تكون لها القرون تكون قرونها فى الذكور منها ، وقد يكون الفحل أجمَّ (٢) ، كما أن اللِّحَى عامٌّ فى الرجال ، وقد يكون فيهم السُّناط (٣) .

---

(١) العتيد : المعد الحاضر .

(٢) الأحم : الذى لا قرن له .

(٣) السناط بكسر السين وضمها : الذى لا لحية له ، ويقال له سنوط أيضاً بفتح السين .

وقد تتشعَّب قرونُ الظباء إذا أسنَّت .

وقرونُ الظباءِ وبقرِ الوحش شِدادٌ جدًّا ، وإنّما تعتمد الأوعال فى الوثوب وفى القذفِ بأنفسها من أعالى الجبال على القرون . والأغلب على القرون أن تكون اثنين اثنين . وقد يكون لبعض الغنم قرونٌ عدّة .

١٤٩

فرس الماء

قال عمرو بن سعيد : فرس الماء يأكل التمساح . قال : ويكون فى النِّيل خيولٌ ، وفى تلك البحور – يعنى تلك الخُلجانَ – مثلُ خيول البرّ . وهى تأكل التماسيح أكلا شديداً .

قال : وفرس الماء يُؤْذِنُ بطلوع النِّيل ، بأثرِ وطءِ حافره ، فحيث وجدَ أهل مصر تلك الأرجل عرفوا أن ماء النِّيل سينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان .

وهذا الفرس ربّما رعَى الزُّروع . وليس يبدأ إذا رعَى فى أدنَى الزرع إليه ، ولكنّه يَحْزِرُ منه قدرَ ما يأكل (١) ، فيبدأ بأكله من أقصاه فيرعى مُقْبلاً إلى النِّيل . وربّما شربَ هذا الفرس من الماء بَعْدَ المرعى ثمَّ قاءَه فى المكان الذى رعَى فيه ، فينبُت أيضاً .

والطَّير عندنا يأكل التُّوت ويذرِقه ، فيَنبت من ذرقه شجر التّوت .

قالوا : وإذا أصابوا من هذا الخيلِ فِلْواً صغيراً (٢) ربَّوه مع نسائهم وصبيانهم فى البيوت .

قال : وفى سنٍّ من أسنانه شفاءٌ من وجع المعدة .

---

(١) الحزر : تقدير الشئ بالحدس والظن .

(٢) الفلو : الجحش والمهر إذا افتُلِىَ وفطم .

١٥٠

نوادر من الشعر والخبر

قالت امرأةٌ ترثى عُمَير بن مَعْبد بن زُرارة :

أعَينُ ألاَ فابكى عُمير بنَ معبدِ وكان ضَروباً باليدين وباليدِ

تقول : بالسيف وبالقداح (١) ، لأن القِداح تُضرب باليدين جميعاً .

* * *

وكان حسّان يقول لقائده إذا شَهِد طعاماً : أطعامُ يدٍ أم طعام يدين ؟

طعام يدين : الشِّواءُ وما أشبه ذلك . وطعام اليدِ : الثرائدُ وما أشبهها .

* * *

وقال بعض السَّلاطين لغلامٍ من غلمانه وبين يديه أسير : اضْرب !

قال : بيدٍ أو يدين ؟ قال : بيد . فضربه بالسِّياط . قال : اذهب فأنت حُرٌّ ! وزوّجه وأعطاه مالا .

وكان أهل المِرْبَد (٢) يقولون : لا نرى الإنصاف إلاّ فى حانوت فرج الحجّام . لأنَّه كان لا يلتفت إلى من أعطاه الكثير دون مَن أعطاه القليل ،

---

(١) القداح : جمع قدح بالكسر ، وهى سهام الميسر

(٢) المربد : موضع بالبصرة .

ويقدِّم الأوّل ثم الثانىَ ثم الثالثَ أبداً حتّى يأتىَ على آخرهم . على ذلك يأتيه مَن يأتيه ، فكان المؤخَّر لا يغضب ولا يشكو .

* * *

وقال ابن مَقروم الضَّبّىّ :

وإذا تُعلَّلُ بالسِّياط جيادُنا … أعطاك ثائبةً ولم يتعلَّلِ (١)
فدعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ … وعَلامَ أركبه إذا لم أنزلِ
ولقد أفدتُ المالَ مِن جَمْعِ امرئٍ … وظَلَفْتُ نفسى عن لئيم المأكلِ (٢)
ودخلتُ أبنيةَ المُلوكِ عليهمُ … ولَشرُّ قولِ المرء ما لم يَفعَلِ
وشَهدتُ معركةَ الفُيول وحَولَها … أبناءُ فارسَ بَيْضُها كالأعْبَلِ (٣)
مُتَسربِلِى حَلَقِ الحديدِ كأنّهمْ … جُربٌ مُقارفةٌ عَنيّةَ مُهمِلِ (٤)

---

(١) الثائبة : الدفعة الراجعة من الجرى . ثاب : رجع .

(٢) ظلفت : منعت وكففت .

(٣) البَيْض : جمع بيضة الحديد التى تلبس فوق الرأس . والأعبَل والعبلاء : حجارة بيض .

(٤) العَنيَّة : هِناء الإبل الذى تهنأ به ، أى تطلى . مُقارِفة : مخالِطة . المهمل : الذى يهمل الإبل فى الرعى : يخلِّى بينها وبين أنفسها .

وهذا النص آخر ما كتب الجاحظ فى كتاب الحيوان . والحمد لله الذى هدانا لهذا بفضله وعونه ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الفهارس التحليلية

١ – فهرس القرآن الكريم

٢ – فهرس الحديث

٣ - فهرس الأمثال

٤ – فهرس الأشعار

ع

ف

ق

ك

٥ – فهرس الأرجاز

٦ - فهرس اللغة (٥)

(٥) ما وضع بين قوسين من الأرقام فهو من تفسير الجاحظ .

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

ص

ض

ط

هـ

٧ - فهرس الحيوان

٨ - فهرس الأعلام

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ن

هـ

و

ى

٩ – فهرس القبائل والطوائف ونحوها

١٠ – فهرس البلدان والمواضع ونحوها

١١ - فهرس فصول الكتاب

صفحة

١٢ - فهرس الدليل (*)

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
١	**١** : ١	١٨	٢٨٩
٢	٣٧	١٩	**٢** : ١٤
٣	٣٨	٢٠	٥٠
٤	٤٢	٢١	٧٣
٥	٥٠	٢٢	٨٣
٦	٦٠	٢٣	٨٧
٧	٧٦	٢٤	١١٣
٨	٧٩	٢٥	١٢٢
٩	٨٧	٢٦	١٢٤
١٠	٨٨	٢٧	١٢٨
١١	١٠٦	٢٨	١٢٩
١٢	١١٢	٢٩	١٤٧
١٣	١٣٥	٣٠	١٥٤
١٤	١٤١	٣١	١٥٥
١٥	١٩٧	٣٢	١٧٠
١٦	٢٠٤	٣٣	١٧١
١٧	٢٨٠	٣٤	١٧٢

(*) يبين ما يقابل مواضع فصول التهذيب ، من أجزاء كتاب الحيوان وصفحاته .

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
٣٥	١٧٩	٥٨	٣٤٣
٣٦	١٩٥	٥٩	٣٤٩
٣٧	٢٣١	٦٠	٣٩٩
٣٨	٢٣٨	٦١	٤٠٤
٣٩	٢٦٠	٦٢	٤٠٥
٤٠	٢٧٦	٦٣	٤٥١
٤١	٢٨٩	٦٤	٤٥٧
٤٢	٣٥٧	٦٥	٥١٠
٤٣	٣٧٤	٦٦	٥٢٧
٤٤	**٣** : ٥	٦٧	٥٣٠
٤٥	٥٤	٦٨	**٤** : ٥
٤٦	١٢٣	٦٩	٧
٤٧	١٢٨	٧٠	٤٢
٤٨	١٣١	٧١	٤٩
٤٩	١٣٩	٧٢	٦٥
٥٠	١٤٢	٧٣	٧١
٥١	١٤٩	٧٤	١٠٧
٥٢	٢٢٧	٧٥	١١١
٥٣	٢٥٦	٧٦	١١٦
٥٤	٢٦٠	٧٧	١١٨
٥٥	٢٨٤	٧٨	١٢٠
٥٦	٣١١	٧٩	١٢٨
٥٧	٣١٩	٨٠	١٣٥

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
٨١	١٥٤	١٠٣	٢٣٨
٨٢	١٥٦	١٠٤	٢٤٥
٨٣	١٧٧	١٠٥	٢٤٨
٨٤	١٨٤	١٠٦	٢٥٢
٨٥	١٩١	١٠٧	٢٧٣
٨٦	١٩٣	١٠٨	٣٠٠
٨٧	٢٤٧	١٠٩	٣١١
٨٨	٢٥١	١١٠	٣١٧
٨٩	٣١٠	١١١	٣٣٩
٩٠	٤٦١	١١٢	٣٥٤
٩١	٤٦٦	١١٣	٤٠٩
٩٢	٤٧٨	١١٤	٤١٧
٩٣	**٥** : ٢٣	١١٥	٤٢٩
٩٤	٢٥	١١٦	٤٤٦
٩٥	٦٠	١١٧	٥٢٥
٩٦	٦٦	١١٨	٥٣٩
٩٧	١١٨	١١٩	٥٧٠
٩٨	١٣٧	١٢٠	٥٧٣
٩٩	١٥١	١٢١	**٦** : ٢٣
١٠٠	١٨١	١٢٢	٣٩
١٠١	٢١٠	١٢٣	٥٤
١٠٢	٢٢٤	١٢٤	٦٧

التهذيب	الحيوان	التهذيب	الحيوان
١٢٥	١٤٥	١٣٨	١٢٣
١٢٦	١٨٦	١٣٩	١٣١
١٢٧	١٩٦	١٤٠	١٥١
١٢٨	٢٠٠	١٤١	١٩٤
١٢٩	٢٤٨	١٤٢	٢٠١
١٣٠	٣١٣	١٤٣	٢٠٢
١٣١	٣٥٦	١٤٤	٢١٧
١٣٢	٣٦٣	١٤٥	٢١٨
١٣٣	٤١١	١٤٦	٢٢٨
١٣٤	٤٦٦	١٤٧	٢٤١
١٣٥	٤٦٧	١٤٨	٢٤٦
١٣٦	**٧** : ٩٢	١٤٩	٢٥٠
١٣٧	١١٨	١٥٠	٢٦٠